

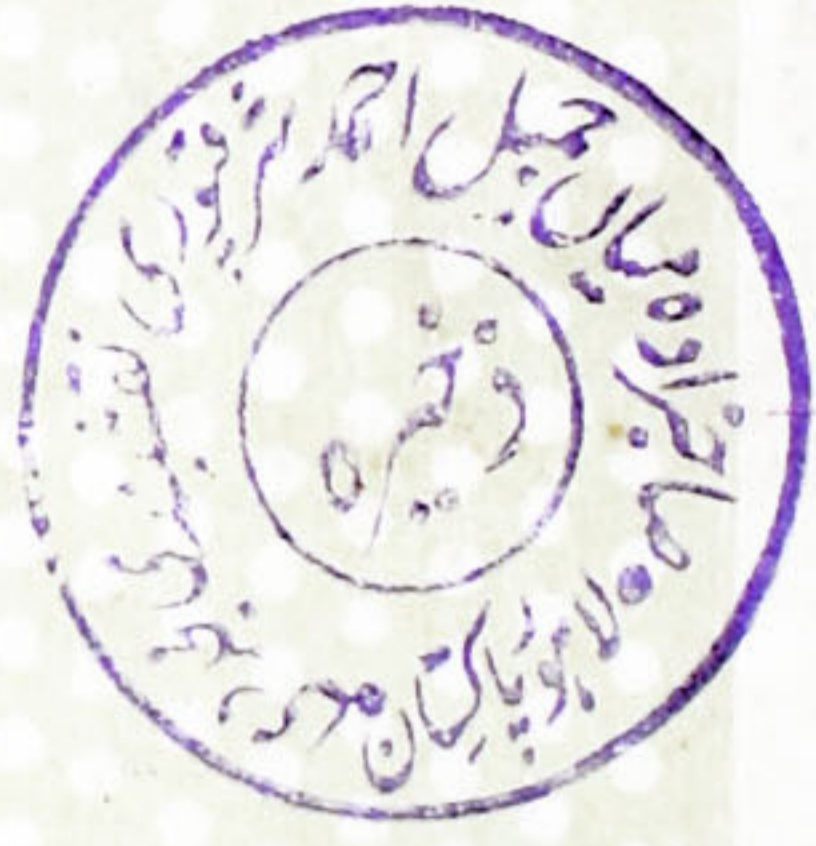
# مَوْعِظَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

مِنْ

# أَحْيَاءِ عُلَمَاءِ الدِّينِ

تَأَلِيفُ

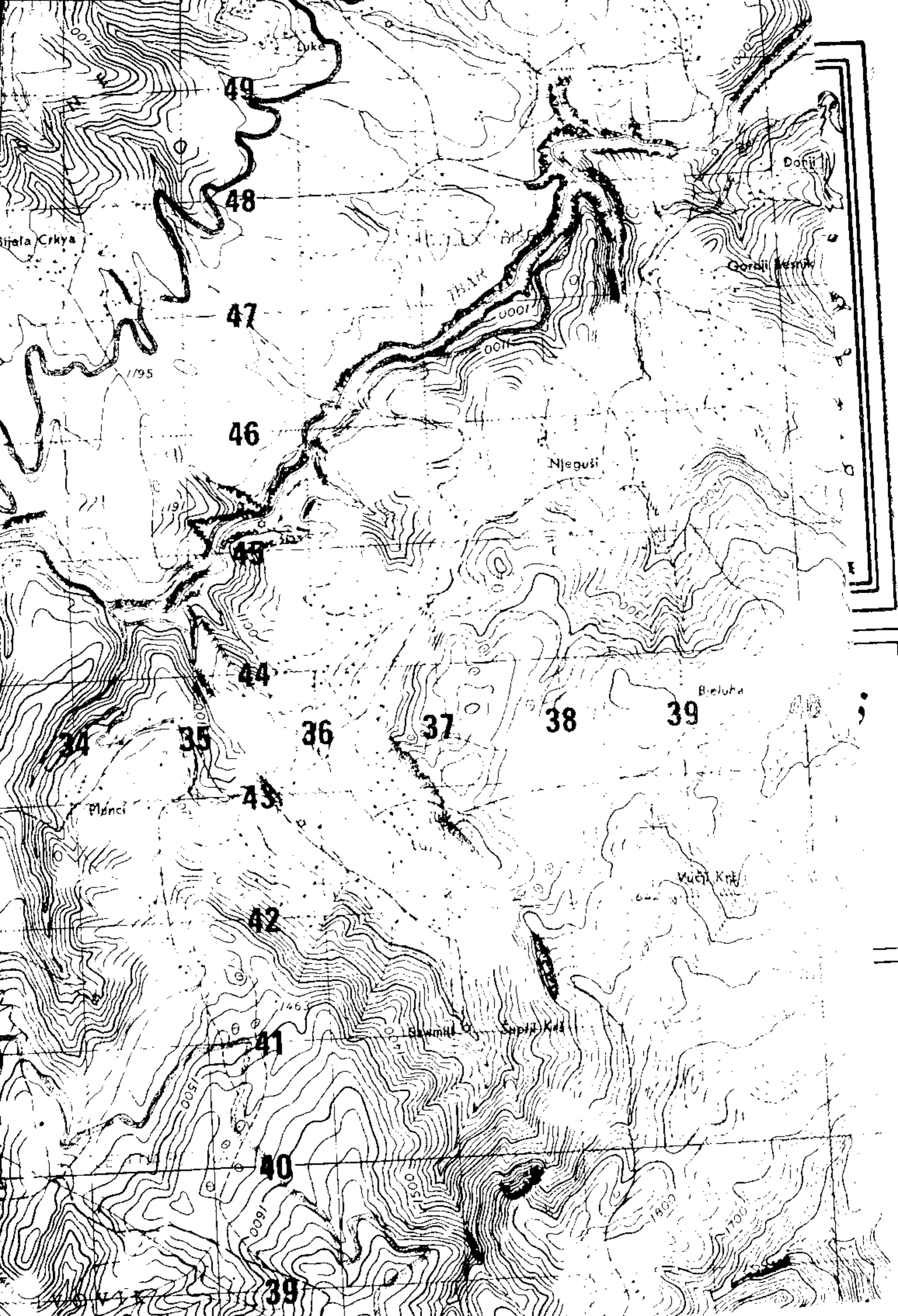
الْعَلَّامَةِ الْمَرْحُومِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ جَمَالِ الدِّينِ الْفَاسِي الْمَدِينِيِّ



يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

بمصر ص.ب. ٥٧٨



مَوْعِظَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

مِنْ

أَحْيَاءِ عُلَمَاءِ الدِّينِ

تَأليف

العلامة المرجوم الشيخ محمد جمال الدين الفاسمي الدمشقي

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

بمصر ص.ب ٥٧٨

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمدك يا ذا الجلال والإكرام ، على ما أكملت لنا من دين الإسلام ، ونصلي ونسلم على نبي الهدى والرحمة ، المبعوث بالكتاب والحكمة ، خاتم النبيين ، وإمام المرشدين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وأتباعه أجمعين .

« أما بعد » فإن موعظة العامة ، والتصدي لإرشادهم في الدروس العامة ، من الأمور المهمة ، المنوطة بخاصة الأمة ، إذ هم أمناء الشرع ونور سراجهم ، ومصاييح علومه وحفاظ سياجه . وكان السلف يملون مما وقر في صدورهم ما يرونه أمس بحالهم وزمانهم ومكانهم . ولما امتدت النتوح في الإسلام ، ابتدئ بجمع الهدى النبوي للأنام . ثم اتسع العمران وعظمت الحضارة ، فأخذ ينمو التفريع والتخريج والانبساط في الفنون على نسبتها في الغزارة ، واستبحرت في فنون العلم الأسفار ، ودنت لمقتطفه مباحثه الكبار . وصار المعول في بثه عليها ، والملاجأ في تعرف حقائقه عليها ، وتنوعت في كل فن مصنفاً ، وزخرت من كل بحث مؤلفاته ، حتى حار طالبه في انتقاء الأحسن ، واستوقف كثرتها نظره في تخير الأتقن ، وأصبح التبصر في أجودها عنوان الذكاء ، والوقوف على أنفعها آية النباهة والارتقاء . ولما كانت عظة العوام ، بإيقافهم على جواهر دين الإسلام ، وإعلامهم محاسن الدين وواجباته ، ونوافله ومحظوراته ، وما يأمر به من الأخلاق الكريمة ، ويزجر عنه من المساويء الذميمة ، ليرتقوا إلى ما فيه صلاحهم ونجاحهم ، فيفوزوا بما في الاعتصام به سعادتهم وفلاحهم ، من أوجب الواجبات ، وآكد المفروضات ، لما أخذ الله على العلماء من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيقف المدعوون على شرائعه تعالى فيما أمر وزجر ، ووعد وأوعد ، وبشر وأنذر ، فلزم الداعي إلى الله تعالى أن يجتهد بقطنته لما يعينه في دعوته ، فينتخب من المدونات أنفعها ، وينتقى من لباب لبابها

أرفعها . إذ كثير مما اعتيد في المحافل تدريسه ، لم يكن على بناء إفادة العامة بأسيسه ، ولا برهان بعد عيان .

موضوع ذكرى العامة موضوع جليل ، لا يصلح له إلا كل حكيم نبيل . أتدرى من المذكر ، أو الواعظ ، أو المرشد ؟ هو إنسان حافظ لحدود الله ، قائم على إرشاد العقول ، وتهذيب النفوس ، وتثقيف الأذهان ، وتنوير المدارك وتصحيح المعتقدات ، وإبانة سر العبادات ، وإمطاة ما غشى الأفهام القاصرة من ضباب الجهالة ، وتراث الضلالة .

المذكر وارث محمدى واقف على مقاصد التشريع وحكمته ، عالم مواضع الخلاف والوفاق ، سائس لسامعيه بما يلائمهم من الأحكام . لا يصعد بهم قمم الشدة والتعسير ، ولا يهبط بهم إلى حضيض الترخيص غلواً في التيسير ، بل يسير بهم على جادة الحق وسواء الطريق .

المذكر ينشر العلم النافع بين الناس ، ويحثهم على العمل به ، ويخاطبهم على قدر عقولهم ، ويتنزل لإرشادهم إلى لغتهم ، يعاشرهم بالنصح ، ويخاطبهم لتأليف قلوبهم .

المذكر هو العامل الأكبر في إخراج الناس من ظلمات الجهالة إلى نور العلم ، وتحريرهم من رق الخرافات والوهم . وهو كالسراج فإذا لم ينتفع بضوئه فلا فائدة في وجوده . وحق ما قيل : « لا يكون العالم عالماً حتى يظهر أثر علمه في قومه ، إذ هو ليس مسئولاً عن نفسه وحدها بل عنها وعن عشيرته وأمته . فمن الواجب عليه أن يعلم ويعظ ويبليغ كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وعلى الجملة فالمذكر لا بد أن يكون كاملاً في علمه ، كاملاً في تعليمه ، كاملاً في إرشاده ، كاملاً في أخلاقه .

وغير خاف أن مذكر العامة على قوة ملكته وسعة مداركه ، يضطر إلى مادة معينة على ذكره ، وتمد ذاكرته إذا أمّ مبتغاه . وليكن أين تلك المادة الممددة

فإني لم أر بين المصنفات على كثرتها ما ألف لذكرى العامة مستوفياً للشروط  
 التامة ، بأن يفقهوا معناه ، ويدركوا منطوقه ومغزاه ، ويكون وافياً بحاجياتهم  
 آتياً على جميع كلياتهم ، مجرداً عن دقائق المسائل ، قريب الأخذ للمتناول .  
 فيستعين به المذكر ، ويهتدى به المستبصر . ولم أزل أترقب من نفحات التوفيق  
 ما يهدىء البال ، إلى أن رأيت بعد ما بلورت في عالم التدريس ، كل كتاب  
 نفيس ، الأعوام الطوال : أن من أنفع ما يقتبس منه عظة المؤمنین مواضيع  
 تنتخب من إحياء علوم الدين رحمته للعلامة الإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن  
 محمد بن محمد الغزالي الطوسي عليه الرحمة والرضوان . ثم اتفق أن تذاكرت مع  
 إمام حكيم<sup>(١)</sup> واستطلعت رأيه الصائب في هذا المرام ، فقال متأسفاً : « إن هذا  
 الموضوع لم يصنف فيه ، إلا أن أحسن ما لدينا لذلك هو الإحياء بعد تجريده »  
 فعددت ذلك من بدائع الموافقات وأتذكر الآن أن أحد الأعلام في دمشق أشار  
 علي من استشاره من المدرسين بالإحياء فأخذ المدرس في قراءته بالحرف ، عملاً  
 بالأمر الصرف ، ثم شكاه ضيق صدره من مباحث لا تفقهها العوام ، ولا ينتفع  
 بها إلا خاصة الأنام . فأجابه بأن أمره كان لفصول تنتخب منه . وقد تحققت  
 بذلك كمال حذقه رحمه الله ورضى عنه . لذلك عزممت سنة ١٣٢٣ على اختصاره  
 في جزئين موجزين على الشريعة السالفة ، أساير فيهما ترتيب أصله بلا مخالفة .  
 والمأمول أن نحظى بالغاية المتوخاة ، والضالة المنشودة . وبالله المستعان ،  
 وعليه التكلان .

(١) و الأسماء الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية أيام كسبا في ضيافته بمصر عام ١٣٢١  
 واستقر ناد فأشار به ، عليه الرحمة والرضوان .

## كتاب العلم

### فضيلة العلم

شواهد من القرآن آيات كثيرة ، منها قوله عز وجل : ( شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ) فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثالث بأهل العلم ، وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً . وقال الله تعالى : ( يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ) وقال الله عز وجل : ( قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ) وقال تعالى : ( إنما يخشى الله من عباده العلماء ) وقال تعالى : ( ولو رددوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ) رد حكمه في الوقائع إلى استنباطهم ، وألحق رتبهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله تعالى .

وأما الأخبار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وياهمه رشده » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة ، وقال صلوات الله وسلامه عليه : « إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله عز وجل فلا يورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم » وقال صلى الله عليه وسلم في تفصيل العلم على العبادة والشهادة : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » فانظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة النبوة ، وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم ، وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » ومن وصايا لقمان لابنه : « يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك ، فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء » .

فضيلة التعليم

أما الآيات فقوله تعالى : ( فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ) وقوله عز وجل ( فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ) . وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم : « لأن تغدوا فتتعلم باباً من العلم خير من أن تصلى مائة ركعة » وقال صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقال أبو الدرداء : لأن أتعلم مسألة أحب إليّ من قيام ليلة ، وقال أيضاً : العالم والمتعلم شريكان في الخير وسائر الناس همج لا خير فيهم ، وقال الشافعي رضي الله عنه : « طلب العلم أفضل من النافلة » وقال فتح الموصلي رحمه الله : أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت ؟ قالوا : بلى ، قال : كذلك القلب إذا منع عنه العلم والحكمة ثلاثة أيام يموت ، ولقد صدق فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته ، كما أن غذاء الجسد الطعام ، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ، ولكنه لا يشعر به ، إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه . فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ورفعته موت رواته وإن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم .

فضيلة التعليم

أما الآيات فقوله عز وجل : ( ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ) والمراد هو التعليم والإرشاد ، وقوله تعالى : ( وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ) وهو إيجاب للتعليم وقوله تعالى : ( وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ) وهو تحريم للكتمان كما قال تعالى في الشهادة : ( ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ) وقال تعالى : ( ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ) وقال تعالى : ( ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة )



وقال تعالى : ( ويعلمهم الكتاب والحكمة ) وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن : « لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها » وقال صلى الله عليه وسلم : « من علم علماً فكتمه أجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير » وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » وقال صلى الله عليه وسلم : « الدال على الخير كفاعله » وقال صلى الله عليه وسلم : « رحمة الله على خلفائى » قيل : ومن خلفائك؟ قال : « الذين يحيون سنتى ويعملونها عباد الله » .

ومن الآثار ما روى عن معاذ أنه قال : تعلموا العلم ، فإن في تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعاليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على الدين ، والصبر على البأساء والضراء ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم ، أدلة فى الخير ، تقتص آثارهم ، وترمق أفعالهم ، يبلغ العبد به منازل الأبرار والدرجات العلى ، والتفكير فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عزوجل ، وبه يعبد ، وبه يوحد ويمجد ، وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه ، ياهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء . وقال الحسن رحمه الله : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم . أى أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية .

بيان العلم الذى هو فرض عين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم »

فمنه ما يدرك به التوحيد ويعلم به ذات الله تعالى وصفاته ، ومنه ما تعرف به العبادات والحلال والحرام ، وما يحرم من المعاملات وما يحل ، ومنه ما تعلم به أحوال القلب : ما يحمد منها كالصبر والشكر والسخاء وحسن الخلق وحسن المعاشرة والصدق والإخلاص ، وما تدم كالحقد والحسد والغش والكبر والرياء والغضب والعداوة والبغضاء والبخل . فمعرفة ما تكتسب به الأولى وما تجتنب به الثانية فرض عين كتصحيح المعتقدات والعبادات والمعاملات .

## كتاب عقيدة أهل السنة

في كتابتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام

عقيدتهم في ذاته تعالى وتقدس أنه إله واحد لا شريك له قديم لا أول له مستمر الوجود لا آخر له ، أبدى لا نهاية له ، دائم لا انصرام له ، لم يزل ولا يزال ، موصوفاً بنعوت الجلال ، لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال ، بتصرم الآباد وانقراض الآجال ، بل هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . وأنه ليس بجسم مصور ، ولا يماثل موجوداً ، ولا يماثل موجود ، ولا تحيط به الجهات ، ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات ، وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده وهو فوق العرش والسماء ، وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى ، فوقية لا تزيد قرباً إلى العرش والسماء ، كما لا تزيد بعداً عن الأرض والثرى ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى ، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد ، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام ، كما لا تماثل ذاته الأجسام ، وأنه لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء ، تعالى عن أن يحويه مكان كما تقدس عن أن يحده زمان ، بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان ، وهو الآن على ما عليه كان ، وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول مرئى الذات بالأبصار في دار القرار ، نعمة منه ولطفاً بالأبرار ، وإتماماً منه للنعم ، بالنظر إلى وجهه الكريم ، وأنه تعالى

حي قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم ،  
 ولا يعارضه فناء ولا موت ، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع ، المتوحد  
 بالإيجاد والإبداع ، وأنه عالم بجميع المعلومات ، محيط بما يجري من تخوم  
 الأرضين إلى أعلى السموات ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض  
 ولا في السماء بل يعلم ديب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء .  
 ويدرك حركة الذر في جو الهواء ، ويعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس  
 الضمائر وحركات الخواطر ، وخفيات السرائر ، بعلم قديم أزلي ، لم يزل  
 موصوفاً به في أزل الآزال ، وأنه تعالى مرید للكائنات ، مدبر للحادثات ،  
 فلا يجري في الملك والملايكوت أمر إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته ، فما شاء  
 كان وما لم يشأ لم يكن لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وأنه تعالى سميع بصير ،  
 لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي ، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دق ،  
 ولا يحجب سمعه بُعد ، ولا يدفع رؤيته ظلام . لا يشبه سمعه وبصره سمع وبصر  
 الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذات الخلق ، وأنه تعالى متكلم أمرناه ، واعد متوعد ،  
 وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزيبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام بكلامه  
 الذي هو صفة ذاته لا خلق من خلقه ، وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبديد ،  
 ولا صفة لمخلوق فينفد ، وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث  
 بفعله ، فائض من عدله ، على أحسن الوجوه وأكملها ، وأتمها وأعدلها . وأنه حكيم  
 في أفعاله عادل في أقضيته . فكل ما سواه إنس وجن وملاك ، وسماء وأرض  
 وحيوان ونبات وجماد ، ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعاً  
 وأنشأه إنشاءً بعد أن لم يكن شيئاً إذ كان في الأزل موجوداً وحده ولم يكن  
 معه غيره ، فأحدث الخلق بعد ذلك إظهاراً لقدرته وتحقيقاً لما سبق من إرادته  
 ولما حق في الأزل من كلمته ، لا لافتقاره إليه وحاجته ، وأنه متفضل بالخلق  
 والاختراع والتكليف لا عن وجوب ، وامتطول بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم ،

فله الفضل والإحسان ، والنعمة والامتنان ، وأنه عز وجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم اللزوم له ، إذ لا يجب عليه لأحد فعل ، ولا يتصور منه ظلم ، ولا يجب لأحد عليه حق ، وأن حقه في الطاعات واجب على الخلق بإيجابه على السنة أنبيائه عليهم السلام ، لا بمجرد العقل ، ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعدوه ووعدوه فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به ، وأنه بعث النبي الأمي القرشي محمداً صلى الله عليه وسلم برسالاته إلى العرب والعجم والجن والإنس ، وأنه ختم الرسالة والنبوة ببعثته ، فجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وأنزل عليه كتابه الحكيم ، وشرح به دينه القويم ، وهدى به الصراط المستقيم وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر به ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من يمت كما بدأهم يهودون ، وأنه تعالى قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم ، وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله وجعلهم محجوبين عن رؤيته<sup>(١)</sup> وندين بأن لا تكفر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنا والسرقة وشرب الخمر ، وندين بأن لا تنزل أحد من أهل التوحيد والتمسكين بالإيمان جنة ولا ناراً إلا من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ونرجو الجنة للمذنبين ، ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذبين ، ونقول إن الله عز وجل يخرج قوماً من النار بعد أن امتحشوا<sup>(٢)</sup> بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم تصديقاً لما جاءت به الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونؤمن بعذاب القبر ، وأن الله عز وجل يوقف العباد في الموقف ويحاسب المؤمنين ، وندين بحب السلف الذين

(١) إلى هنا من كلام الغزالي وما بعده من كتاب الإبانة للإمام الأشعري .

(٢) أي احترقوا والمحش احتراق الجلد وظهر العظم ، ويروى امتحشوا لمسلم بسم فاعله اه  
نهاية .

اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه عليه السلام ، وثنى عليهم بما أثنى الله عليهم  
 وونتولاهم أجمعين ، ونقول : إن الإمام الفاضل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 أبو بكر الصديق رضوان الله عليه ، وأن الله أعز به الدين وأظهره على المرتدين ،  
 وقدمه المسلمون للإمامة كما قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة وسموه  
 بأجمعهم خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عمر بن الخطاب رضی الله عنه .  
 ثم عثمان بن عفان رضی الله عنه ، وأن الذين قاتلوه قاتلوه ظالماً وعدواناً . ثم على  
 ابن أبي طالب رضی الله عنه — فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 وخلائقهم خلافة النبوة ، وتتولى سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 ونكف عما شجر بينهم ، ونقول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا وسنة نبينا  
 وإجماع المسلمين وما كان في معناه ، ولا نبتدع في دين الله ما لم يأذن لنا ولا نقول  
 على الله ما لا نعلم ، ونرى الصدقة عن موتى المسلمين والدعاء لهم نافعا . ونؤمن  
 بأن الله ينفعهم بذلك<sup>(۱)</sup> ونقول : إن الصالحين يجوز أن يخصهم الله بآيات  
 يظهرها عليهم .

## كتاب أسرار الطهارة

قال تعالى : ( ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ) .  
 وقال تعالى : ( فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين ) .  
 وقال صلى الله عليه وسلم : « مفتاح الصلاة الطهور » وعنه : « بنى الدين على  
 للنظافة » ففطن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن أهم الأمور تطهير السرائر

(۱) في الإقناع وشرحه — من كتب الخبالة — وكل قرينة فعلمها المسامحة — هل ثوابها  
 لمسلم حتى أوميت جاز ونفعه لحصول الثواب له حتى لرسول الله صلى الله عليه وسلم من  
 تطوع وواجب تدخله النيابة كحج وصوم نذر أو لا كصلاة ودعاء واستغفار وصدقة وعتق  
 وأضحية وأداء دين وصوم وكذا قراءة وغيرها — وقال الإمام أحمد : الميت يصل إليه كل  
 شيء من الخير للنصوص الواردة فيه ، ولأن المسلمين يجتمعون في كل عصر وقرن ويهدون  
 لموتاهم من غير فكبير ، فكان إجماعاً اه .

إذ يبعد أن يكون المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : « الطهور نصف الإيمان » عمارة  
 الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء وإلقائه وتخريب الباطن وإبقائه مشحوناً بالأخبار  
 والأقذار هيئات هيئات . والطهارة لها أربع مراتب : « المرتبة الأولى » تطهير  
 الظاهر عن الأحداث وعن الأخبار والفضلات « المرتبة الثانية » تطهير الجوارح  
 عن الجرائم والآثام ، المرتبة الثالثة « تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والردائل  
 المقتوتة » المرتبة الرابعة « تطهير السر عما سوى الله تعالى وهو طهارة الأنبياء  
 صلوات الله عليهم والصدّيقين . ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة  
 السافلة فلا يصل إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة ما لم يفرغ  
 من طهارة القلب عن الخلق المذموم وعمارته بالخلق الحمود ، ولن يصل إلى ذلك  
 من لم يفرغ من طهارة الجوارح عن المناهي وعمارتها بالطاعات — كلما عز المطلوب  
 وشرف صعب مسلكه وكثرت عقباته فلا تظن أن هذا الأمر يدرك بالمنى وينال  
 بالهوينى . نعم من عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب  
 الطهارة إلا الدرجة الأخيرة التي هي كالقشرة الأخيرة الظاهرة بالإضافة إلى اللب  
 المطلوب فصار يمعن فيها ويستوعب جميع أوقاته في الاستنجاء وغسل الثياب  
 وتنظيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة ظناً منه بحكم الوسوسة وتخيل العقل :  
 أن الطهارة المطلوبة الشريفة هي هذه فقط وجهالة بسيرة الأولين واستغراقهم جميع  
 الهم والفكر في تطهير القلب وتساؤلهم في أمر الظاهر حتى أن عمر رضى الله عنه  
 مع عنق منصبه توضاً من ماء جرة نصرانية . ولقد كانوا يصلون على أرض  
 المسجد وكانوا يقتصرون على الحجارة في الاستنجاء فكانت عنايتهم كلهم  
 بنظافة الباطن ولم ينقل عن أحد منهم سؤال عن دقائق النجاسات . وقد انتهت  
 النوبة إلى طائفة يسمون الرعونة نظافة فأكثر أوقاتهم في تزيينهم الظواهر كفعل  
 المشاطة بعروستها والباطن خراب مشحون بمخباث الكبر والعجب والجهل  
 والرياء والنفاق ولا يستنكرون ذلك ولا يتعجبون منه ، ولو اقتصر مقتصر على

الاستنجاء بالحجر أو صلي على الأرض من غير سجادة مفروشة أو توضاً من آنية كافر أقاموا عليه القيامة وشددوا عليه النكير ولقبوه بالقدر ، قانظر كيف صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً وكيف اندرس من الدين رسمه كما اندرست حقيقته وعلمه . إذا عرفت هذه المقدمة فانتكلم الآن عن مراتب الطهارة على الرابعة وهي نظافة الظاهر ، فنقول طهارة الظاهر ثلاثة أقسام : طهارة عن الخبث ، وطهارة عن الحدث ، وطهارة عن فضلات البدن وهي التي تحصل بالقلم<sup>(١)</sup> والاستحمام واستعمال النورة والختان وغيرها .

### القسم الأول : في طهارة الخبث

والنظر فيه يتعلق بالمزال والمزال به والإزالة والطرف الأول في المزال وهي النجاسة

الأعيان ثلاثة : جمادات ، وحيوانات ، وأجزاء حيوانات : أما الجمادات فطاهرة كلها إلا الخمر ، وكل منتبذ مسكر ، والحيوانات طاهرة كلها إلا الكلب والخنزير ، فإذا ماتت فكلها نجسة إلا خمسة : ( ١ ) الأدمى ( ٢ ) والسمك ( ٣ ) والجراد ( ٤ ) ودود التفاح ، وفي معناه كل ما يستحيل من الأطعمة ( ٥ ) وكل ما ليس له نفس سائلة كالذباب والخنفساء وغيرها فلا ينجس الماء بوقوع شيء منها فيه ، وأما أجزاء الحيوانات فقسمان : ﴿ أحدها ﴾ : ما يقطع منه وحكمه حكم الميت ، والشعر لا ينجس بالجزء والموت ، والعظم ينجس ﴿ الثاني ﴾ : الرطوبة الخارجة من باطنه ، فكل ما ليس مستحيلاً ولا له مقر فهو طاهر كالدماغ والعرق واللحاب والمخاط ، وماله مقر وهو مستحيل فنجس إلا ما هو مادة الحيوان كالمني والبيض والقيح والدم والروث ، والبول نجس من الحيوانات كلها ، ولا يعنى عن شيء من هذه النجاسات قاياها وكثيرها إلا عن خمسة :

(١) يعني قلم الأظفار ، والنورة يزال بها شعر العانة .

﴿ الأول ﴾ : أثر النجو بعد الاستجمار بالأحجار يعنى عنه ما لم يعد المخرج .  
 ﴿ الثانى ﴾ : طين الشوارع وغبار الروث فى الطريق يعنى عنه مع تيقن النجاسة بقدر ما يتعذر الاحتراز عنه وهو الذى لا ينسب المتلطلخ به إلى تفريط أو سقطة .  
 ﴿ الثالث ﴾ . ما على أسفل الخف من نجاسة لا يخلو الطريق عنها فيعنى عند بعد ذلك للحاجة . ﴿ الرابع ﴾ دم البراغيث ما قل منه أو كثر إلا إذا جاوز حد العادة سواء فى ثوبك أو ثوب غيرك فلبسته . ﴿ الخامس ﴾ : دم البثرات وما انفصل منها من قيح وصدید وذلك ابن عمر رضى الله عنه بثرة على وجهه فخرج منها الدم وصلى ولم يغسل وفى معناه ما يترشح من لطخات الدماميل التى تدوم غالباً وكذلك أثر النصد إلا ما يقع نادراً من جراح أو غيره فيلحق بدم الاستحاضة ولا يكون فى معنى البثرات التى لا يخلو الإنسان عنها فى أحواله ، ومسامحة الشرع فى هذه النجاسات الخمس تعرفك أن أمر الطهارة على التساهل وما أبدع فيها وسوسة لا أصل لها .

### الطرف الثانى : فى المزال به

وهو إما جامد وإما مائع — أما الجامد فحجر الاستنجاء وهو مطهر تطهيراً تخفيف بشرط أن يكون صلباً منشقاً غير محترم ، وأما المائعات فلا تزال النجاسات بشيء منها إلا الماء ولا كل ماء بل الطاهر الذى لم يتفاحش تغيره بمخالطة ما يستغنى عنه ، ويخرج الماء عن الطهارة بأن يتغير بملاقاة النجاسة طعمه أو لونه أو ريحه ، فإن لم يتغير بملاقاة النجاسة طعمه أو لونه أو ريحه لم ينجس لقوله صلى الله عليه وسلم : « خلق الله الماء طهوراً لا ينجسه شيء إلا ما غير طعمه أو لونه أو ريحه » .

### الطرف الثالث : فى كيفية الإزالة

النجاسة إن كانت حكمية وهى التى ليس لها جرم محسوس فيكفى إجراء الماء على جميع مواردها ، وإن كانت عينية فلا بد من إزالة العين ، وبقاء



اللون بعد الحت والقرص معفو عنه ، أو يعنى عن الرائحة إذا عسرت إزالتها ،  
والنصر مرات متواليات يقوم مقام الحت والقرص فى اللون ، والمزىل للوسواس  
أن يعلم أن الأشياء خاقت طاهرة بيقين فما لا يشاهد عليه نجاسة ولا يعلمها يقيناً  
على معها .

### القسم الثانى : طهارة الأحداث

ومنها الوضوء والغسل والتيمم ويتقدمها الاستنجاء — فانورد كيفيتها على  
التربيب مع آدابها وسننها مبتدئين بسبب الوضوء ، وآداب قاضى الحاجة إن  
شاء الله تعالى .

#### آداب قضاء الحاجة

ينبغى أن يبعد عن أعين الناظرين فى الصحراء ، وأن يستتر بشيء إن وجده  
وأن لا يكشف عورته قبل الانتهاء إلى موضع الجلوس ، وأن لا يستقبل القبلة  
ولا يستدبرها ، وأن يتقى الجلوس فى متحدث الناس ، وأن لا يبول فى الماء  
الراكد وتحت الشجرة المثمرة وفى الثقب ، وأن يتقى الموضع الصلب ومهببات  
الرياح فى البول استنزاهاً من رشاشه ، وأن يتكىء فى جلوسه على الرجل اليسرى  
وإن كان فى بنیان يقدم الرجل اليسرى فى الدخول واليمينى فى الخروج ولا يستصحب  
شيئاً عليه اسم الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن يقول عند الدخول :  
بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث ، وعند الخروج : الحمد لله الذى أذهب عنى  
ما يؤذنى وأبقى على ما ينفعنى ، وأن يستبرىء من البول بالنتر ثلاثاً ولا يكتر  
التفكير فى الاستبراء فيتوسوس ويشق عليه الأمر وما يحس به من بلل فيقدر أنه  
بقية الماء وقد كان أخفهم استبراء أفقهم فتدل الوسوسة على قلة الفقه ، ومن  
الرخصة أن يبول الإنسان قريباً من صاحبه مستتراً عنه ، فعل ذلك رسول الله  
صلوات الله عليه مع شدة حياته ليبين للناس ذلك .

كيفية الاستنجاء

ثم يستنجى لقعدته بثلاثة أحجار-، ومثلها كل خشن طاهر، ثم يستنجى بالماء بأن يفيضه باليمين على محل النجو، ويدلك باليسرى حتى لا يبقى أثر يدركه الكف بحس اللبس ويترك الاستقصاء فيه بالتعرض للباطن فإن ذلك منبع الوسواس، وليعلم أن كل ما لا يصل إليه الماء فهو باطن، ولا يثبت حكم النجاسة للفضلات الباطنة ما لم تظهر، وكل ما هو ظاهر وثبت له حكم النجاسة فحد ظهوره أن يصل الماء إليه فيزيله ولا معنى للوسواس.

كيفية الوضوء

إذا فرغ من الاستنجاء، وأراد القيام إلى الصلاة، اشتغل بالوضوء ويتدى بالسواك ثم يجلس للوضوء مستقبلاً القبلة ويسمى، ثم يغسل يديه ثلاثاً قبل أن يدخلها الإناء، ثم يأخذ غرفة لفيه فيتمضمض بها ثلاثاً ويفرغها إلا أن يكون صائماً، ثم يأخذ غرفة لأنفه ويستنشق ثلاثاً، ويصعد الماء بالنفس إلى خياشيم ويستنثر ما فيها، ثم يعرف غرفة لوجهه فيغسله من مبتدئ سطح الجبهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن في الطول، ومن الأذن إلى الأذن في العرض، وما يوصل إلى منابت الشعور الأربعة « الحاجبان والشاربان والعداران والأهداب » لأنهم حقيقة في الغالب، وإلى منابت اللحية الخفيفة، وأما الكثيفة فيفيض الماء على ظاهرها، ويندب تخليها، ويدخل الأصابع في محاجر العينين وموضع الرمض ومجتمع الكحل وينقيهما، ثم يغسل يديه إلى مرفقيه ثلاثاً ويحرك الخاتم ويبدل باليمين، ثم يستوعب رأسه باليسرى بأن يبيل يديه ويلصق رءوس أصابع يده اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدمة الرأس ويمرهما إلى القفا ويردهما إلى المقدمة، ثم يمسح أذنيه ظاهرهما، وباطنهما بماء جديد، ثم يمسح رقبته بماء جديد، ثم يغسل رجليه إلى الكعبين ويخلل أصابعهما فإذا فرغ رفع رأسه إلى السماء وقال

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني من عبادك الصالحين .

ما يكره في الوضوء

يكره في الوضوء أن يزيد على الثلاث وأن يسرف في الماء ، وتوضأ عليه الصلاة والسلام ثلاثاً وقال : « من زاد فقد آسأء وظلم » وقال : « سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء والطهور » ويقال : من وهن علم الرجل ولوعه بالماء في الطهور ، ويكره أن ينفض اليد فيرش الماء وأن يلمطم وجهه بالماء لظما .

الاعتبار بالطهارة

متى فرغ من وضوئه وأقبل على الصلاة فينبغي أن ينظر بباليه أنه طاهر ظاهره وهو موضع نظر الخلق فينبغي أن يستحي من مفاجاة الله تعالى من غير تطهر قلبه وهو موضع نظر الرب سبحانه وابتحق أن طهارة القلب بالتوبة والخلو عن الأخلاق المذمومة والتعلق بالأخلاق الحميدة أولى من أن يقتصر على طهارة الظاهر ، كمن أراد أن يدعو ملكاً إلى بيته فتركه مشحوناً بالمقاذورات واشتغل بتجسس ظاهر الباب البراني من الدار وما أجدره بالتعرض للمقت والبوار .

كيفية الغسل

يفسل يديه ثلاثاً ، ثم يستنجي ويزيل ما على بدنه من نجاسة إن كانت ، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كما وصفنا إلا غسل القدمين فإنه يؤخرهما ، ثم يصب الماء على رأسه ، ثم على شقه الأيمن ، ثم الأيسر ، ثم يدلك ما أقبل من بدنه وما أدبر ويخلل شعر الرأس والاحية ، ويوصل الماء إلى منابت ما كنف منه وما خف ، وليس على المرأة نقض الضفائر إلا إذا علمت أن الماء لا يصل إلى خلال الشعور ، ويتمهد معاطف البدن ، والغسل الواجب بأربعة : بخروج

( ٢ - موعظة المؤمنين )

المني ، والتقاء الختانيين ، والحيض ، والنفاس ، وما عداه من الأغسال سنة  
كغسل العيدين ، والجمعة ، والإحرام ، والوقوف بعرفة ، ولادخول مكة ،  
ولمن غسل ميتاً .

### كيفية التيمم

من تعذر عليه استعمال الماء لفقده من بعد الطلب أو لمانع له عن الوصول  
إليه من سبع أو حابس ، أو كان الماء الحاضر يحتاج إليه لعطشه أو لعطش  
رقيقه أو كان ملسكا لغيره ولم يبعه إلا بأكثر من ثمن المثل أو كان به جراحة  
أو مرض وخاف من استعماله فساد العضو أو شدة الضنى فينبغي أن يصبر حتى  
يدخل عليه وقت الفريضة ، ثم يقصد صعيداً طيباً عليه تراب طاهر بحيث يثور  
منه غبار ويضرب عليه كفيه ضاماً بين أصابعه ويمسح بهما جميع وجهه مرة  
واحدة ولا يكلف إيصال الغبار إلى ما تحت الشعر خف أو كثف ، ثم ينزع  
خاتمه ويضرب ضربة ثانية ويفرج فيها بين أصابعه ويمسح بكفه اليسرى  
يده اليمنى وبكفه اليمنى يده اليسرى ، وإذا صلى به الفرض فله أن يتنفل كيف  
شاء ، ويعيد التيمم لفرض ثان .

### القسم الثالث من النظافة : التنظيف عن الفضلات الطاهرة

وهي نوعان : أوساخ ، وأجزاء

النوع الأول : الأوساخ والرطوبات المترشحة ، وهي ثمانية :

( الأول ) ما يجتمع في شعر الرأس من الدرن والقمل فالتنظيف منه مستحب  
بالفسل والترجيل والتدهين إزالة للشمت عنه ، وكان صلى الله عليه وسلم يدهن  
الشعر ويرجله غباً ويأمر به ( الثاني ) ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذن  
والمسح يزيل ما يظهر منه وما يجتمع في قعر صمأخي أذنيه فينبغي أن ينظف  
رفق عند الخروج من الحمام ( الثالث ) ما يجتمع في داخل الأنف ويزيله

الاستنشاق والاستنشاق (الرابع) ما يجتمع على الأسنان وطرف اللسان فيزيه  
لسواك والمضمضة (الخامس) ما يجتمع في اللحية من الوسخ والقمل إذا لم يقمده ،  
يستحب إزالة ذلك بالغسل والتسريح بالمشط وترك الشعث في اللحية إظهاراً  
لزهد ، وقلة المبالاة بالنفس محذور وتركه شغلاً بما هو أهم منه محبوب . وهذه  
حوال باطنة بين العبد وبين الله عز وجل ، والناقذ بصير والتلبيس غير رائج عليه  
بحال (السادس) وسخ البراجم ، وهي معاطف ظهور الأنامل : كانت العرب  
تكثر غسل ذلك لتركها غسل اليد عقيب الطعام فيجتمع في تلك الفضون  
سخ ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بغسل البراجم (السابع) تنظيف الرواجب :  
مر رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب بتنظيفها ، وهي رؤس الأنامل وما تحت  
لأظفار من الوسخ ، لأنها كانت لا يحضرها المقراض في كل وقت فتجتمع فيها  
وساخ (الثامن) الدرن الذي يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق  
ذلك يزيه الحمام .

### آداب الحمام

لا بأس بدخول الحمام ، دخل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمامات  
شام وقال بعضهم : نعم البيت بيت الحمام يطهر البدن ويذكر الناس روى ذلك  
بن أبي الدرداء وأبي أيوب الأنصاري رضى الله عنهما . وقال بعضهم : بثس البيت  
بت الحمام يبدى العورة ويذهب الحياء ، فهذا تعرض لآفته ، وذاك تعرض  
فائدته ، ولا بأس بطلب فائدته عند الاحتراز من آفته ، ولكن على داخل  
الحمام وظائف من السنن والواجبات ، فعليه واجبان في عورته ، وواجبان في عورة  
غيره . أما الواجبان في عورته فهو أن يصونها عن نظر الغير ويصونها عن مس الغير  
لا يتماطى أمرها وإزالة وسخها إلا بيده ويمنع الدلاك من مس الفخذ وما بين  
السرة إلى العانة . والواجبان في عورة الغير أن يفض بصر نفسه عنها ، وأن ينهى  
عن كشفها لأن النهي عن الكشف واجب وعليه ذكر ذلك وليس عليه القبول .

وأما السنن فمنها النية وهو أن لا يدخل لعاجل دنيا ولا عابثاً لأجل هوى بل يقصد به التنظيف المحبوب تزييناً للصلاة . ويقدم رجله اليسرى عند الدخول ولا يمجل بدخول البيت الحار حتى يعرق في الأول وأن لا يكثر صب الماء بل يقتصر على قدر الحاجة فإنه المأذون فيه بقريفة الحال والزيادة عليه لو علمه الحمام لكرهه لاسيما الماء الحار فله مؤنة وفيه تعب ، وأن يتذكر حر النار بحر الحمام ويقدر نفسه محبوساً في البيت الحار ساعة ويقيسه إلى جهنم فإنه أشبه بيت بجهنم ، النار من تحت والظلام من فوق ، نعوذ بالله من ذلك ، ولا بأس بأن يصفح الداخل ويقول عافاك الله ، ولا بأس بأن يداسكه غيره ويفمز ظهره وأطرافه — ثم مهما فرغ من الحمام شكر الله عز وجل على هذه النعمة ويكره طباً صب الماء البارد على الرأس عند الخروج وكذا شربه — ويكره للمرأة دخوله إلا لضرورة بمنزلة صابغ .

النوع الثاني فيما يحدث في البدن من الأجزاء ، وهي ثمانية :

( الأول شعر الرأس ) ولا بأس بحلقه لمن أراد التنظيف ولا بأس بتركه لمن يدهنه ويرجله ( الثاني شعر الشارب ) يندب قص ما طال عن الشفة منه ولا بأس بترك السبائين ( الثالث شعر الإبط ) تستحب إزالته كل أربعين يوماً فأقل ( الرابع شعر العانة ) تستحب إزالته بالحاق أو بالفورة في المدة المتقدمة ( الخامس الأظفار ) وتقليمها مستحب لشفاة صورتها إذا طالت ولما يجتمع فيها من الوسخ وليس في ترتيب قلمها مروي صحيح ( السادس والسابع ) زيادة السرة وقلقة الحشفة — أما السرة فتقطع في أول الولادة ، وأما التطهير بالخلتان فلا بأس به في اليوم السابع من الولادة ، وإن خيف منه خطر فالأولى تأخيره ( الثامن ) ما طال من اللحية روى عن بعض الصحابة والتابعين أخذ ما زاد عن القبضة ، وقال آخرون تركه عافية أحب ، والأمر في هذا قريب إن لم ينته إلى الطول المفرط فإنه قد يشوه الخلقه ويطلق السنة المغتابين بالنبز إليه فلا بأس بالاختراز عنه على هذه النية

وفي الاحية عشر خصال مكروهة وبعضها أشد كراهة من بعض ، خضابها بالسواد وتبييضها بالكبريت وتنقها وتنق الشيب منها والنقصان والزيادة وتسريحها تصنعها لأجل الرياء وتركها شعبة لإظهاراً للزهد والنظر إلى سوادها عجباً بالشباب وإلى بياضها تكبراً بعلو السن ، وخضابها بالحمرة من غير نية تشبهاً بالمصالحين ، وأما الخضاب بالسواد فقد روى فيه نهى لأنه قد يقضى إلى الغرور والتلبيس ، وأما تبييضها بالكبريت فقد يكون استعجالاً لإظهار علو السن توصلاً إلى التوقير ، وترفعاً عن الشباب وإظهاراً لكثرة العلم ظناً بأن كثرة الأيام تعطيه فضلاً وهيئات فلا يزيد كبر السن الجاهل إلا جهلاً - فالعلم ثمرة العقل وهي غريزة ولا يؤثر الشيب فيها ، ومن كانت غريزته الحمق فطول المدة يؤكد حماقته ، وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب بالعلم . كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدم ابن عباس وهو حديث السن على أكبر الصحابة ويسأله عن دينهم . وقال ابن عباس رضي الله عنه ما آتى الله عز وجل عبده علماً إلا شاباً والخير كله في الشباب - ثم تلا قوله عز وجل : ( قالوا سمعنا فتي يذكرهم يقال له إبراهيم ) وقوله تعالى : ( إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ) وقوله تعالى : ( وآتيناهم الحكم صبياً ) .

وقال أيوب السخيتاني أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه ، وقيل لأبي عمرو بن العلاء أيحسن من الشيخ أن يتعلم من الصغير ؟ فقال إن كان الجهول يقبح به فالتعلم يحسن به .

### باب أسرار الصلاة ومهماتنا

الصلاة عماد الدين ، وعصام اليقين ، وسيدة القربات ، وغرة الطاعات ، وقد استقصيت أصولها وفروعها في فن الفقه ، فنتصر هنا على ما لا بد منه المريد من أعمالها وأسرارها الباطنة .

### فضیلة الأذان

قال صلی الله علیه وسلم : « لا یسمع نداء المؤذن جن ولا إنس ولا شیء إلا شهد له یوم القيامة » وقال صلی الله علیه وسلم : « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما یقول المؤذن » وذلك محبوب مستحب إلا فی الحیضتین ، فإنه یقول فیهما لا حول ولا قوة إلا بالله . وفي قوله قد قامت الصلاة : أقامها الله وأدامها . وفي التثویب ، أى قول مؤذن الفجر الصلاة خیر من النوم : صدقت وبررت . وعند الفراغ یقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضیلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته .

### فضیلة المكتوبة

قال الله تعالى : ( إن الصلاة كانت على المؤمنین كتاباً موقوتاً ) وقال صلی الله علیه وسلم : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بینهن ما اجتنبت الكبائر » وسئل صلی الله علیه وسلم : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « الصلاة لوقتها » . وكان أبو بكر رضی الله عنه یقول : إذا حضرت الصلاة قوموا إلى نارکم التى أوقدتموها فأطفئوها .

### فضیلة إتمام الأركان

قال صلی الله علیه وسلم : « من صلی صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهى بیضاء مسفرة تقول : حفظك الله كما حفظتنى ، ومن صلی صلاة لغير وقتها ولم یسبغ وضوءها ولم یتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها عرجت وهى سوداء مظلمة تقول : ضیعتك الله كما ضیعتننى ، حتى إذا كانت حیث شاء الله ، لفت كما یلف الثوب الخلق ، فیضرب بها وجهه » .

### فضیلة الجماعة

قال صلی الله علیه وسلم : « صلاة الجمع تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة » وروى أبو هريرة أنه صلی الله علیه وسلم فقد ناسأ فی بعض الصلوات فقال



« لقد هممت أن أمر رجلاً يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم » وقال عثمان رضي الله عنه مرتفعاً : من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة ، ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة . وقال محمد بن واسع : ما أشتى من الدنيا إلا ثلاثة : أخاك إن تعوجت قومي ، وقوتك من الرزق عنقاً بغير تبعة ، وصلاة في جماعة يرفع عنى سهوها ويكتب لى فضامها . وقال أبو الحسن : لا تصلوا خلف رجل لا يختلف إلى العلماء . وقال ابن عباس رضي الله عنه : من سمح المنادى فلم يجب لم يرد خيراً ولم يرد به .

### فضيلة السجود

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يسجد لله سجدة ، إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة » . وقال صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » وقال تعالى : ( سيجاهم في وجوههم من أثر السجود ) يعنى نور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر .

### وجوب الخشوع

قال الله تعالى : ( وأقم الصلاة لذكري ) ظاهر الأمر الوجوب ، والغفلة تضاد الذكر ، فمن غفل في صلاته كيف يكون مقياً لها لذكوره تعالى . وقال سبحانه : ( ولا تكن من الغافلين ) وقال تعالى : ( قد أفلاح المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون ) جعل أول مراتب الفلاح الخشوع في الصلاة إعلماً بأن من فقدته فهو بمراحل عن الفوز والنجاح الذى هو معنى الفلاح ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما الصلاة تمكن وتواضع وتضرع وتضع يديك تقول : اللهم اللهم فمن لم يفعل فهو خداع » وروى : « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً » وحكى عن مسلم بن يسار أنه كان يصلى فى مسجد البصرة ، فسقط حائط المسجد ، ففرغ أهل السوق لهدته فما التفت . ولما هنىء بسلامته

عجب وقال : ما شمرت بها . وقال ابن عباس : ركعتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه .

### فضيلة المسجد وموضع الصلاة

قال الله عز وجل : ( إِنَّمَا يَمْشُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ )  
وقال صلى الله عليه وسلم : « من بنى لله مسجداً ولو كحفص قطاة<sup>(۱)</sup> بنى الله له بيتاً في الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أحدكم المسجد فلا يركع ركعتين قبل أن يجلس » وقال صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد » وقال صلى الله عليه وسلم : « يأتي على الناس زمان يتحلقون في مساجدكم وليس همهم إلا الدنيا وليس لله فيهم حاجة فلا تجالسوهم » .

### أعمال الصلاة الظاهرة

إذا فرغ المصلي من الوضوء والطهارة من الخبث في البدن والمكان والثياب وستر العورة من السرة إلى الركبة فعليه أن ينتصب قائماً متوجهاً إلى القبلة وليقرب من جدار الحائط فإن ذلك يقصر مسافة البصر ويمنع تفرق الفكر وليحجر على بصره أن يجاوز موضع سجوده ، ولا يدم هذا القيام كذلك إلى الركوع من غير التفات ، ثم ينوي أداء الصلاة بقلبه ويرفع يديه إلى حدو منكبيه مقبلاً بكفيه إلى القبلة ويديس الأصابع ولا يقبضها ولا يتكلف فيها تفرجاً ولا ضمّاً بل يتركها على مقتضى طبيعتها ويكبر ، ثم يضع اليدين على صدره ويضع اليمنى على اليسرى ولا ينفض يديه إذا فرغ من التكبير بل يرسلهما إرسالاً خفيفاً رقيقاً ، وينبغى أن يضم الماء من قوله « الله » ضمّاً خفيفاً من غير مبالغة ، ولا يدخل بين الماء والألف شبه الواو ولا بين باء أكبر ورائه ألفاً كأنه يقول : « أكبر » ويجزم راء التكبير ولا يضمها .

(۱) أي مجتمعها لتضع فيه بيضها ترقد عليه كأنها تفحص عنه التراب أي تكشفه ، وحله الأكثر على المبالغة ، وقيل بأن يزيد في المسجد قدراً يحتاج إليه كحفصها أو على الاشتراك من جماعة في بنائه فتقع حصة كل واحد كذلك القدر اه .

القراءة

ثم يبتدئ بدعاء الاستفتاح عقب التكبير قائلاً : الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، أو : وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئاً مسلماً وما أنا من المشركين \* إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ، و : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وجل ثناؤك ولا إله غيرك ، ثم يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم يقرأ الفاتحة ويقول بعدها آمين ، ولا يصلها بقوله ( ولا الضالين ) ويجهر بالقراءة في الصبح والمغرب والعشاء إلا أن يكون مأموماً . ويجهر بالتأمين ثم يقرأ السورة أو قدر ثلاث آيات من القرآن فما فوقها ، ولا يصل آخر السورة بتكبير الهوى بل يفصل بينهما بقدر قوله « سبحان الله » ويقرأ في الصبح من السور الطوال من المفصل وفي المغرب من قصاره وفي الظهر والعصر والعشاء من أوساطه وفي الصبح في السفر ( قل يا أيها الكافرون ) و ( قل هو الله أحد ) وكذلك في ركعتي الفجر والطواف والتحية .

الركوع ولواحقه

ثم يركع ويراعى فيه أموراً : وهو أن يكبر للركوع ، وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع ، وأن يمد التكبير إلى تمام الركوع ، وأن يضع راحتيه على ركبتيه في الركوع وأصابعه منشورة موجهة نحو القبلة على طول الساق وأن ينصب ركبتيه ولا يثنيهما ، وأن يمد ظهره مستوياً لا يكون رأسه أخفض ولا أرفع ، وأن يجافي مرفقيه عن جنبيه ، وتضم المرأة مرفقيها إلى جنبها وأن يقول « سبحان ربي العظيم » ثلاثاً ، والزيادة إلى السبعة وإلى العشرة حسن إن لم يكن إماماً ، ثم يرتفع من الركوع إلى القيام ويرفع يديه ويقول « سمع الله لمن حمده » ويطمئن في الاعتدال ويقول « ربنا لك الحمد ملء السموات

وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد « ويقنت في السجدة  
في الركعة الثانية بالسكيات الماثورة .

### السجود

ثم يهوي إلى السجود مكبراً فيضع ركبتيه على الأرض ويضع جبهته  
وكفيه مكشوفة ويكبر عند الهوى ولا يرفع يديه مع غير الركوع ويجافي  
مرفقيه عن جنبيه ولا تفعل المرأة ذلك ، ويفرج بين رجليه ولا تفعل المرأة  
ذلك ، ويرفع بطنه عن نخذه ولا تفعل المرأة ذلك ، ويضع يديه على الأرض  
حذاء منكبَيْه ولا يفرج بين أصابعهما بل يضمهما ، ولا يفترش ذراعيه على  
الأرض وأن يقول « سبحان ربى الأعلى » ثلاثاً فإن زاد فحسن إلا أن يكون  
إماماً . ثم يرفع من السجود فيطمئن جالساً معتدلاً فيرفع رأسه مكبراً  
ويجلس على رجله اليسرى وينصب قدمه اليمنى ويضع يديه على نخذه والأصابع  
منشورة ، ولا يتكلف ضمها ولا تفريجها ويقول : « رب اغفر لى وارحمنى وارزقنى  
واهدنى واجبرنى وعافنى واعف عني » ويأتى بالسجدة الثانية كذلك ويصلى  
الركعة الثانية كالأولى ويعيد التعموذ في الابتداء .

### التشهد

ثم يتشهد في الركعة الثانية التشهد الأول ، ثم يصلى على رسول الله صلى الله  
عليه وسلم وعلى آله ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى ويقبض أصابعه اليمنى إلا  
المسبحة ويشير بها عند قوله « إلا الله » ويجلس في هذا التشهد على رجله اليسرى  
كما بين السجدين . وفي التشهد الأخير يستكمل الدعاء الماثور بعد الصلاة على  
النبي صلى الله عليه وسلم ويجلس فيه عليه وره الأيسر لأنه ليس مستوفزاً للقيام  
بل هو مستقر ويضع رجله اليسرى خارجة من تحتة وينصب اليمنى ثم يقول  
« السلام عليكم ورحمة الله » ويلتفت يمينا بحيث يرى خده الأيمن وشمالا كذلك .

وينوي بالسلام من على يمينه من الملائكة والمسلمين في الأولى ، وينوي مثل ذلك في الثانية ولا يرفع صوته إلا بقدر ما يسمع روجه .

### المنهيات

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الخاقن والحاقب والحاظر ، وعن صلاة الجائع والمتائم ، فأما الخاقن فمن البول ، والحاقب من الغائط ، والحاظر صاحب الخلف الضيق فإن ذلك يمنع الخشوع ، وفي معناه الجائع والمتم ، وفهم نهى الجائع من قوله صلى الله عليه وسلم « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤوا بالعشاء » والنهى عن التائم من حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغطي الرجل فاه في الصلاة ، وقال الحسن : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع ، ويكره أيضاً أن ينفخ في الأرض عند السجود وأن يسوى الحصى بيده وأن يستند في قيامه إلى حائط ، وقال بعض الساف : أربعة في الصلاة من الجفام : الالتفات ، ومسح الوجه ، وتسوية الحصى ، وأن تصلى بطريق من يمر بين يديك .

### تمييز الفرائض والسنن

ما تقدم يشتمل على فرائض و سنن وهيئات ، فالسنن من الأفعال : رفع اليدين في تكبيرة الإحرام وعند الهوى إلى الركوع وعند الرفع منه ، والجلسة للتشهد الأول والتورك والافتراش هيئات تابعة للجلسة ، وترك الالتفات هيئة للقيام وتحسين لصورته . والسنن من الأذكار : دعاء الاستفتاح ، والتعوذ ، وقول آمين ، وقراءة السورة وتكبيرات الانتقال ، والذكر في الركوع ، والسجود والاعتدال والتشهد الأول والصلاة فيه على النبي صلوات الله عليه والدعاء في التشهد الأخير ، والتسليم الثانية — هذه هي السنن وما عداها فهو واجب ، واعلم أن الصلاة كالإنسان فروحها وحياتها ، أعني الخشوع وحضور القلب والإخلاص ، كروح الإنسان وحياته وأركانها تجري منها مجرى قلبه ورأسه وكبدته إذ يفوت وجود

الصلاة بفواتها كما ينعدم الإنسان بدمها ، والسنن تجري منها مجرى اليدين والعينين والرجلين منه ، فهي لا تفوت الحياة بفواتها ولكن يصير المرء بفقدتها مشوه الخالقة مذموماً ، والهيات تجري مجرى أسباب الحسن من الحاجبين والاحية والأهداف وحسن اللون ونحوها ، فمن اقتصر على أقل ما يجزىء من الصلاة كان كمن أهدى إلى ملك من الملوك عبداً مقطوع الأطراف ، فالصلاة قرينة ونخفة تقترب بها إلى حضرة ملك الملوك كوصيفة يهديها طالب القرينة من السلاطين إليهم — وهذه التحفة تعرض على الله عز وجل ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر ، فإنك الخيرة في تحسين صورتها وتقبيلها ، فإن أحسنت فلنفسك وإن أسأت فعليها .

بيان الشروط الباطنة من أعمال القلب

اشتراط الخشوع وحضور القلب

اعلم أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعالى : ( وأقم الصلاة لذكري ) وظاهر الأمر الوجوب ، والغفلة تضاد الذكر ؛ فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقبلاً للصلاة لذكره وقوله تعالى : ( ولا تكن من الغافلين ) نهي وظاهره التحريم وقوله تعالى : ( حتى تعلموا ما تقولون ) تعليل لنهي السكران وهو مطرد في الغافل المستغرق المم بالوسواس وأفكار الدنيا ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الصلاة تمسكن وتواضع » حصر بالآلف واللام وكلمة إنما للتحقيق والتوكيد وقوله صلى الله عليه وسلم : « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً » وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء والمنكر ، وقال صلى الله عليه وسلم : « كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب » وما أراد به إلا الغافل ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها » والتحقيق فيه أن المصلي مناج ربه عز وجل — كما ورد به الخبر — والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة ، ولو حلف الإنسان وقال لأشكرن فلاناً وأثنى عليه وسأله حاجة ،

بأنه جرت الألفاظ الدالة على هذه المعاني على لسانه في النوم لم يبر في يمينه ولو جرت  
على لسانه في ظلمة وذلك الإنسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير  
باراً في يمينه إذ لا يكون كلامه خطاباً ونطقاً معه ما لم يكن هو حاضر في قلبه  
ولو كان تجرى هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر إلا أنه في بياض النهار غافل  
لكونه مستغرق أهم بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد يوجه الخطاب إليه  
هذه نطقه لم يصر باراً في يمينه ، ولا في أن المقصود من القراءة والذكر الحمد  
والثناء والتضرع والدعاء والمخاطب هو الله عز وجل ، والقلب بحجاب الغفلة  
محبوب عنه فلا يراه ولا يشهده بل هو غافل عن المخاطب واللسان يتحرك بحكم  
العادة فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيف القلب وتجديد ذكر  
الله عز وجل ورسوخ عقد الإيمان ، وبالجملة فحضور القلب هو روح الصلاة ومن  
عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها .

بيان المعاني الباطنة التي بها تتميز حياة الصلاة

يجمع تلك المعاني على كثرتها ستة جعل : حضور القلب ، والتفهم ، والتعظيم ،  
والهيبة ، والرجاء ، والحياة — فلنذكر تفاصيلها ، ثم أسبابها ، ثم العلاج  
في اكتسابها .

أما التفاصيل ، فالأول : حضور القلب ، ونعني به أن يفرغ القلب عن غير  
ما هو ملابس له ومتكلم به ، فيكون العلم بالفعل ، والقلب مقروناً بهما ولا يكون  
الفكر جائلاً في غيرها ، والتفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب وهو  
اشتغال القلب على العلم بمعنى اللفظ ، وكم من معان لطيفة يفهمها المصل في أثناء  
الصلاة تمنعه عن الفحشاء والمنكر ، والتعظيم وراء الحضور والفهم زائد عليهما ،  
والهيبة زائدة على التعظيم وهي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم والإجلال ،  
والرجاء الطمع بثوابه تعالى ويقابله الخوف من عقابه تعالى بتقصيره ، والحياة  
استشعار تقصيره وتوهم ذنب .

(وأما أسباب هذه المعاني الستة) فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فإن قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهتك ، وهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى ، فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه ، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلاً بل جائلاً فيما الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة ، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن القلب المطلوب منوط بها ، وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى ، وأن الصلاة وسيلة إليها .

وأما التفهم فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى ، وعلاجه ما تقدم مع الإقبال على الفكر ، والتشعر لدفع الخواطر ، وعلاج دفعها قطع موادها أعنى النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها .

(وأما التعظيم) فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين (إحداهما) معرفة جلال الله عز وجل وعظمته ، وهو من أصول الإيمان (الثانية) معرفته حقارة النفس وخستها وكونها عبداً مسخراً سر بوباً حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيمير عنه بالتعظيم .

(وأما الهيبة والخوف) فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرته الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة ، وكلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة .

(وأما الرجاء) فسببه معرفة لطف الله عز وجل وكرمه وعظيم إنعامه وإطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة ، فإذا حصل اليقين بوعدده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما الرجاء لا محالة .

(وأما الحياء) فبإستشاره التقصير في العبادة ، وعلمه بالمعجز عن القيام بمعظم حق الله عز وجل ، ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتنا وقلة إخلاصها وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها مع العلم بمعظم ما يقتضيه جلال



الله عز وجل ولعلم بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت ،  
هذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء ، فهذه  
سبب هذه الصفات ، وكل ما طلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه ، ففي معرفة  
سبب معرفة العلاج ، ورابطة جميع الأسباب الإيمان واليقين .

بيان الدواء النافع في حضور القلب

اعلم أن المؤمن لا بد أن يكون معظماً لله عز وجل وخائفاً وراجياً له ومستحياً  
من تقصيره ، فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه وإن كانت قوتها بقدر قوة  
بقيته فانفكاكه عنها في الصلاة لا سبب له إلا تفرق الفكر وتقسيم الخاطر  
وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة ، ولا ينهى عن الصلاة إلا الخواطر  
لواردة الشاغلة ، فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ، ولا يدفع الشيء  
إلا بدفع سببه فلتعلم سببه .

وسبب موارد الخواطر : إما أن يكون أمراً خارجاً ، أو أمراً باطنياً .  
أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر ، فإن ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه  
وينصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل ويكون الإبصار سبباً  
للافتكار ، ومن قويت نيته وعلت همته لم يلمه ما جرى على حواسه ، ولكن  
الضعيف لا بد وأن يتفرق به فكره ، وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يفيض  
بصره أولاً ، ويترك بين يديه ما يشغل حسه ، ويقرب من حائط عند صلاته  
حتى لا تتسع مسافة بصره ، ويحترز من الصلاة على الشوارع وفي المواضع المنقوشة  
وعلى الفرش المصبوغة ، وأما الأسباب الباطنة فهي أشد ، فإن من تشعبت به  
الهموم في أودية الدنيا لم ينحصر فكره في فن واحد بل لا يزال يطير من جانب  
إلى جانب ، فهذا طريقه أن يرد النفس قهراً إلى فهم ما يقرأه في الصلاة  
ويشغلها به عن غيره ويمينه على ذلك أن يستعمل له قبل التحريم بأن يجدد على  
نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدي الله سبحانه وتعالى

وهو المطلع ، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهيمه فلا يترك لنفسه شغف يلتفت إليه خاطره .

فإن كان لا يسكن هائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجبه إلا المسبب الذي يجمع مادة الداء من أعماق العروق ، وهو أن ينظر الأمور الصارفة عن إحضار القلب ، ولا شك أنها تعود إلى مهماته ، وأنها إنما صارت مهمات بشهواته فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك الملائق ، كما روى أنه صلى الله عليه وسلم لما لبس الخميصة التي أتاه بها أبو جهم وعليها علم وصلّى بها نزعها بعد صلاته ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اذهبوا بها إلى أبي جهم فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي واثتوني بأنبيجانية أبي جهم » .

بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن

وشرط من أعمال الصلاة

إذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك هول الفداء يوم القيامة وتشعر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارة فإن المسارعين إلى هذا الفداء هم الذين ينادون باللعنف يوم العرض الأكبر ، وأما الطهارة فإذا بها في مكانك وهو طرفك الأبعد ثم في ثيابك وهو غلافك الأقرب ، ثم في بشرتك وهو قشرك الأدنى فلا تغفل عن لبك الذي هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له تطهراً بالتوبة والندم على ما فرطت وتصميم العزم على الترك في المستقبل فطهر به باطنك فإنه موقع نظر معبودك وأما ستر العورة : فاعلم أن معناه تغطية مقام بدنك عن أبصار الخلق فإن ظاهر بدنك موقع لنظر الخلق فما بالك في عورات باطنك وفضائح سر أترك التي لا يطلع عليها إلا ربك عز وجل ، فأحضر تلك الفضائح ببالك وطالب نفسك بسترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه سائر ، وإنما يكفرها الندم والحياء والخوف فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث وجود الخوف والحياء من مكانها فتذل به نفسك ويستكن تحت الخجلة قلبك ، وتقوم بين يدي الله عز وجل

قيام العبد المجرم المسيء الأبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الخياء والخوف .

(وأما الاستقبال) فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى ، أفترى أن صرف القلب من سائر الأمور إلى أمر الله عز وجل ليس مطلوباً منك هيئات ، فلا مطلوب سواه ، وإنما هذه الظواهر تحريكات للبوطن ضبط للجوارح وتثبيت لها بالإثبات في جهة واحدة حتى لا تبغى على القلب ، إنما إذا بفت وظلمت في حركاتها والتفتاتها إلى جهاتها استقبلت القلب انقلبت به عن وجه الله عز وجل : فإيكن وجه قلبك مع وجهه بذلك ، أعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها ، فلا ينصرف القلب إلى الله عز وجل إلا بالتفرغ عما سواه .

(وأما الاعتدال قائماً) فإنما هو ماثول بالشخص والقلب بين يدي الله عز وجل ، تنبيهاً على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبرؤ عن الترويس والتكبر ، مع ذكر خطر القيام بين يدي الله عز وجل في هول المطلاع عند العرض للسؤال ، وأعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله عز وجل وهو مطلع عليك ، فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنهه جلاله .

(وأما النية) فعزم على إجابة الله عز وجل في امتثال أمره بالصلاة وإتمامها وجاء لثوابه وخوفاً من عقابه وطلباً للقربة منه ، متقلداً للمنة منه بإذنه لك من المناجاة مع كثرة عصيانك ، فمظم في نفسك قدر مناجاته ، وانظر من تفاجي كيف تفاجي وبماذا تفاجي ، وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجل ، وتعد فرائصك من الهيبة ، ويصفر وجهك من الخوف .

(وأما التكبير) فإذا نطق به لسانك ، فينبغي أن لا يكذبه قلبك ، فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله سبحانه ، أو كان هواك أغلب عليك من

أمر الله عز وجل ، وأنت أطوع له منك لله تعالى فقد اتخذته إلهك وكبريتك  
فيكون قولك ( الله أكبر ) كلاماً باللسان المجرد ، وقد تخاف القلب عن  
مساعدته ، وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار ، وحسن الظن  
بكرمه سبحانه وعفوه .

( وأما دعاء الاستفتاح ) فأول كلماته قولك : « وجهت وجهي للذي فطر  
السموات والأرض » وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر ، فإنك إنما وجهته إلى  
جهة القبلة ، والله سبحانه يتقدس عن أن تحده الجهات حتى تقبل بوجهه بذلك  
عليه ، وإنما وجه القلب هو الذي تتوجه به إلى فاطر السموات والأرض ،  
فانظر إليه أمتوجه إلى أمانيه وهمه في البيت والسوق متبع للشهوات أو مقبل  
على فاطر السموات ، وإياك أن تكون أول مفاتحك للمناجاة بالكذب ،  
ولن ينصرف الوجه إلى الله تعالى إلا بانصرافه عن سواه ، فاجتهد في الحال  
في صرفه إليه ، وإن عجزت عنه على الدوام فليكن قولك في الحال صادقاً ،  
وإذا قلت « حنيفاً مسلماً » فينبغي أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم  
المسلمون من لسانه ويده فإن لم تكن كذلك كنت كاذباً ، فاجتهد في أن تعزم  
عليه في الاستقبال وتقدم على ما سبق من الأحوال ، وإذا قلت « وما أنا من  
المشركين » فأخطر ببالك الشرك الخفي كمن يقصد بعبادته وجه الله وحده  
الناس ؛ فكن حذراً متقياً من هذا الشرك ، واستشعر الخجلة في قلبك إن  
وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا الشرك ،  
فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه ، وإذا قلت « محياي ومماتي لله »  
فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده ، وأنه إن صدر ممن رضاه  
وغضبه وقيامه وقعوده ورغبته في الحياة ورهبته من الموت لأمر الدنيا لم يكن  
ملائماً للحال ، وإذا قلت « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فاعلم أنه عدوك

مترصد لعرف قلبك عن الله عز وجل حسداً لك على مناجاتك مع الله عز وجل وسجودك له مع أنه لمن بسبب سجدة واحدة تركها ، وأن استمادتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه وتبديله بما يحب الله عز وجل لا بمجرد قولك ، إن من قصده سبع أو عدر ليفترسه أو ليقته فقال أعوذ منك بهذا الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه ذلك لا ينفعه ، بل لا يفيد إلا بتبديل المكان ، كذلك من يتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن فلا يفنيه بمجرد القول ، ومن اتخذ إلهه هواه فهو في ميدان الشيطان لا حصن الله تعالى ، واعلم أن من مكايده أن يشغلك في صلاتك بذكر الآخرة ، وتدبير فعل الخيرات يمنعك عن فهم ما نقرأه ، فاعلم أن كل ما يشغلك عن فهم معاني قرأتك فهو وسواس فإن حركة اللسان غير مقصودة ، بل المقصود معانيها ؛ فإذا قلت ( بسم الله الرحمن الرحيم ) فانو به التبرك لا ابتداء القراءة لكلام الله سبحانه ، وافهم أن معناها أن الأمور كلها بالله سبحانه ، وإذا كانت الأمور به تعالى فلا جرم كان ( الحمد لله ) ومعناه أن الشكر لله ، إذ النعم من الله ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكره لا من حيث أنه مسخر من الله عز وجل ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله تعالى ، فإذا قلت ( الرحمن الرحيم ) فأحضر في قلبك جميع أنواع لطفه لتتضح لك رحمته فينبعث به رجاؤك ، ثم استشعر من قلبك التعظيم والخوف بقولك ( مالك يوم الدين ) أما العظمة فلأنه لا ملك إلا له ، وأما الخوف فلمول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكة ، ثم جدد الإخلاص بقولك ( إياك نعبد ) ووجد العجز والاحتياج والتبرؤ من الحول والقوة بقولك ( وإياك نستعين ) وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بإعانته وأن له المنة إذ وفقك لطاعته ، ثم عين سؤالك ولا تطلب إلا أم حاجتك وقل ( اهدنا الصراط المستقيم ) الذي يسوقنا إلى جوارك ويفضي بنا إلى مرضاتك ، وزده شرحاً وتفصيلاً وتأكيذاً واستشهاداً

بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين دون  
الذين غضب عليهم من الكفار والزائفين ، ثم التمس الإجابة وقل ( آمين )  
ولو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله في جلاله وعظّمته ففاهيك بذلك  
غنيمة فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله ، وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرأه  
من السور فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه  
وذكر منته وإحسانه لكل واحد حق ، فالرجاء حق الوعد ، والخوف حق  
الوعيد ، والعزم حق الأمر والنهي ، والامتياز حق الموعظة ، والشكر حق المنّة ،  
والاعتبار حق إخبار الأنبياء ، وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ويكون  
بحسب وفور العلم وصفاء القلب ودرجات ذلك لا تنحصر ، والصلاة منقح القرب  
فيها تنكشف أسرار الكلمات فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسبيحات  
أيضاً ، ثم يراعى الهيبة في القراءة فيرتل ولا يسرد فإن ذلك أيسر للأهل .

( وأما دوام القيام ) فإنه تنبيه على إقامة القلب مع الله عز وجل على نعمت  
الحضور ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل مقبل على المصلّي ما لم  
يلتفت » وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات ، فكذلك  
تجب حراسة السر من الالتفات إلى غير الصلاة ، فإذا التفت إلى غيره فذكره  
باطلاع الله عليك وبتبجح التهانن بالمناجى عند غفلة المناجى ليهود إليه ،  
والزم الخشوع للقلب فإن الخلاص عن الالتفات باطنياً وظاهراً ثمرة الخشوع ،  
ومهما خشع الباطن خشع الظاهر ، قال صلى الله عليه وسلم ، وقد رأى  
رجلاً مصلياً يعبث بلحيته : « أما هذا لو خشع قلبه خشعت جوارحه ،  
فإن الرعية بحكم الراعى » ولهذا ورد في الدعاء « اللهم أصلح الراعى والرعية »  
وهو القلب والجوارح .

( وأما الركوع والسجود ) فينبغى أن تجدد عندهما ذكر كبرياء الله  
صبحانه ، وترفع يديك مستجيراً بعفو الله عز وجل من عقابه ، ثم تستأنف

ذلا وتواضعاً بركوعك ، وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك وتستشعر ذلك عز مولاك واتضاعك ، وعلو ربك ، وتسمين على تقرير ذلك في قلبك باسمائك فتسبح ربك وتشهد له بالمعظمة وأنه أعظم من كل شيء عظيم ، وتكرر ذلك على قلبك لتؤكد به التكرار . ثم ترتفع من ركوعك مؤكداً للرجاء في نفسك بقولك « سمع الله لمن حمده » أي أجاب لمن شكره . ثم تردف ذلك بالشكر المتفاضل المزيد فتقول « ربنا لك الحمد » وتكثر الحمد بقولك « ملء السموات وملء الأرض » ثم تهوي إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة فتمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب وإن أمكنك أن لا تجمل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فافعل فإنه أجاب للخشوع وأدل على الذل ، وإذا وضعت نفسك موضع الذل فأعلم أنك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله ، وأنت من التراب خلقت وإليه تعود . فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله وقل « سبحان ربي الأعلى » وأكد به التكرار فإن الكرة الواحدة ضعيفة الآثار ، فإذا رقت قلبك وظهر ذلك فلتصدق رجاءك في رحمة الله فإن رحمته تسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبطر ، فارفع رأسك مكبراً وسائلاً حاجتك وقائلاً « رب اغفر وارحم » ثم أكد التواضع بالتكرار فعد إلى السجود ثانياً كذلك .

( وأما التشهد ) فإذا جلست فاجلس متأدياً وصرح بأن جميع ماتدلى من الصلوات والطيبات أي من الأخلاق الطاهرة لله ، وكذلك الملك لله وهو معنى التحيات ، وأحضر في قلبك النبي صلى الله عليه وسلم وقل « سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » وليصدق أملك في أنه يبلغه ويرد عليك وهو أوفى منه . ثم تسلم على نفسك وعلى عباد الله الصالحين ، ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاماً وافياً بعدد عباد الصالحين . ثم تشهد له تعالى بالوحدانية وتحمد النبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة مجدداً عهد الله سبحانه بإعادة كلمتي

الشهادة ومستأنفاً للتحصن بها ثم ادع في آخر صلاتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال وصدق الرجاء بالإجابة ، وأشرك في دعائك أبو بكر وسائر المؤمنين . واقصد عند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين ، وانوخذ الصلاة به ، واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة ثم أشرك قلبك الوجل والحياء من التقصير في الصلاة ، وخف أن لا تقبل صلاتك وأن تكون عموتاً بذنب ظاهر أو باطن ، فترد صلاتك في وجهك وترجو مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله .

هذا تفصيل صلاة الخاشعين ( الذين هم في صلاتهم خاشعون . . . والذين هم على صلاتهم يحافظون . . . والذين هم على صلاتهم دائمون ) والذين هم يفتنون الله عز وجل قدر استطاعتهم في العبودية فليعرض الإنسان نفسه على هذه الصلوات فبالقدر الذي يسر له منه ينبغي أن يفرح ، وعلى ما يفوته ينبغي أن يتحسر ، وفي مدان ذلك ينبغي أن يجتهد — وأما صلاة الغافلين فهي خطيرة إلا أن يتعمدها تعالى برحمته . نسأل الله تعالى أن يقمدا برحمته ومغفرته إذ لا وسيلة لنا الاعتراف بالمعجز عن القيام بطاعته .

ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلوات ، قال الله عز وجل : ( قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ) فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة وهي المقربة بالخشوع : ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضاً فقال : ( والذين هم على صلاتهم يحافظون ) ثم قال تعالى في ثمره تلك الصفات : ( أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ) فوصفهم بالفلاح أولاً وبوراثه الفردوس آخر وما عندي أن هزيمة اللسان مع غفلة القلب تنتهي إلى هذا الحد ولذلك قال عز وجل في أضدادهم ( ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ) فالمصلون هم الوارثون الفردوس وهم المشاهدون لنور الله تعالى والمتمتعون بقربه ودنوه من قلوبهم فندب الله أن يجعلنا منهم .



## الإمامة

على الإمام وظائف قبل الصلاة وفي القراءة وفي أركان الصلاة وبعد السلام :  
 أما الوظائف التي هي قبل الصلاة فسنة ﴿ أولها ﴾ أن لا يتقدم للإمامة على قوم  
 يكرهونه ، وأن لا يتقدم ووراءه من هو أفقه منه إلا إذا امتنع من هو أولى منه فله  
 التقدم — ويكره عند ذلك المدافعة . ﴿ ثانيها ﴾ أن يراعى الإمام أوقات الصلوات  
 فيصلى في أوائلها ليدرك رضوان الله تعالى ففضل أول الوقت على آخره كفضل  
 الآخرة على الأولى . ولا ينبغي أن يؤخر الصلاة لانتظار كثرة الجمع بل عليه المبادرة  
 لحيازة فضيلة أول الوقت فهي أفضل من كثرة الجماعة ومن تطويل السورة ، وقد  
 تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر وكانوا في سفر وإنما تأخر  
 للطهارة فلم ينتظروا وقدم عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم حتى فانت رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم ركعة فقام يقضيها فأشفقوا من ذلك ، فقال رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم : قد أحسنتم هكذا فافعلوا ، وذهب مرة يصلح بين قوم فتأخر عن  
 صلاة الظهر فقدموا أبا بكر رضى الله عنه حتى جاء صلوات الله عليه وهو في الصلاة  
 فقام إلى جانبه . وليس على الإمام انتظار المؤذن وإنما على المؤذن انتظار الإمام  
 ﴿ ثالثها ﴾ أن يؤم مخلصاً لله عز وجل ومؤدياً أمانة الله تعالى في طهارته وجميع  
 شروط صلواته ، أما الإخلاص فبأن لا يأخذ عليها أجره [ قال الشيخ <sup>(١)</sup> تقي الدين  
 ابن تيمية عليه الرحمة : ما يؤخذ من بيت المال فليس عوضاً وأجره بل رزق الإعانة  
 على الطاعة وكذلك المال للوقوف على أعمال البر والموصى به أو المنذور له ليس  
 كالأجرة والجمل انتهى • قال الحارثي : فالقائل بالمدح من أخذ الأجرة على نوع  
 القرب لا يمنع من أخذ المشروط في الوقف ] وأما الأمانة : فهي الطهارة باطنياً عن

(١) ما بين المعقوفين من النقل عن الإمام ابن تيمية رحمه الله من زيادتنا على الأصل اهـ  
 مجال الدين القاسمي .

الفسق والكبائر والإصرار على الصفات المترشح للإمامة ينبغي أن يحتز عن ذلك  
بجهد فإنه كالوفد والشفيع للقوم ، فببغى أن يكون خير القوم — وكذا الطهار  
ظاهراً عن الحدث والخبث فإنه لا يطاع عليه سواء فإن تذكر في أثناء صلاته حد  
أو خرج منه ريح فلا ينبغي أن يستحى بل يأخذ بيد من يقرب منه ويستغسل  
﴿ رابعها ﴾ أن لا يكبر حتى تستوى الصفوف فيلقت يميناً وشمالاً فإن رأى خلاً  
أمر بالتسوية : قيل كانوا يتحاذون بالمناكب ويتضامون بالكعاب ، ولا يكبر حتى  
يفرغ المؤذن من الإقامة ، والمؤذن يؤخر الإقامة عن الأذان بقدر استعداد الناس  
للصلاة ﴿ خامسها ﴾ أن يرفع صوته بتكبيرة الإحرام وسائر التكبيرات  
ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه وليؤخر المأموم تكبير الإمام فيبتدى  
بعد فراغه .

﴿ وأما وظائف القراءة فثلاثة ﴾ أولها : أن يسر بدعاء الاستفتاح  
والتعوذ كالمفرد ويحجر بالفاتحة والسورة بعدها في جميع الصبح وأول  
العشاء والمغرب وكذلك المفرد . ويحجر بقوله آمين في الصلاة الجهرية وكذلك  
المأموم ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معاً لا تعقيباً ؛ الثانية : أن  
يكون للإمام في القيام ثلاث سككات ( أولاهن ) إذا كبر لدعاء الاستفتاح  
( والثانية ) إذا فرغ من الفاتحة ( والثالثة ) إذا فرغ من السورة قبل أن  
يركع وهي أخفها وذلك بقدر ما تنفصل القراءة عن التكبير ، فقد نهى  
عن التعجيل فيه ، ولا يقرأ المأموم وراء الإمام إلا الفاتحة وإن لم يسمع المأموم  
في الجهرية لبعده ، أو كان في السرية فلا بأس بقراءته السورة ؛ الثالثة  
التخفيف أولى سيما إذا كثرت الجمع لقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا صلى أحدكم  
بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة ، وإذا صلى لنفسه  
فليطول ما شاء » وقال صلوات الله عليه لعازل : « اقرأ سورة سبح ، والسما والطارق  
والشمس وضحاها » .

(وأما وظائف الأركان الثلاثة) أولها : أن يخفف الركوع والسجود فلا يزيد في التسبيحات على ثلاث ؛ الثانية : في المأموم ينبغي أن لا يسابق الإمام في الركوع والسجود بل يتأخر فلا يهوى للسجود إلا إذا وصلت جبهة الإمام إلى الأرض ، ولا يهوى للركوع حتى يستوى الإمام راعياً ؛ الثالثة : لا يزيد في دعاء التشهد على مقدار التشهد حذراً من التطويل ، ولا يخص نفسه بالدعاء بل يأتي بصيغة الجمع فيقول : اللهم اغفر لنا .

(وأما وظائف التحلل الثلاثة) أولها : أن ينوي بالتسليمتين السلام على القوم والملائكة ؛ الثانية : أن يثبت عقب السلام سيما إذا كان خلفه نسوة فلا يقوم حتى ينصرفن (الثالثة) إذا سلم فينبغي أن يقبل بوجهه على الناس .  
فضل الجمعة وآدابها

اعلم أن هذا يوم عظيم عظم الله به الإسلام وخص به المسلمين ، قال الله تعالى : (إذا نوى للصلاة من يوم الجمعة فاسموا إلى ذكر الله وذروا البيع) فحرم الاشتغال بأمور الدنيا وبكل صارف عن السعي إلى الجمعة ، وقال صلى الله عليه وسلم : «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة» وقال صلى الله عليه وسلم : «من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه» والمذر : مثل المطر والوحل والغزغز والمرض والتمريض إذا لم يكن للمريض قيم ونحوها ، ويستحب الغسل فيه ولا بأس من تقريبه من الرواح ليكون أقرب عهداً بالنظافة ، ويستحب فيه أخذ الشعر وقلم الظفر وقص الشارب وتطيبب الرائحة ، ولبس أحسن الثياب ، ويستحب فيه البكور إلى الجامع وأن يكون في سعيه خاشعاً متواضعاً مبادراً إلى ندائه تعالى إلى الجمعة ، وينبغي أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يمر بين أيديهم ، والبكور يسهل عليه ذلك فقد ورد وعيد شديد في تخطى الرقاب ومهما كان الصف الأول متروكاً خالياً فله أن يتخطى رقاب الناس لأنهم ضيعوا حقهم وتركوا مواضع الفضيلة ، قال الحسن البصري رضي الله عنه : تخطوا رقاب الذين يعمدون على

أبواب الجامع يوم الجمعة فإنه لا حرمة لهم ، وإذا دخل المسجد فليركع ركعتين  
 وإن كان الإمام يخطب ولا يمر بين يدي الناس بل يجلس إلى أقرب أسطوانة  
 أو حائط حتى لا يمرؤا بين يديه ، أعنى بين يدي المصلي فإن ذلك منهي عنه ،  
 ومن اجتاز به فينبغي أن يدفعه ، فإن لم يجد أسطوانة فليذهب بين يديه شيئاً  
 طوله قدر ذراع ليكون ذلك علامة لحده ، ويندب طلب الصف الأول فإن  
 فضله كثير ، والقرب من الخطيب ليستمع الخطبة ، وتكره الصلاة في الأسواق  
 والرحاب الخارجة عن المسجد ، وعليه أن يقطع الكلام عند خروج الخطيب ،  
 بل يشغل بجواب المؤذن ، ثم باستماع الخطبة ، وقال صلى الله عليه وسلم :  
 « من قال لصاحبه والإمام يخطب أنصت فقد افا ومن افا والإمام يخطب  
 فلا جمعة له » وهذا يدل على أن الإسكات ينبغى أن يكون بإشارة أومى  
 حصة لا بالنطق ، فإذا قضيت الصلاة فليرجع إلى شأنه ذا كراً الله عز وجل  
 مفكراً في آلائه شاكراً الله تعالى على توفيقه خائفاً من تقصيره ، وكان  
 صلى الله عليه وسلم يصلى بعد الجمعة ركعتين في بيته ، ويستحب أن يكثر الصلاة  
 على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم وفي ليلته ، وأن يتصدق فيه  
 إلا على من سأل والإمام يخطب ، قال ابن مسعود : إذا سأل الرجل في المسجد ،  
 فقد استحق أن لا يعطى : يعنى هؤلاء السؤال في الجامع الذين يتخطون رقاب  
 الناس إلا أن يسأل قائماً أو قاعداً في مكانه من غير تحطى ، وكره بعض الساف  
 شراء الماء في المسجد من السقا ليشربه أو يسبله حتى لا يكون مبتاعاً في  
 المسجد فإن البيع والشراء في المسجد مكروه ، وقال لا بأس لو أعطى الفضة  
 خارج المسجد ، ثم شرب أو سبل في المسجد ، وينبغي أن يزيد في الجمعة في  
 أنواع خيراته فإن الله سبحانه إذا أحب عبداً استعمله في الأوقات الفاضلة  
 بفواضل الأعمال .

مسائل متفرقة يحتاج إلى معرفتها

﴿ مسألة ﴾

الفعل القليل وإن كان لا يبطل الصلاة فهو مكروه إلا الحاجة ، وذلك في دفع المار ، وقتل المقرّب ، وحاجته إلى الحك الذي يشوش عاينه الخشوع ، ومهما تشاء فلا بأس أن يضع يديه على فيه ، وإن عطس حمد الله عز وجل في نفسه ولم يحرك لسانه ، وإن تجشأ فينبغي أن لا يرفع رأسه إلى السماء .

﴿ مسألة ﴾

يسن أن يقف الواحد عن يمين الإمام متأخراً عنه قليلاً ، والمرأة الواحدة تقف خلف الإمام ، فإن كان معها رجل وقف الرجل عن يمين الإمام وهي خاف الرجل .

﴿ مسألة ﴾

المسبوق إذا أدرك آخر صلاة الإمام فهو أول صلاته فايوافق الإمام وليبين عليه ، وليقمت في الصبح في آخر صلاة نفسه ، وإن قنت مع الإمام ، وإن أدرك مع الإمام بعض القيام فلا يشتغل بالدعاء وليبدأ بالفاتحة واينخففها فإن ركع الإمام قبل تمامها وقدر على لحوقه في اعتداله من الركوع فليتم فإن عجز وافق الإمام وركع وكان لبعض الفاتحة حكم جيمها فنسقط عنه بالسبق ، وإن ركع الإمام وهو في السورة فليقطعها ، وإن أدرك الإمام في السجود أو التشهد كبر للإحرام ، ثم جلس ولم يكبر ، بخلاف ما إذا أدركه في الركوع فإنه يكبر ثانياً في الهوى لأن ذلك انتقال محسوب له ، ولا يكون مدركاً للركعة ما لم يطأثن راعكاً في الركوع والإمام بعد في حد الراكعين فإن لم يتم طمأنينته إلا بعد مجاوزة الإمام حد الراكعين فاتته الركعة .

﴿ مسألة ﴾

من فاته الظهر إلى وقت العصر ، فليصل الظهر أولاً ، ثم العصر ، فإن وجد جماعة فليصل العصر ثم ليصل الظهر بعده فإن الجماعة بالأداء أولى .

﴿ مسألة ﴾

من صلى ثم رأى على ثوبه نجاسة فالأحب قضاء الصلاة ولا يلزمه ، ولو رأى النجاسة في أثناء الصلاة ، رمى بالثوب وأتم ، وأصل هذا قصة خلع النملين حيث أخبر جبريل عليه السلام ، رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عليهما نجاسة فخامهما ولم يستأنف الصلاة .

﴿ مسألة ﴾

من ترك التشهد الأول أو شك فلم يدر أصلى ثلاثاً أو أربعاً أخذ باليقين وسجد سجدة السهو قبل السلام فإن نسي فبعد السلام مهما تذكر على القرب .

﴿ مسألة ﴾

الوسوسة في نية الصلاة سببها خبل في العقل أو جهل بالشرع ، لأن امتهال أمر الله عز وجل مثل امتهال أمر غيره ، وتمظيمه كتمظيم غيره ، في حق القصد ، ومن دخل عليه عالم فقام له فلو قال نويت أن أنتصب قائماً تعظيماً لدخول زيد الفاضل لأجل فضله مقبلاً عليه بوجهي كان سفيهاً عقله ، بل كما يراه ويعلم فضله تنبعت داعية التمظيم فتقيمه ويكون معظماً إلا إذا قام لشغل آخر أو في غفلة ، واشتراط كون الصلاة ظهراً أداء فرضاً في كونه امتهالاً كاشتراط كون القيام مقروناً بالدخول مع الإقبال بالوجه على الداخل وانقضاء باعث آخر سواء وقصد التمظيم به ليكون تعظيماً فإنه لو قام مدبراً عنه أو صبر فقام بعد ذلك بمدته لم يكن معظماً ، ثم هذه الصفات لا بد وأن تكون معلومة ، وأن تكون مقصودة ، ثم لا يطول حضورها في النفس في لحظة واحدة ، وإنما يطول نظم الألفاظ الدالة عليها إما تلفظاً باللسان ، وإما تفكيراً بالقلب ، فمن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه فكأنه لم يفهم النية ، فليس فيه إلا أنك دعيت إلى أن تصلي في وقت فأجبت وقت ، فالوسوسة محض الجهل .

﴿ مسألة ﴾

لا ينبغي أن يتقدم المأموم على الإمام في الركوع والسجود والرفع منهما ولا في سائر الأعمال ، ولا ينبغي أن يساويه بل يتبعه ويقفو أثره فهذا معنى الاقتداء ، فإن تقدم عليه ففي بطلان صلاته خلاف ، وقد شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير فيه وقال : « أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار » .

﴿ مسألة ﴾

حق على من حضر الصلاة إذ رأى من غيره إساءة في صلاته أن يغيره وينكر عليه ، وإن صدر من جاهل رفق بالجاهل وعلمه ، فمن ذلك الأمر بتسوية الصفوف ومنع المنفرد بالوقوف خارج الصف ، والإنكار على من يرفع رأسه قبل الإمام إلى غير ذلك من الأمور . وعن عمر رضي الله عنه قال : تفقدوا إخوانكم في الصلاة فإذا فقدتموهم فإن كانوا مرضى فعودوهم وإن كانوا أصحاء فماتبوهم . والعتاب إنكار على من ترك الجماعة ، ولا ينبغي أن يتساهل فيه ، وقد كان الأولون يبالغون فيه .

بيان نوافل العبادات

اعلم أن ما عدا الفرائض من الصلوات يسمى نافلة وتطوعاً ، فمنه ما يتعاقب بأسباب كالكسوف والاستسقاء ، ومنه ما يتعاقب بأوقات كرواتب الصلاة ونحوها ، فمن الثاني ( راتبة الصبح ) وهي ركعتان يدخل وقتها بطلوع الفجر فإن دخل المسجد وقد قامت الصلاة فليشتغل بالكتابة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » ثم إذا فرغ من المكتوبة قام إليهما وصلهما (وراتبة الظهر) أربع قبلها وأربع بعدها وله الاختصار على ركعتين قبل وبعد ( وراتبة العصر ) وهي أربع ركعات قبلها ولم تكن من نوافل صلوات الله عليه كما خاطبته على نافلة الظهر ( وراتبة المغرب ) وهما ركعتان

بعد الفريضة ، وأما ركعتان قبلها بين أذان المؤذن وإقامته على سبيل المبادرة  
فكان يفعله كثير من الصحب ، وصح أمر النبي صلوات الله عليه بها على سبيل  
التخيير ( وراتبة المشاء ) بعدها ركعتان أو أربع ( وأما الوتر ) فرقته بعد العشاء  
وأكثره إحدى عشرة ركعة ، وله أن يوتر بتسع وسبع وخمس وثلاث موصولة  
بتسليمة واحدة أو مفصولة بتسليمتين ، وجهله بعد التهجيد في آخر الليل أفضل  
( وأما صلاة الضحى ) فأكثر ما نقل في عدد ركعاتها ثمان ، وأقله ركعتان ،  
ورقتها بعد إشراق الشمس وارتفاعها ( وأما صلاة العيدين ) فهي سنة مؤكدة  
وشعار من شعائر الدين ويستحب يوم العيد الاغتسال والتزين والتطيب  
( وأما صلاة التراويح ) فهي عشرون ركعة ، وكيفيةها معروفة ( وأما صلاة  
الخشوف ) فركعتان ، ينادى لها ويصليهما الإمام بالناس جماعة في المسجد وفي  
كل منهما ركوعان وسجودان ثم يخطب بهما ، ويأمر الناس بالصدقة والتوبة ،  
ووقتها عند ابتداء الخسوف إلى تمام الانجلاء ( وأما صلاة الاستسقاء ) فإذا غارت  
الأهبار وانقطعت الأمطار فيستحب للإمام أن يأمر الناس أولاً بصيام ثلاثة أيام  
وما أطاقوا من الصدقة والخروج من المظالم والتوبة من المعاصي ثم يخرج بهم يوم  
الرابع وبالمجانز والصبيان في ثياب بذلة واسعة مكانة متواضعين — ولو خرج أهل  
الذمة أيضاً متميزين لم يمنعوا فإذا اجتمعوا في المصلى الواسع من الصحراء نودي  
( الصلاة جامعة ) فصلى بهم الإمام ركعتين مثل صلاة العيد بغير تكبير ، ثم  
يخطب خطبتين ويكثر من الاستغفار والدعاء ( وأما صلاة الجنائز ) فكيفيةها  
معروفة وهي من فرائض الكفايات وإنما تصير نفلا في من لم تتعين عليه بحضور  
غيره ( وأما تحية المسجد ) فركعتان وهي سنة مؤكدة وإن اشتغل بفرض أو قضاء  
تأدت به التحية وحصل الفضل إذ المقصود أن لا يخلو ابتداء دخوله عن العبادة  
الخاصة بالمسجد ( وأما ركعتا الوضوء ) بعده فستحبان ، لأن الوضوء قرينة  
ومقصودها الصلاة ( وأما صلاة الاستخارة ) فمن مأمور فقد أمر رسول الله



صلى الله عليه وسلم أن يصلي ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقل يا أيها الكافرون ، وفي الثانية الفاتحة وقل هو الله أحد . فإذا فرغ دعا وقال : اللهم إني أستخبرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب : اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فقدره لي وبارك لي فيه ثم يسره لي ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاصرفني عنه واصرفه عني واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به ، وبسمي حاجته .

### الأوقات التي تذكر فيها الصلاة

هي خمسة : بعد العصر ، وبعد الصبح ، ووقت الزوال ، ووقت الطلوع والغروب تذكر فيها صلاة لا سبب لها ، وأما ماله سبب كقضاء راتبة وكسوف وجنازة فلا تذكر فيها ، وسر النهي التوقي من مضاهاة عبدة الشمس وبعث الداعية والنشاط ، ففي تعطيل هذه الأوقات زيادة تحريض وبعث على انتظار قضاء الوقت .

### ما يقضى من الذوافل

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين بعد العصر فقبل له أما نهيتنا عن هذا ؟ فقال هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر فشغلني عنهما الوفد ، وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة صلى من أول النهار اثنتي عشرة ركعة ، فمن كان له ورد فمأقه عن ذلك عذر فينبغي أن لا يرخص لنفسه في تركه بل يتداركه في وقت آخر حتى لا تميل نفسه إلى الدعة والرفاهية . فتداركه حسن على سبيل مجاهدة النفس فيقصد به أن لا يفتر في دوام عمله .

## كتاب أسرار الزكاة

جعل الله تعالى للزكاة إحدى مباني الإسلام وأردف بذكرها الصلاة التي هي أعلى الأعلام فقال تعالى : ( وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ) وقال صلى الله عليه وسلم : « بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً » وشدد الوعيد على المقصرين فيها فقال : ( والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب ألیم ) ومعنى الإنفاق في سبيل الله إخراج الزكاة ، قال الأحنف بن قيس : كنت في نفر من قريش فرأبو ذر فقال بشر الكائنين بكى في ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكى في أفتانهم يخرج من جباههم . ولهذا التشديد صار من مهمات الدين الكشف عن أسرار الزكاة ومعانيها الظاهرة والباطنة . وفي ذلك فصول :

### أداء الزكاة وشروطها

اعلم أنه يجب على مؤدى الزكاة مراعاة أمور : ( الأول ) البدار عقيب الحول ، وفي زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر ، ويدخل وقت وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم رمضان . ووقت تمجيلها شهر رمضان كله ، ومن أخر زكاة ماله مع التمكن عصى ولم تسقط عنه بطلب ماله ، وتمككه بمصادقة المستحق ، وتمجيل الزكاة جائزة . ( الثانى ) أن لا ينقل الصدقة إلى بلد آخر فإن أعين المساكين في كل بلدة تمتد إلى أموالها ، وفي النقل تخيب للظنون فإن فعل ذلك أجزاء في قول ولكن الخروج عن شبهة الخلاف أولى فليخرج زكاة كل مال في تلك البلدة . ثم لا بأس أن يعترف إلى الغرباء في تلك البلدة . ( الثالث ) أن يقسم ماله بعدد الموجودين من الأصناف الثمانية في بلده ، ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف ( الفقراء والمساكين والغارمون والمسافرون ) أعنى أبناء السبيل وليس عليه التسوية بين أحاد الصنف .

سر كون الزكاة من مبادئ الإسلام

في ذلك معاني : (الأول) أن التلغظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بإفراد المعبود ، وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقى الموحّد محبوب سوى الواحد الفرد ، فإن المحبة لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قابل الجدوى ، وإنما يتحقق به درجة الحب بمفارقة المحبوب ، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تتمتعهم بالدنيا ، وبسببها يأنسون بهذا العالم ويفترون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب فامتحنوا بتصدق دعواتهم في المحبوب واستنزلوا عن المال الذي هو مرقومهم ، ولذلك قال الله تعالى : ( إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ) وذلك بالجهاد ، وهو مسامحة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عز وجل ، والمسامحة بالمال أهون ، ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم صدقوا التوحيد ونزلوا عن جميع أموالهم ، فلم يدخروا ديناراً ولا درهماً ، كما جاء أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميع أمواله . وقسم دون هؤلاء ، وهم المسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصدهم في الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التمتع وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوها ، وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة ، وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن في المال حقوقاً سوى الزكاة كالنخعي والشامي وعطاء ومجاهد . قال الشعبي بعد أن قيل له : هل في المال حق سوى الزكاة ؟ قال : نعم ، أما سمعت قوله عز وجل : ( وآتى المال على حبه ذوى القربى ) الآية . واستدلوا بقوله عز وجل ( وما رزقناهم ينفقون ) وبقوله تعالى : ( وأنفقوا مما رزقناكم ) فهو داخل في حق المسلم على المسلم ، ومعناه أنه يجب على المومر مهما وجد محتاجاً أن يزيل حاجته عدا عن ماله الزكاة . والقسم الثالث الذين يقتصرون على أداء الوجوب

فلا يزيدون عليه ولا ينتقصون منه وهي أقل المراتب ، وقد اقتصر جميع العوام عليه ليخلطهم بالمال وميلهم إليه وضمف حبهم للآخرة .

( المعنى الثانى ) التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات ، قال تعالى :

( ومن يوق شح نفسه فأوائك هم المفلحون ) وإنما تزول صفة البخل بأن تعود

بذل المال ، فحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقه حتى يصير اعتياداً ،

والزكاة بهذا المعنى طهرة ، أى تطهر صاحبها من خبث البخل المهلك وإنما طهارته

بقدر بذله وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى .

( المعنى الثالث ) شكر النعمة فإن لله عز وجل على عبده نعمة في نفسه

وماله ، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن ، والالية شكر لنعمة المال ،

وما أخس من ينظر إلى الفقير ، وقد ضيق عليه الرزق وأحوج إليه ، ثم لا تسمع

نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع

العشر أو العشر من ماله .

### وظائف المذكى

( الأولى ) التمجيل عن وقت الوجوب إظهاراً للارغبة فى الامتثال بإيصال

السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن يعوق عن الخيرات وعلماً

بأن فى التأخير آفات مع ما يتعرض العبد له من المصيان لو أخر عن وقت

الوجوب ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغى أن يغتنم فإن ذلك للمفكر

الملك وما أسرع تقلب المؤمن ، والشيطان يمدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والمنكر

وله لمة عقيب لمة فليغتنم الفرصة فيه .

( الوظيفة الثانية ) الإسرار ، فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة . قال

تعالى : ( وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ) . وقد بلغ فى فضل

الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطى فكان بعضهم يوصل

إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطى ، وكان يسهكنم المتوسل

شأنه ويوصيه بأن لا يفشيهِ كل ذلك توصلاً إلى رضا الرب واحتراماً من الرياء والسمعة ، ومهما كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله .

( الثالثة ) أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيباً للناس في الاقتداء ويحرس سره من داعية الرياء . فقد قال تعالى : ( إن تبدوا الصدقات لنعما هي ) وذلك حيث يقتضى الحال الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس فلا ينبغي أن يترك التصدق خيفة من الرياء في الإظهار بل ينبغي أن يتصدق ، ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان ، وهذا لأن في الإظهار محذوراً ثالثاً سوى المن والرياء وهو هتك ستر الفقير ، فإنه ربما يتأذى بأن يرى في صورة المحتاج ، فمن أظهر السؤال فهو الذى هتك ستر نفسه فلا يحذر هذا المعنى في إظهاره ، وقد قال الله تعالى : ( وأنفقوا مما رزقناكم سراً وعلانية ) ندب إلى العلانية أيضاً لما فيه من فائدة الترغيب ، فليكن العبد دقيق التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذى فيه ، ومن عرف الفوائد والنوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال .

( الرابعة ) أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى ، قال تعالى : ( لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ) والمن أن يذكرها ويتحدث بها أو يستخدمه بالمطاء أو يتكبر عليه لأجل عطائه ، والأذى أن يظهرها أو يعيره بالفقر أو ينتهره أو يوبخه بالمسألة ، وأصل المن أن يرى نفسه محسناً إلى الفقير ومنعماً عليه وحقه أن يرى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله عز وجل منه الذى هو طهرته ونجاته من النار ، وأنه لو لم يقبله لبقى مستهدفاً به ، فحقه أن يتقلد منه الفقير ، ومهما عرف المعانى الثلاثة التى مر ذكرها فى الفصل قبل ، لم ير نفسه محسناً إلا إلى نفسه إما ببذل ماله لإظهاراً لحب الله تعالى أو تطهيراً لنفسه عن رذيلة البخل أو شكراً على نعمة المال طلباً للمزيد .

وأما الأذى فمبني على رؤيته أنه خير من الفقير ، وهذا جهل لأنه لو عرف فضل

الفقر وخطر الأغنياء لما استحققر الفقير بل تمنى درجته ، كيف وقد جملة الله  
متجربة له حتى يخلصه من عهده بقبوله منه .

( الخامسة ) أن يستعصر العطية فإنه إن استعظمها أعجب بها ، والعجب  
من المهمات وهو محبط للأعمال ، قيل : لا يتم المعروف إلا بثلاث : تصغيره ،  
وتعجيله ، وستره .

( السادسة ) أن ينتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه ، فإن الله  
تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإذا لم يكن المخرج من جيد المال فهو من  
سوء الأدب ، إذ قد يمك الجيد لنفسه أو لعبد أو أهله فيكون قد آثر  
على نفسه عز وجل غيره ، ولو فعل هذا بضيفه وقدم إليه أردأ طعام في بيته  
لأوغر بذلك صدره ، وقد قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات  
ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون  
ولستم بأخذيه إلا أن تنفقوا فيه ) أي لا تأخذوه إلا مع كراهية وحياء ،  
وهو معنى الإغماض .

( السابعة ) أن يطلب بصدقته من تزكو به الصدقة ، ولا يكتفى بأن يكون  
من عموم الأصناف الثمانية فإن في عمومهم خصوص صفات فليراع خصوصها  
وهي ستة ( الأولى ) أن يطلب الأتقياء لأهم يستعينون بالمال على التقوى فيكون  
شريكاً لهم في طاعتهم بإعانتهم إيهم ( الثانية ) أن يكون من أهل العلم خاصة  
فإن ذلك إعانة له على العلم ، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية ، وكان  
ابن المبارك يخصص بمروفة أهل العلم ، فقيل له : لو صحت ، فقال : إني لا أعرف  
بمد مقام الذبوة أفضل من مقام العلماء فإذا اشتغل أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم  
ولم يقبل على التعلم فتفرغهم للعلم أفضل ( الثالثة ) أن يكون صادقاً في تقواه وعلمه  
بالتوحيد ، وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن  
النعمة منه وأن الوسطة مسخر بتسخير الله إذ سلط عليه دواهي الفعل وبسر

الأسباب فأعطى ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث إنهم  
وسائط فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفى ، فليتق الله سبحانه في تصفية توحيده  
من كدورات الشرك وشوائبه (الرابعة) أن يكون مخفياً حاجته لا يكثر البث  
والشكوى ، أو يكون أهل المرودة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته فهو يتعيش  
في جلباب التحمل قال الله تعالى : ( يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم  
سوام لا يسألون الناس إلحافاً ) أى لا يلحقون فى السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم  
عزة بصبرهم . وهذا ينبى أن يطلب بالفحص عن أهل الدين فى كل محلة  
يستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل ، فنواب صرف المعروف إليهم  
ضفاف ما يصرف إلى الجاهرين بالسؤال ( الخامسة ) أن يكون معيلاً أو  
مبوساً بمرض أو بسبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله عز وجل ( لا فقر  
لدين أحصروا فى سبيل الله ) أى حبسوا فى طريق الآخرة بعيلة أو ضيق معيشة  
و إصلاح قلب ( لا يستطيعون ضرباً فى الأرض ) لأنهم مقصودوا الجفاح  
تقيدوا الأطراف . فهذه الأسباب كان عمر رضى الله عنه يعطى أهل البيت  
تقطع من الغنم العشرة فما فوقها ، وكان صلى الله عليه وسلم يعطى العطاء على  
ندار العيلة . وسئل عمر رضى الله عنه عن جهد البلاء فقال : كثرة العيال ،  
قلة المال . ( السادسة ) أن يكون من الأقارب وذوى الأرحام فتكون صدقة  
صلة رحم ، وفى صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى قال على رضى الله عنه لأن  
صل أخاً من إخوانى بدرهم أحب إلى من أن أتصدق بمشرين درهماً . والأصدقاء  
إخوان الخير أيضاً يقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب فإبراع  
هذه الدقائق . فهذه هى الصفات المطلوبة ، وفى كل صفة درجات فينبى أن  
طلب أعلاها ، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهى الذخيرة الكبرى  
والغنيمة العظمى .

مصارف الزكاة وأصناف قابضها

اعلم أنه لا يستحق الزكاة إلا مسلم اتصف بصفة من صفات الأصناف الثمانية المذكورين في كتاب الله تعالى :

( الصنف الأول الفقراء ) والفقير هو الذي ليس له مال ولا قدرة على الكسب ، فمن قدر على كسب فإن ذلك يخرج به عن الفقر ، وإن كان متفقراً ويمتعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تعتبر قدرته ، وإن كان متعبداً يمتعه الكسب من وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكنسب لأولى من ذلك .

( الصنف الثاني المساكين ) والمسكين هو الذي لا يفي دخله بخرجه فقد يملك ألف درهم وهو مسكين وقد لا يملك إلا فأساً وحبلًا وهو غني ولدوية لا يسكنها والثواب الذي يستره على قدر حاله لا يسلبه اسم المسكين وكذا أثناء البيت أعنى ما يحتاج إليه وذلك ما يليق به وكذا كتب الفقه لا تخرجه المسكنة فإنه محتاج إليها .

( الصنف الثالث العاملون ) وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات ويدخلون للكاتب والمستوفي والحافظ والناقل .

( الصنف الرابع المؤلفة قلوبهم على الإسلام ) وهو الشريف الذي أسلم مطاع في قومه وفي إعطائه تقريره على الإسلام وترغيب نظائره وأتباعه .

( الصنف الخامس الأرقاء ) يدفع إلى السيد ما يملك به رقبة العبد وللعبد أيضاً ما يملك به رقبته .

( الصنف السادس الغارمون ) والغارم هو الذي استقرض في طاعة أو وهو فقير ، فإن استقرض في معصية فلا يعطى إلا إذا تاب ، وإن كان غارماً يقض دينه إذا كان قد استقرض لمصلحة وإطفاء فتنه .



(الصف السابع الغزاة<sup>(١)</sup>) الذين ليس لهم مرسوم في ديوان المرتزقة فيصرف إليهم سهم وإن كانوا أغنياء إعانة لهم على الغزو .  
(الصف الثامن ابن السبيل) وهو الذي شخص من بلده ليسافر في غير معصية أو اجتاز فيه فيعطى إن كان فقيراً وإن كان له مال ببلد آخر أعطى بقدر بلغته .

### وظائف القابض وهي أربعة

(الأولى) أن يفهم أن الله عز وجل أوجب صرفه إليه أي كفى هم ويكون عوناً له على الطاعة ، فإن استعان به على المعصية كان كافراً لأنعم الله عز وجل مستحقاً للبعد والقت من الله سبحانه .

(الثانية) أن يشكر المعطى ويدعوه ويثني عليه ، ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرج عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه . وللطريق حق من حيث جعله الله طريقاً وواسطة ، وذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله سبحانه فقد قال صلى الله عليه وسلم : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » وقد أثنى الله عز وجل على عباده في مواضع على أعمالهم وهو خالقها نحو قوله تعالى : ( نعم العبد إنه أواب ) إلى غير ذلك ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد

(١) هذا مما فسر به الفقهاء قوله تعالى ( وفي سبيل الله ) فجعلوا هذا الصف للغزاة المجاهدين خاصة وقولاً مما آثار في ذلك رويت عن السلف وعندى أنت هذا القصر من حصر العام في أهم أفراده لا من حصره في مدلوله وموضوعه اللغوي لأن سبيل الله كما قال ابن الأثير في النهاية كل عمل خالص سلك به طريق التقرب إلى الله تعالى بأنواع التطوعات والقربات على أن سبيل الله ليس نصاً في الجهاد ولا ظاهراً فيه كما لا يخفى على من له إلمام بالأصول ، ولا يقدر أحد أن يأتي بنص من الكتاب أو السنة أنت سبيل الله هو الإنفاق على المجاهدين دون غيرهم أبداً إلا من آثار موقوفة على السلف مما ليس بحجة ولا قاطع . وقد تقرر أن العام يجب إبقاؤه على عمومته حتى يرد ما يخصه ، وإذ لا يخص فهو عام في كل ما يتقرب به إلى الله ويؤيد دينه وشرعه كبناء مدرسة وشراء كتب للعلماء وإعانة في مشروع خير وموضوع بر مما لا تخصي أفراده ، فاحفظ هذه الفائدة الهامة .  
جمال الدين

كافأثموه ، ومن تمام الشكر أن يستر عيوب العطاء إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيره بالمنع إذا منع ويفخم عند نفسه وعند الناس صنيعة ، فوظيفة المعطي الاستصغار ووظيفة القابض تقلد المنة والاستعظام ، وعلى كل عبد القيام بحقه ، وكل ذلك لا ينافض رؤية النعمة من الله عز وجل فإن من لا يرى الوسطة فقد جهل ، وإنما المنكر أن يرى الوسطة أصلاً .

( الثالثة ) أن ينظر فيما يأخذه فإن لم يكن من حله تورع عنه فلا يأخذ من أكثر كسبه من الحرام إلا إذا ضاق الأمر عليه ، وكان ما يسلم له لا يعرف له مالاً معيناً فله أن يأخذ بقدر الحاجة فإن فتوى الشرع في مثل هذا أن يتصدق به ، وذلك إذا عجز عن الحلال .

( الرابعة ) أن يتوفى مواقع الريبة والاشتباه في مقدار ما يأخذه ، فلا يأخذ إلا المقدار المباح ، ولا يأخذن إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذن مالا كثيراً بل ما يتم كفايته من وقت أخذه إلى سنة فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ادخر لعياله قوت سنة ، ومن العلماء من ذهب إلى أن للفقير أن يأخذ مقدار ما يشتري به ضيعة فيستغنى به طول عمره أو يهيء بضاعة ليتجر بها ويستغنى لأن هذا هو الغنى ، وقد قال عمر رضي الله عنه : إذا أعطيتم فأغنوا ، حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم ، ولما تبرع أبو طلحة رضي الله عنه ببستانه قال له صلى الله عليه وسلم : « اجعله في قرابتك فهو خير لك » فأعطاه حسان وأبا قتادة ، فخاطب من نخل لرجلين كثير من .

صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

فضيلة الصدقة

من الأخبار قوله صلى الله عليه وسلم : « تصدقوا ولو بتمر » وفي رواية

« اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » وقال صلى الله عليه وسلم :  
 « كل امرئ في ظل صدقته حتى يُقضى بين الناس » وقال صلى الله عليه وسلم :  
 « صدقة السر تطفى غضب الرب عز وجل » وسئل صلى الله عليه وسلم أى الصدقة  
 أفضل ؟ قال : « أن تصدق وأنت صحيح صحيح تأمل الفنى وتمشى الفاقة  
 ولا تمهل حتى إذا بلغت الخلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد كان  
 لفلان » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان  
 واللقمة واللحمة وإنما المسكين المتعفف ، اقرؤا إن شئتم لا يسألون الناس إلحافاً »  
 وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يكسو مسلماً إلا كان فى حفظ الله  
 عز وجل ما دامت عليه منه رقعة » .

ومن الآثار قول عمرو : لقد تصدقت عائشة رضى الله عنها بخمسين ألفاً وإن  
 درعها لمرقع ، وكان عمر رضى الله عنه يقول : اللهم اجعل الفضل عند خيارنا  
 لعلمهم يعمدون به على أولى الحاجة منا ، وقال ابن أبى الجعد : إن الصدقة لتدفع  
 سبعين باباً من السوء وفضل سرها على إعلانيتها بسبعين ضعفاً .

### وجوب فضل إخفاء الصدقة

قال الله تعالى : ( إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء  
 فهو خير لكم ) وفى الإخفاء خمسة معان :

( الأول ) أنه أبقى للاستر على الآخذ ، فإن أخذه ظاهراً هتك ستر المروءة ،  
 وكشف عن الحاجة ، وخروج عن هيئة التعفف ، والتصون المحبوب الذى يحسب  
 الجاهل أهله أغنياء من التعفف .

( الثانى ) أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم فإنهم ربما يحسدون أو يفكرون  
 عليه أخذه ويظنون أنه أخذ مع الاستغناء والحسد وسوء الظن ، والفيبة من  
 الذنوب الكبار وصياتهم عن هذه الجرائم أولى : قال أيوب السخيتانى : إني

لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث في جيراني حسد ، وقال آخر : خشية أن يقول إخواني من أين له هذا .

( الثالث ) إعانة المعطى على إمرار العمل فإن فضل السر على الجهر في الإعطاء أكثر والإعانة على إتمام المعروف معروف ، دفع رجل إلى بعض العلماء شيئاً ظاهراً فردّه ، ودفع إليه آخر شيئاً في السر فقبله ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن هذا عمل بالأدب في إخفاء معروفه ، فقبلته وذلك أساء أدبه في عمله فرددته عليه . ورد بعضهم ما دفع إليه علانية ، وقال له : إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى ، ولم تقنع بالله عز وجل ، فرددت عليك شركك .

( الرابع ) أن في إظهار الأخذ ذلاً وامتهاناً ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه .  
( الخامس ) الاحتراز عن شبهة الشركة لحديث : « من أهدى له هدية وعند قوم فهم شركاؤه فيها » والأعمال بالنيات ، فينبغي للمخلص أن يكون مراقباً لنفسه حتى لا يتدلى بحبل الفرور ولا ينخدع بمكر الشيطان ، نسأل الله الكريم حسن العون والتوفيق .

### كتاب أسرار الصوم<sup>(١)</sup>

أعظم الله على عباده المنة بما دفع عنهم كيد الشيطان وخيب ظنه إذ جعل الصوم حصناً لأولياؤه وجنة ، وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم : « الصوم نصف الصبر » ، وقال تعالى : ( إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ) فقد جاز ثواب الصوم قانون التقدير والحساب ، وناهيك في معرفة فضله قوله صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده لخلاف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » ، يقول

(١) قال حكيم : صيام الأبد لا يطاق وجعله شهراً من السنة في نهاية الحسن ، وأما كون هذا الشهر رمضان فلا يسأل عنه عند العقل لأنه لو لم يكن هو لكان غيره ولو سئل في فضله هذا السؤال لأدى إلى معاجزة للفكر يفرع لمثلها السوفسطائية ، ثم إن شكر المحسن الأعظم يجب أن لا تغفل عنه ولا يذكرونا به شيء مثل العبادات المرتبة في الأوقات المعلومة على موافق للطاعة وتمييز به الطاعة .

الله عز وجل : إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه لأجلى ، فالصوم لى وأنا الذى أجزى به « وهو موعود بلقاء الله تعالى فى جزاء صومه قال صلى الله عليه وسلم : « للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه » ، وقيل فى قوله تعالى : ( فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ) كان عملهم الصيام لأنه قال : ( إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ) فيفرغ للصائم جزاؤه إفراغاً وبخارفاً جزافاً ، فلا يدخل تحت وهم وتقدير — وجدير بأن يكون كذلك ، لأن الصوم إنما كان له ومشرقاً بالنسبة إليه وإن كانت العبادات كلها له لمعنيين ( أحدهما ) أن الصوم كف وترك وهو فى نفسه سر ليس فيه عمل بشاهد ، وجميع الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى ، والصوم لا يراه إلا الله عز وجل فإنه عمل فى الباطن بالصبر الجرد ( والثانى ) أنه قهر أعدو الله عز وجل فإن وسيلة الشيطان الشهوات وإنما تقوى بالأكل والشرب ، وفى قمع عدو الله نصرته الله سبحانه ، ونصر الله تعالى موقوف على النصرة له ، قال تعالى : ( إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ) فمن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة وصار جنة ، وإذا عظمت فضيلته إلى هذا الحد فلا بد من بيان شروطه الظاهرة والباطنة بذكر أركانه وسننه وشروطه الباطنة .

الواجبات والسنن الظاهرة واللاوازم بإفساده

أما الواجبات الظاهرة فسنة :

( الأول ) مراقبة أول شهر رمضان ، وذلك برؤية الهلال فإن غم فاستكمال ثلاثين يوماً من شعبان ، ونعنى بالرؤية العلم ويحصل ذلك بقول عدل واحد ، ولا يثبت هلال شوال إلا بقول عدلين احتياطاً للعبادة ، ومن سمع عدلاً ووثق بقوله وغلب على ظنه لزمه الصوم وإن لم يقض القاضى به .

( الثانى ) النية ولا بد لكل ليلة من نية معينة جازمة يفوى فريضة صوم رمضان لله تعالى .

( الثالث ) الإمساك عن إيصال شيء إلى الجوف عمداً مع ذكر الصوم ، فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحقنة ولا يفسد بالفصد والحجامة والاكتحال وإدخال الميل في الأذن والإحليل وما يصل بغير قصد من غبار الطريق أو ذبابة تسبق إلى جوفه ، وما يسبق إلى جوفه في المضمضة فلا يفطر إلا إذا بالغ في المضمضة فيفطر لأنه مقصر ، وهو الذي أردنا بقولنا عمداً ، فأما ذكر الصوم فأردنا به الاحتراز عن الفاسي فإنه لا يفطر .

( الرابع ) الإمساك عن الجماع فإن جامع ناسياً لم يفطر ، وإن جامع ليلاً أو احتلم فأصبح جنباً لم يفطر .

( الخامس ) الإمساك عن الاستمناء وهو إخراج المنى قصداً بجماع أو بغير جماع ، فإن ذلك يفطر ، ولا يفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها ما لم ينزل ، لكن يكره ذلك إلا أن يكون شيخاً أو مالكا لإربه فلا بأس بالتقبيل وتركه أولى .

( السادس ) الإمساك عن إخراج القيء فالاستقاء يفسد الصوم وإن ذرعه القيء لم يفسد صومه ، وإذا ابتلع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى به إلا أن يبتلعه بعد وصوله إلى فيه فإنه يفطر عند ذلك .  
وأما لوازم الإفطار فأربعة :

القضاء ، والكفارة ، والفدية ، وإمساك بقية النهار تشبهاً بالصائمين .

أما القضاء فوجوبه عام على كل مسلم مكلف ترك الصوم بعذر أو بغير عذر ، فالحنث تقضى الصوم وكذا المرتد ، أما الكافر والصبي والمجنون فلا قضاء عليهم ولا يشترط التتابع في قضاء رمضان ولكن يقضى كيف شاء متفرقاً ومجموعاً ، وأما الكفارة فلا تجب إلا بالجماع ، وما عداه لا تجب به كفارة ، والكفارة عتق رقبة فإن أعسر فصوم شهرين متتابعين ، وإن هجز فأطعام ستين مسكيناً مداً مداً .

وأما إمساك بقية النهار فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه ، ويجب الإمساك إذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك ، والصوم في السفر أفضل من الفطر إلا إذا لم يطق .

وأما الفدية فتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفاً على ولديهما لكل يوم مد حنطة لمسكين واحد - مع القضاء ، والشيخ الهرم إذا لم يعم تصدق عن كل يوم مداً .

### سنن الصيام

تأخير السحور ، تعجيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة ، الجود في شهر رمضان ، مدارسة القرآن ، الاعتكاف في العشر الأخير ، ولا يخرج المعتكف إلا لحاجة الإنسان ، ولا بأس في المسجد بالطيب وعقد النكاح وبالأكل والنوم وغسل اليد في الطشت فكل ذلك قد يحتاج إليه .

### أنواع الصوم ودرجاته

اعلم أن الصوم ثلاث درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص . وأما صوم العموم فهو كيف البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق . وأما صوم الخصوص فهو كيف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام . وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن المهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكفاية .

### أسرار الصوم وشروطه الباطنة

هي ستة أمور : ( الأول ) غض البصر وكفه عن الانساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره وإلى كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله تعالى . ( الثاني ) حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء .

( الثالث ) كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه ولذلك سوى الله عز وجل بين السمع وأكل السحت فقال تعالى : ( سماعون للكذب آكلون للسحت ) .

( الرابع ) كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن المكروه وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار فلا معنى للصوم عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام : فمثال هذا الصائم مثال من يبني قصرًا ويهدم معصرًا . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والمعاش » فقيل هو الذي يفطر على الحرام ، وقيل هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام ، وقيل : هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام .

( الخامس ) أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ فإما من وعاء أبيض إلى الله عز وجل من بطن مليء من حلال . وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاتته ضحوة نهاره ، وربما يزيد عليه في ألوان الطعام حتى استمرت العادات بأن يدخر جميع الأطعمة لرمضان فيؤكل من الطعام فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر ، ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى ، وإذا منعت المعدة من ضحوة نهار إلى المساء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها . ثم أطعمت من اللذات وأشبعت ، زادت لذتها وتضاعفت قوتها وانبعثت من الشهوات ما عساه كانت راكدة لو تركت على عاداتها . فروح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور ، وإن يحصل ذلك إلا بالتقابل ؛ ومما جعل بين قلبه وبين صدره مخللة من الطعام فهو عن الملذات محبوب .

( السادس ) أن يكون قلبه بعد الإفطار مضطرباً بين الخوف والرجاء إذ ليس



يدري أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين وأيكن كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها .

### التطوع بالصيام

اعلم أن استحباب الصوم يتأكد في الأيام الفاضلة ، وفواضل الأيام بعضها يوجد في كل سنة وبعضها يوجد في كل شهر وبعضها يوجد في كل أسبوع ، أما السنة فبعد أيام رمضان فيوم عرفة ويوم عاشوراء والعشر الأول من ذي الحجة وكان صلى الله عليه وسلم يكثر صوم شعبان . وفي الخبر : « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم » لأنه ابتداء السنة فبناؤها على الخير أحب وأرجى لدوام بركته . وفي الخبر : « إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان » ولهذا يستحب أن يفطر قبل رمضان أياماً فإن وصل شعبان برمضان فحائز ، ولا يجوز أن يقصد استقبال رمضان بيومين أو ثلاثة إلا أن يوافق ورداً له : وكره بعض الصحابة أن يصام رجب كله حتى لا يضاهى بشهر رمضان .

وأما ما يتكرر في الشهر : فأول الشهر ، وأوسطه ، وآخره ، ووسطه الأيام البيض : وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر .

وأما في الأسبوع فالثلاثين والخميس والجمعة فيستحب فيها الصيام وتكثر الخير لتضاعف أجورها ببركة هذه الأوقات .

وإذ ظهرت أوقات الفضيلة فالكمال في أن يفهم الإنسان معنى الصوم وأن سره تصفية القلب وتفريج الهم لله عز وجل .

### كتاب أسرار الحج

جعل الله البيت العتيق مثابة للناس وأمناً ، وأكرمه بالنسبة إلى نفسه الشريفنا وتخصيتنا ومنا ، وجعل زيارته والطواف به حجاً باباً بين العبد وبين العذاب . والحج من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر ، وتمام الإسلام

وكمال الدين ، وأجدر بها أن تصرف العناية إلى شرحها وتفصيل أركانها وآدابها وفضائلها وأسرارها .

فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة

وشد الرحال إلى المساجد

قال الله عز وجل : ( وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كبل ضامن يأتين من كبل فجع عميق ) قال قتادة لما أمر الله عز وجل إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج نادى : « يا أيها الناس إن الله عز وجل بنى بيتا لحجوه » وقال صلى الله عليه وسلم : « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » ويروى : أن الكعبة تمشر كالعروس المزفوفة وكل من حجها متعلق بأستارها يسمون حولها حتى تدخل الجنة . وعن الحسن البصرى رضى الله عنه أن صدقة درهم فيها بمائة ألف — وكذلك كل حسنة بمائة ألف ويقال إن السيئات تضاعف بها كما تضاعف الحسنات ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة استقبل الكعبة وقال : « إنك خير أرض الله عز وجل وأحب بلاد الله تعالى إلى ولولا أنى أخرجت منك لما خرجت » .

وما بعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالأعمال فيها أيضا مضاعفة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » وبعد مدينته الأرض المقدسة . فإن الصلاة فيها بخمسمائة صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام . وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلا الثغور ، فإن المقام بها المرابح فيها فيه فضل عظيم — ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لا نشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » لا يشد الرحال بعد هذه المساجد الثلاثة متائلة ، ولا بلد إلا وفيه مسجد نلامنى للرحال إلى مسجد آخر .

شروط وجوب الحج وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته

(أما الشرائط) فشرط صحة الحج اثنان : الوقت والإسلام ، فيصح حج العبي ، ويحرم بنفسه إن كان مميزاً ، ويحرم عنه وإياه إن كان صنفراً ، يفعل به ما يفعل في الحج من الطواف والسعي وغيره . وأما الوقت فهو شوال ذو القعدة وتسع من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر ؛ فمن أحرم بالحج في غير هذه المدة فهي عمرة ، وجميع السنة وقت للعمرة . وأما شروط وقوعه عن حجة الإسلام ، فالبلوغ والعقل والوقت .

(وأما شروط لزومه) فالاستطاعة ، وهي نوعان : (أحدهما) المباشرة وذلك له سبب أما في نفسه فبالصحة ، وأما في الطريق فبأن تكون خصبة آمنة بلا بحر خطر ولا عدو قاهر ، وأما في المال فبأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه ، وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته في هذه المدة ، وأن يملك ما يقضى به ديونه ، وأن يقدر على راحة أو كرائها بمحمل أو زاملة وإن استمسك على الزاملة (وأما النوع الثاني) فالاستطاعة المعضوب بماله وهو أن يستأجر من يحج عنه بعد فراغ الأجير عن حجة الإسلام لنفسه ، ومن استطاع لزمه الحج وله التأخير وإن كان فيه على خطر ، فإن تيسر له ولو في آخر عمره سقط عنه ، وإن مات قبل الحج اتى الله عز وجل عاصياً بترك الحج ، وكان الحج في تركته يحج عنه وإن لم يوص كسائر ديونه ممن مات ولم يحج مع اليسار فأمره شديد عند الله تعالى . قال عمر رضي الله عنه لقد همت أن أكتب في الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلاً .

وعن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي ومجاهد وطاووس : ولو علمت رجلاً غنياً يحج عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ما صليت عليه ، وبعضهم كان له جارية سرفات ولم يحج فلم يصل عليه .

وأما الأركان التي لا يصح الحج دونها ، الخمسة : الإحرام ، والطواف ،  
والسعي بعده ، والوقوف بعرفة ، والخلق على قول .  
وأركان العمرة كذلك إلا الوقوف .

وأما وجوه أداء الحج والعمرة فتلاثة ( الأول ) الأفراد : وذلك أن يقدم الحج  
وحده فإذا فرغ خرج إلى الحل فأحرم واعتمر .

( الثاني ) القران : وهو أن يجمع فيقول : لبيك بحجة وعمرة فيصير  
محرمًا بهما ، ويكفيه أعمال الحج ، وتندرج العمرة تحت الحج ، وعلى القارن  
دم شاة إلا المكى .

( الثالث ) التمتع : وهو أن يجاوز الميقات محرمًا بعمرة ، ويتحلل بمكة ويتمتع  
بمحظورات الإحرام إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج ويلزمه دم شاة ، فإن لم يجد  
فصيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة ، وسبعة إذا رجع  
إلى الوطن .

وأما محظورات الحج أو العمرة فستة : ( الأول ) اللبس للقميص والسراويل  
والخف والعمامة ، بل يذنب أن يلبس إزاراً ورداء ونعلين ، ولا بأس بالمنطقة  
والاستظلال في الحمل ولكن لا يذنب أن يغطي رأسه ، والمرأة أن تلبس كل  
مخيط بعد أن لا تستر وجهها بما يماسه فإن إحرامها في وجهها ( الثاني ) الطيب  
فليجتنب كل ما يده المقلأ طيباً ، فإن تطيب أو لبس فعليه دم شاة ( الثالث )  
الخلق والقلم وفيهما الفدية ، أعنى دم شاة ، ولا بأس بالكحل ودخول الحمام  
والفصد والحجامة وترجيل الشعر ( الرابع ) الجماع ، وهو مفسد قبل التحلل الأول  
وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه وإن كان بعد التحلل الأول لزمته البدنة ولم يفسد  
حجه ( الخامس ) مقدمات الجماع كالقبلة والملاسة فهو محرم وفيه شاة ، ويحرم  
الفسكاح والإنكاح ولا دم فيه لأنه لا ينعقد ( السادس ) قتل صيد البر ، أعنى

ما يؤكل فإن قتل صيداً فعليه مثله من النعم يراعى فيه التقارب في الخلقة ،  
وصيد البحر حلال ولا جزاء فيه .

ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع

وهي عشر جعل

( الجملة الأولى في السير ) من أول الخروج إلى الإحرام وفيها مسائل :  
( الأولى في الماء ) وينبغي أن يبدأ بالتوبة ورد المظالم وقضاء الدين وإعداد  
النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع ، ويرد ما عنده من الودائع ،  
ويستصحب من الحلال الطيب ما يكفيه لذهابه وإيابه من غير تفكير ، بل على  
وجه يمكنه معه التوسع في الزاد والرفق بالضعفاء والفقراء ويتصدق بشيء قبل  
خروجه فإن اكترى فليظهر المكاري كل ما يريد أن يحمله من قليل أو كثير  
ليحصل رضاه فيه .

( الثانية في الرفيق ) ينبغي أن يلتمس رفيقاً صالحاً محبباً للخير مهيئاً عليه  
إن نسي ذكره وإن ذكر أعانته وإن جبن شجعه وإن هجز قواه وإن ضاق صدره  
صبره ، ويودع رفقاءه المقيمين وإخوانه وجيرانه فيودعهم ويأتمس أديعتهم ،  
والسنة في الوداع أن يقول : أستودع الله دينك وأمانتكم وخواتمكم ، وكان  
صلى الله عليه وسلم يقول لمن أراد السفر : « في حفظ الله وكفنه زودك الله التقوى  
وغفر ذنبك ووجهك الخير أينما كنت » .

( الثالثة في الخروج من الدار ) ينبغي إذا تم بالخروج أن يعلى ركعتين ،  
فإذا فرغ رفع يديه ودعا الله عن إخلاص وقال : اللهم أنت الصاحب  
في السفر والخليفة في الأهل والمال والولد والأصحاب ، احفظنا وإيامنا من  
كل آفة وعاهة ، اللهم إنا نسألك في مسيرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل  
الذي ترضى ، اللهم إنا نعوذ بك من وعشاء السفر وكآبة المنقاب وصوء المنظر  
في الأهل والمال والولد .

(الرابعة إذا حصل على باب الدار) قال : بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أذل أو أذل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي ، اللهم إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ، ولا رياء ولا سمعة ، بل خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، وقضاء فرضك ، واتباع سنة نبيك .

(الخامسة في الركوب) فإذا ركب قال : « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » .

الجملة الثانية في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة

(الأدب الأول) أن يغتسل وينوي به غسل الإحرام أعني إذا انتهى إلى الميقات الذي يحرم الناس منه ، ويتم غسله بالتنظيف ، ويسرح لحية ورأسه وبقلم أظفاره ويقص شاربه ويستكمل النظافة التي ذكرناها في الطهارة .

(الثاني) أن يفارق الثياب المخيطة ويلبس ثوبي الإحرام فيرتدى ويتزود بثوبين أبيضين ، ويتطيب في ثيابه وبدنه .

(الثالث) أن يصبر بعد لبس الثياب حتى تنبعث به راحلته إن كان راكباً أو يبدأ بالسير إن كان راجلاً فبعد ذلك ينوي الإحرام بالحج أو بالعمرة قراناً أو إفراداً كما أراد ويقول : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك ، بحجة حقاً تعبداً ورقاً ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد .

(الرابع) يستحب تجديد التلبية في دوام الإحرام خصوصاً عند اصطد الرفاق وعند اجتماع الناس وعند كل صعود وهبوط وعند كل ركوب ونزول رافعاً بها صوته بحيث لا يسمع حلقه فإنه لا ينادى أصم ولا غائباً - كما ورد الخبر ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا أحجبه شيء قال : « لبيك إن العيش عيش الآخرة » .

الجملة الثالثة في آداب دخول مكة إلى الطواف

يستحب أن يفتسل بذى طُوًى لدخول مكة ، وإذا وقع بعصره على البيت  
 يقول : لا إله إلا الله والله أكبر ، اللهم أنت السلام ومنك السلام ودارك  
 دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام . اللهم إن هذا بيتك عظمته وكرمه  
 شرفته ، اللهم فزده تشريفاً وتكريماً وزده مهابة وزد من حججه برأ وكرامة ،  
 اللهم افتح لي أبواب رحمتك وأدخلني جنتك وأعذني من الشيطان الرجيم ، ثم  
 لا يعرج على شيء دون الطواف - وهو طواف القدوم إلا أن يجد الناس في  
 المكتوبة فيصلح معهم ثم يطوف .

الجملة الرابعة في الطواف

فإذا أراد افتتاح الطواف إما للقدوم وإما لغيره فينبغي أن يراعى أموراً  
 ستة (الأول) أن يراعى شروط الصلاة من طهارة الحدث والخبث في الثوب  
 البدن والمطاف وستر العورة ، فالطواف بالبيت صلاة ، وإن كان الله سبحانه  
 الخ في الكلام ولا يضطبع قبل ابتداء الطواف ، وهو أن يجعل وسط رداءه  
 تحت إبطه اليميني ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر فيرخي طرفاً وراء  
 ظهره وطرفاً على صدره ، ويقطع القلبية عند ابتداء الطواف . ويشتمل  
 الأدعية المروية .

( الثاني ) إذا فرغ من الاضطباع فليجعل البيت على يساره وليقف عند  
 الحجر الأسود ، وليفتح عنه قليلاً ليكون الحجر قدامه فيمر بجميع الحجر  
 مع بدنه في ابتداء طوافه ، وليجعل بينه وبين البيت قدر ثلاث خطوات  
 تكون قريباً من البيت فإنه أفضل .

( الثالث ) أن يقول قبل مجاوزة الحجر بل في ابتداء الطواف بسم الله والله  
 أكبر : اللهم إيماناً بك ، وتصديقاً بكتابك ، ورفاء بعهدك ، واتباعاً لسنة نبيك  
 صلى الله عليه وسلم ، ويطوف .

(الرابع) أن يرمل في ثلاثة أشواط ويمشي في الأربعة الأخر على الهيئة المعتادة ، ومعنى الرمل الإسراع في المشي مع تقارب الخطا ، وهو دون العدو وفوق المشي المعتاد ، والمقصود منه ومن الاضطباع إظهار الشطارة والجلادة والقوة هكذا كان القصد أولاً قطعاً لطمع الكفار ، وبقيت تلك السنة ، والأفضل الرمل مع المدنو من البيت ، فإن لم يمكنه للزحمة فالرمل مع البعد أفضل ، فليخرج إلى حاشية المطاف ويرمل ثلاثاً ، ثم يقرب إلى البيت في المزدحم ولمش أربعاً ، وإن أمكنه استلام الحجر في كل شوط فهو الأحب ، وإن منعه الزحمة أشار باليد وقبل ، وكذلك استلام الركن اليماني يستحب من سائر الأركان .

(الخامس) إذا تم الطواف سبعمائة فليأت الملتزم وهو بين الحجر والباب وهو موضع استجابة الدعوة ويلتزم بالبيت وليرتقى بالأسفار ويلصق بطنه بالبيت وليضع عليه خده الأيمن وليبسط عليه ذراعيه وكفيه وليقل : اللهم يارب البيت العتيق أعتق رقبتى من النار ، اللهم هذا مقام العائذ بك من النار ، وليدع بحوائجه الخاصة ويستغفر من ذنوبه .

(السادس) إذا فرغ من ذلك ينبغي أن يصلى خلف المقام بركعتين وهم ركعتا الطواف ، وليدع بعد ركعتي الطواف وليقل : اللهم بسر لي اليسرى وجهبني اليسرى ، واغفر لي في الأخرى والأولى .

الجملة الخامسة في السعي

فإذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصفا فإذا انتهى إلى الصفا - وهو جبل - فيرق فيه درجاً في حضيض الجبل ثم يسعى بينه وبين المروة سبع مرات والطهارة مستحبة للسعي وليست بواجبة بخلاف الطواف .

الجملة السادسة في الوقوف وما قبله

الحاج إذا انتهى يوم عرفة إلى عرفات فلا يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف وإذا وصل قبل ذلك بأيام فطواف القدوم فيمكث محرماً إلى



اليوم السابع من ذى الحجة ، فيخطب الإمام بمكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة ويأمر الناس بالاستعداد للخروج إلى منى يوم التروية والمبيت بها ، وبالغدو منه إلى عرفة لإقامة فرض الوقوف بعد الزوال ، إذ وقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر : فينبغي أن يخرج إلى منى ملبياً ويمكث هذه هذه الليلة بمنى فإذا أصبح يوم عرفة صلى الصبح فإذا طلعت الشمس على ثبير جبل - سار إلى عرفات ، وليفتسل للوقوف ويجمع بين الظهر والعصر بأذان وإقامتين وقصر الصلاة ، وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتهاويل والثناء على الله عز وجل والدعاء والتوبة . ولا يصوم في هذا اليوم ليقوى على المواظبة على الدعاء ، ولا يقطع القلبية يوم عرفة بل الأحب أن يلبى تارة ويكب على الدعاء أخرى . وليدع بما بدا له ، وليستغفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات ، وليأصح في الدعاء ، وليعظم المسألة فإن الله لا يتعاضده شيء .

### الجملة السابعة في بقية أعمال الحج

إذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس فينبغي أن يكون على السكينة والوقار فإذا بلغ المزدلفة جمع بين المغرب والعشاء قاصراً لها بأذان وإقامتين ثم يمكث تلك الليلة بمزدلفة ويتزود الحصى منها ، ففيها أحجار رخوة فيأخذ سبعين حصاة فإنها بقدر الحاجة ثم لينفلس بصلاة الصبح وليأخذ في المسير حتى إذا انتهى إلى المشعر الحرام - وهو آخر المزدلفة - فيقف ويدعو إلى الإسفار . ثم يدفع منها قبل طلوع الشمس حتى ينتهي إلى موضع يقال له وادي محسر فيستحب له أن يحرك دابته حتى يقطع عرض الوادي . وإن كان راجلاً أسرع في المشى ، ثم إذا أصبح يوم النحر خاط القلبية بالكبير فيأبى تارة ويكب أخرى ، فينتهي إلى منى ومواضع الجمرات وهي ثلاثة ، فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر حتى ينتهي إلى جرة العقبة ، ويرى بعد طلوع الشمس سبع حصيات

حصيات رافعاً يده مستقبلاً القبلة أو الجرة قائلاً مع كل حصاة : الله أكبر على طاعة الرحمن وورغم الشيطان . اللهم تصديقاً بكتابك ، واتباعاً لسنة نبيك . ثم ليذبح الهدى إن كان معه - والأولى أن يذبح بنفسه وليقل : بسم الله والله أكبر ، اللهم منك وبك وإليك تقبل مني كما تقبلت من خليلك إبراهيم - والتضحية بالبدن أفضل ثم بالبقر ثم بالشاء ، والضأن أفضل من المعز ، والبيضاء أفضل من الغبراء والسوداء وليأكل منه إن كان من هدى التطوع ، ولا يضحين بالعرجاء والجدعاء<sup>(١)</sup> والمعجفاء<sup>(٢)</sup> ثم ليحلق بعد ذلك . ومهما حلق بعد رمي الجرة فقد حصل له التحلل الأول وحل له كل المحظورات إلا النساء والصيد . ثم يفيض إلى مكة ويطوف كما وصفناه ، وهذا الطواف طواف ركن في الحج ، ويسمى طواف الزيارة ، وأول وقته نصف الليل ليلة النحر ، وأفضل وقته يوم النحر ، ولا تحل له النساء إلى أن يطوف . فإذا طاف تم التحلل وحل الجماع وارتفع الإحرام بالسكينة ولم يبق إلا رمي أيام التشريق والمبيت بمنى ، وهي واجبات بعد زوال الإحرام على سبيل الاتباع للحج .

وأسباب التحلل ثلاثة : الرمي ، والحلق ، والطواف الذي هو ركن ؛ مهم أنى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين ، ولا حرج عليه في التقديم والتأخير بهذه الثلاث مع الذبح ، ولكن الأحسن أن يرمي ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف .

ثم إذا فرغ من الطواف عاد إلى منى للمبيت والرمي ، فببيت تلك الليل بمنى ، فإذا أصبح اليوم الثاني من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمي وقدم الجرة الأولى ورمى إليها بسبع حصيات ، فإذا تعداها وقف مستقبلاً القبلة

(١) أي المقطوعات الأذن .

(٢) المهزولة .

حمد الله تعالى وهال وكبر ودعا مع حضور القلب وخشوع الجوارح ، ثم يتقدم إلى الجرة الوسطى ويرمي كما رمى الأولى ويقف كما وقف الأولى ، ثم يتقدم إلى حرة العقبة ويرمي سبعمائة ، ويرجع إلى منزله ويبعث تلك الليلة بمنى ويصبح ، فإذا صلى الظهر في اليوم الثاني من أيام التشريق رمى في هذا اليوم إحدى وعشرين حصاة كالتي رمى في اليوم الأول - ثم هو خير بين المقام بمنى وبين العودة إلى مكة - فإن خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شيء عليه وإن صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمى يوم النحر الثاني إحدى وعشرين حجراً كما سبق ، وفي ترك المبيت والرمي إراقة دم وله أن يزور البيت ليأبى منى بشرط أن لا يبيت إلا بمنى ، ولا يتركن حضور الفرائض مع الإمام مسجد الخيف فإن فضله عظيم .

#### الجملة الثامنة في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع

من أراد أن يعتمر قبل حجه أو بعده فليغتسل ويلبس ثياب الإحرام كما سبق في الحج ، ويحرم بالعمرة من ميقاتها أو ينوي العمرة ويأبى ويصلي ركعتين ويدعو بما شاء ، ثم يعود إلى مكة وهو يلبى حتى يدخل المسجد الحرام ، فإذا دخل المسجد ترك التلبية وطاف سبعمائة كما وصفنا ، فإذا فرغ حلق رأسه وقد تمت عمرته ، والمقيم بمكة ينبغي أن يكثر الاعتمار والطواف ، ولا يكثر شرب ماء زمزم ولا يرتو منه حتى يشبع .

#### الجملة التاسعة في طواف الوداع

مهما عن له الرجوع إلى الوطن بعد الفراغ من إتمام الحج والعمرة ، فليفتجزه أشغاله وليشد رحاله ، وليجعل آخر أشغاله وداع البيت ، ووداعه بأن يرف به سبعمائة كما سبق ولا يركن من غير رمل واضطباع ، فإذا فرغ منه ركعتين خلف المقام وشرب من ماء زمزم ، ثم يأتي الملتزم ويدعو ويقضه اللهم أصحبنى العافية في بدنى ، والعصمة في ديني وأحسن منقلبي ،

وارزقنی طاعتک أبداً ما أبقيتني ، واجمع لي خير الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير .

الجملة العاشرة في زيارة المدينة وآدابها

من قصد زيارة المدينة فليصل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريقه كثيراً ، وليغتسل قبل الدخول ، وليتطيب ويلبس أنظف ثيابه ، فإذا دخلها فليدخلها متواضعاً معظماً ويقصد المسجد ويصلي فيه بحضبة المنبر ركعتين ، ثم يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيقف عند وجهه ، وذلك بأن يستدير القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع من السارية التي في زاوية جدار القبر ، وليس من السنة أن يمس الجدار ولا أن يقبله فإن المس والتقبيل للمشاهدة عادة النصارى واليهود بل الوقوف من بعد أقرب للاحترام فيقف ويقول : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا نبي الله ، السلام عليك يا أمين الله ، السلام عليك يا حبيب الله ، السلام عليك يا صفوة الله ، السلام عليك يا أبا القاسم ، السلام عليك يا سيد المرسلين ، السلام عليك يا خاتم النبيين ، السلام عليك يا رسول رب العالمين ، السلام عليك يا قائد الخير ، السلام عليك يا فاتح البر ، السلام عليك يا نبي الرحمة ، السلام عليك يا هادي الأمة ، السلام عليك وعلى أهل بيتك وأصحابك الطيبين ، جزاك الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته صلى عليك أفضل وأكمل ما صلى على أحد من خلقه كما استنقذنا بك من الضلالة وبصرنا بك من العمية وهدانا بك من الجهالة ، أشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت عدوك وهديت أمتك وعهدت ربك حتى أتاك اليقين ، فصلي الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وسلم وشرف وكرم وعظم ، ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ثم يتأخر قدر ذراع أيضاً ويسلم على الفاروق عمر رضي الله عنه ، ويقول : السلام عليكما يا وزيرَي رسول الله صلى الله عليه وسلم

والمعاونين له على القيام بالدين ما دام حياً والقائمين في أمته بعده بأمر الدين  
تبعان في ذلك آثاره ، وتعملان بسنته فجزا كما الله خير ما جزى وزيرى نبي  
عن دينه ، ثم يأتي الروضة فيصلى فيها ركعتين ويكثر من الدعاء ما استطاع ،  
ويستحب له أن يأتي أحداً ويزور قبور الشهداء ، وأن يأتي البقيع ويزور خياره ،  
وأن يأتي مسجد قباء في كل سبت ويصلى فيه ، وإن أمكنه الإقامة بالمدينة مع  
مراعاة الخدمة فإنها فضل عظيم ، ثم إذا عزم على الخروج من المدينة فيستحب أن  
يأتي القبر الشريف ويعيد دعاء الزيارة ويسأل الله تعالى أن يرزقه العودة إليه ،  
ثم يصلى ركعتين في الروضة فإذا خرج فليخرج رجله اليسرى ثم اليمنى وابتعد  
على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدر عليه .

سنن الرجوع من السفر

يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول : لا إله إلا الله  
وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، آيبون تائبون  
عابدون ساجدون لربنا حامدون ، فإذا أشرف على مدينته يحرك الدابة ويرسل  
إلى أهله من يخبرهم بقدمه كيلا يقدم عليها بفتة ، ولا ينبني أن يطرق أهله  
ليلاً ، وإذا دخل البلدة فليقصد المسجد أولاً وليصل ركعتين ، وإذا استقر في  
منزله فلا ينبني أن ينسى ما أنعم الله به عليه من زيارة حرمه وقبر نبيه صلى الله  
عليه وسلم ، فيكفر تلك النعمة بأن يعود إلى الغفلة واللهم والخرس في المعاصي  
فما ذلك علامة الحج المبرور بل علامة أن يعود راغباً في الآخرة متأهباً للقاء رب  
البيت بعد لقاء البيت .

الباب الثالث في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

دقائق الآداب - وهي سبعة

(الأول) أن تكون النفقة حلالاً والهم مجرداً لله تعالى وتمظيم شعائره ،  
وأن حج عن غيره فينبني أن يكون قصده زيارة بيت الله تعالى ومعاونة أخيه

المسلم بإسقاط الفرض عنه لا أن يتخذ ذلك مكسبه ومتجره ليقوم بالدين إلى الدنيا فيطلب الدنيا بعمل الآخرة بل ليقوم بالدنيا إلى الدين أي الممكن من الحج والزيارة فيه .

( الثاني ) التوسع في الزاد وطيب النفس بالبذل والإنفاق من غير تقدير ولا إسراف بل على الاقتصاد ، وبذل الزاد في طريق الحج نفقة في سبيل الله عز وجل ، قال ابن عمر : من كرم الرجل طيب زاده في سفره .

( الثالث ) ترك الرفث والفسوق والجدال كما نطق به القرآن ( والرفث ) اسم جامع لكل لغو وفحش من الكلام ، ويدخل فيه مغازلة النساء ومداعبتهم والتحدث بشأن الجماع ومقدماته فإن ذلك يهيج داعية الجماع المحظور والداعى إلى المحظور محظور ( والفسق ) اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عز وجل ( والجدال ) هو المبالغة في الخصومة والمارة يورث الضغائن ويناقض حسن الخلق ، فلا ينبغي أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله وعلى غيرهم من أصحابه ، بل يابن جانبه ويخفض جناحه للأسائر إلى بيت الله عز وجل ، ويلزم حسن الخلق ، وليس حسن الخلق كلف الأذى بل احتمال الأذى .

( الرابع ) أن يجتنب زى المترفين المتكبرين ، فلا يميل إلى أسباب التفاخر والتكاثر فيكتب في ديوان المتكبرين ويخرج عن حزب الصالحين ، وفي الحديث : « إنما الحاج الشعث التفث » يقول الله تعالى : ( ثم ليقتضوا تفثهم ) والتفث : الشعث والاغبرار ، وقضاؤه : بالخلق وقص الشارب والأظفار .

( الخامس ) أن يرفق بالدابة فلا يحملها ما لا تطيق ، ولا يقف عليها الوقوف الطويل ، وينزل أحياناً عنها إحساناً إليها .

( السادس ) أن يتقرب بإراقة دم وإن لم يكن واجباً عليه ويجتهد أن يكون من سمين النعم ونفيسه وليأكل منه إن كان تطوعاً ، وليس المقصود

اللحم إنما المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيتها بجمال التعظيم  
 عز وجل : ( ان يقال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ) .

( السابع ) أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهدي ، وبما أصابه من  
 خسران ومصيبة في مال أو بدن . إن أصابه ذلك فله بكل أذى احتمله وخسران  
 أصابه ثواب ؛ فلا يضيع منه شيء عند الله عز وجل . ويقال من علامة قبول الحج  
 ترك ما كان عليه من المعاصي ، وأن يتبدل بإخوانه البطالين إخواناً صالحين ،  
 وبمجالس اللهو والغفلة بمجالس الذكر واليقظة .

طريق الاعتبار بأعمال الحج الباطنة والتذكر لأمرها ومعانيها

في كل واحد من أعمال المناسك تذكرة المتذكر وعبرة للمعتبر إذا انفتح بابها  
 انكشف لكل خارج أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وغزارة فهمه ، وقد شرف  
 الله البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه ونصبه مقصداً لعباده وجعل ما حواليه حرماً  
 لهيته تفخيماً لأمره ، وأكده حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره ، ووضع على  
 مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ، ومن كل أوب سحيق شعفاً  
 غيراً متواضعين لرب البيت خضوعاً لجلاله — مع الاعتراف بتزويجه عن أن  
 يحويه بيت أو يكلفه بلد ليكون ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم وأتم في إذعانهم  
 وانقيادهم ، وفي الإحرام والقلبية إجابة نداء الله عز وجل ، وفي دخوله مكة تذكر  
 الانتهاء إلى حرم الله فليخش أن لا يكون أهلاً للقرب وإبرج الرحمة ، وفي مشاهدة  
 البيت إحضار عظمة البيد في القلب وتقدير مشاهدته لرب البيت لشدة  
 عظيমে إياه ، وفي الطواف بالبيت تشببه بالملائكة المقربين الحائزين حول  
 عرش الطائفين — وله وما المقصد طواف الجسم بل طواف القلب بذكر  
 الله ، وفي التعلق بأستار الكعبة والاتصاف بالملتزم طلب القرب حباً وشوقاً  
 إلى رب البيت ، وتبركاً بالمماساة والإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان

كالذنب المتعلق بثياب من أذنب إليه المتضرع إليه في عفوه عند المظهر له أنه  
 لا ملجأ له منه إلا إليه وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعمو عنه ، وفي السعي بين الصفا  
 والمروة مضاهاة تردد العبد بفناء الملك جائياً وذاهباً مرة بعد أخرى إظهاراً للخلاص  
 في الخدمة ورجاء للملاحظة بعين الرحمة كالذي دخل على الملك وخرج وهو  
 لا يدري ما الذي يقضى به الملك في حقه من قبول أو رد . فلا يزال يتردد على  
 فناء الدار مرة بعد أخرى ، يرجو أن يرحم في الثانية إن لم يرحم في الأولى .  
 وفي الوقوف بعرفة ورؤية ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات باختلاف اللغات  
 تذكر اجتماع الأمم في عرصات القيامة ، وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد  
 والقبول ، وفي تذكر ذلك إلزام القلب الضراعة والابتهاال إلى الله عز وجل ،  
 ورجاء الحشر في زمرة الفائزين المرحومين وتحقيق الرجاء بالإجابة ، فالموقف  
 شريف ، والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب  
 النقية ولا ينفك الموقف عن طبقات من الصالحين وأرباب القلوب ، فإذا اجتمعت  
 همهم وتجردت للضراعة والابتهاال قلوبهم ، وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم  
 وامتدت إليه أعناقهم وشخصت نحو السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على  
 طلب الرحمة فلا تظنن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة  
 تغمرهم . وفي رمي الجمار انقياد للأمر إظهاراً للرق والمبودية وقصد رمي وجوه  
 الشيطان وقسم ظهره ، وفي زيارة المدينة ومشاهدتها تذكر أنها البلدة التي اختارها  
 الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم وجعل إليها هجرته وأنها داره التي نزل  
 فيها فرائض ربه عز وجل وسننه وجاهد عدوه وأظهر بها دينه إلى أن توفاه الله  
 عز وجل وأنها العرصة التي اختارها الله سبحانه لنبيه ولأول المسلمين وأفضلهم  
 عصاة ، وأن فرائض الله سبحانه أول ما أقيمت في تلك العرصة ، وأنها جمع  
 أفضل الخلق حياً وميتاً صلى الله عليه وسلم ، وشرف وكرم .



## كتاب آداب تلاوة القرآن

قد امتن الله على عباده بنبيه المرسل ، وكتابه المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حتى اتسع على أهل الافتكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار ، واتضح به سلوك المنهج القويم والعراط المستقيم ، بما فصل فيه من الأحكام ، وفرق بين الحلال والحرام ، فهو الضياء والنور ، وبه النجاة من الغرور ، وفيه شفاء لما في الصدور ، من تمسك به فقد هدى ، ومن عمل به فقد فاز ، قال تعالى : ( إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ) ومن أسباب حفظه في القلوب والمصاحف ، استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بآدابه وشروطه . والمحافظة على [ ما أمر به ] من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة . وذلك ما لا بد من بيانه وتفصيله .

### فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته

قال صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظمه الله تعالى » وقال صلى الله عليه وسلم : « أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن » وقال صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » وقال ابن مسعود : إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين ، وقال عمرو بن العاص : من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه .

وقد جاء في ذم تلاوة الغافلين قوله صلى الله عليه وسلم : « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه » وقوله صلى الله عليه وسلم : « إقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك استقرؤه » وقال أنس : « رب تال للقرآن والقرآن يلعبه » وقال ابن مسعود : أنزل القرآن ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً ، إن أحدكم أيقراً القرآن من ناله إلى خاتمه ما يسقط منه حرفاً وقد أسقط العمل به » وقال بعض العلماء :

إن العبد لیتلو القرآن فیلمن نفسه وهو لا یعلم یقول : ( ألا لعنة الله علی الظالمین )  
وهو ظالم نفسه ، ( ألا لعنة الله علی الكاذبین ) وهو منهم .

### ظاهر آداب التلاوة

( الأدب الأول فی حال القاریء ) وهو أن یكون علی الضوء واقفاً علی هیئته  
الأدب والسكون إما قائماً وإما جالساً مستقبلاً القبلة مطرفاً رأسه غیر متردداً  
ولا متکبئ ولا جالساً علی هیئته التکبر ، فإن قرأ علی غیر ضوء أو كان  
مضطجعاً فی الفراش فله أيضاً فضل ولكنه دون ذلك ، قال الله تعالی : ( الذین  
یذکرون الله قیاماً وقعوداً وعلی جنوبهم ویتنفکرون فی خلق السموات  
والأرض ) فأثنی علی السکل ، ولکن قدم القیام فی الذکر ، ثم القعود  
الذکر مضطجعاً .

( الثانی فی مقدار القراءة ) وللقراءة عادات مختلفة ، فی الاستکثار  
والاختصار ، والمأثور عن عثمان وزید بن ثابت وابن مسعود وأبی بن کعب  
رضی الله عنهم أنهم كانوا یختمون القرآن فی کل جمعة یقسمونه سبعة أحزاب  
( الثالث الترتیل ) هو المستحب فی هیئته القرآن لأننا سنبین أن المقصود  
القراءة التفسیر ، والترتیل معین علیه ، ولذلك نعقت أم سلمة رضی الله عنها  
قراءة رسول الله صلی الله علیه وسلم فإذا هی تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً .  
ابن عباس رضی الله عنهما : لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلها وأتدبرها أحزاباً  
إلی من أن أقرأ القرآن كله هذرمه . وجلی أن الترتیل والتؤدة أقرب إلى التؤدة  
والاحترام ، وأشد تأثيراً فی القلب من الهذرمه والاستعجال .

( الرابع البكاء ) وهو مستحب مع القراءة ، ومنشؤه الحزن ، وذلك أن یتم  
ما فیه من التهید والوعید ، والمواثیق والعمود ، ثم یقامل تقصيره فی أو  
وزواجره ، فیمحزن لاجحالة ویبکی .

(الخامس) أن يراعى حق الآيات ، فإذا مر بآية سجدة سجد ، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد إذا سجد التالي ، ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة ، وقد قيل في كمالها إنه يكبر رافعاً يديه لتحريره ، ثم يكبر للهوى للسجود ثم يكبر للارتفاع ، ثم يسلم .

(السادس) أن يقول في مبتدأ قراءته : أحمذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تسبيح سبح وكبر ، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر ، وإن مر بمرجو سأل ، أو بمخوف استعاذ ، يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه .

(السابع) الإسرار بالقراءة أبعد عن الرياء والتصنع ، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه ، فإن لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش على محل ، فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر ، ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر فيه ، ولأنه يطرد النوم في رفع الصوت ويزيد في نشاطه للقراءة ويقال من كسله ، فمتى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل .

(الثامن) تحسين القراءة وترتيبها من غير تمطيط وفرط يغير النظم فذلك سنة ، وفي الحديث : « زينوا القرآن بأصواتكم » وفي آخر : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » فقيل : أراد به الاستغناء ، وقيل : أراد به التزم وترديد الألحان به وهو أقرب نهراً عند أهل اللغة ، واستمع صلى الله عليه وسلم إلى قراءة أبي موسى فقال : « لقد أوتى هذا من مزامير آل داود » ويروى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن .

أعمال الباطن في التلاوة ، وهي سبعة

(الأول) فهم عظمة الكلام وعلوه ، وفضل الله سبحانه وتعالى واطفه بخاقه إيصال كلامه إلى أفهام خلقه .

( الثاني ) التعميم المتكلم ، فالقارىء عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر ، وإن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله ، فإذا حضر بباله العرش والكرسى والسماوات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد ، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته ، وبين نعمته وسخطه ، إن أنعم فبفضله ، وإن عاقب فبعدله ، فبالفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ، ثم تعظيم الكلام .

( الثالث ) حضور القلب وترك حديث النفس والتجرد له عند قراءته ، ومصرف الهم إليه عن غيره : كان بعض السلف إذا قرأ السورة ولم يكن قلبه فيها أعادها ثانية ، وهذه الصفة تقولد عما قبلها من التعظيم ، فإن المعظم للكلام الذي يتلوه ويستبشر به ويستأنس لا يغفل عنه ، وفي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلا له فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره .

( الرابع ) التدبر ، وهو وراء حضور القلب ، فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره ، والمقصود من القرآن التدبر ، ولذلك سن فيه الترتيل ، لأن الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن . قال علي رضي الله عنه : « لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها » وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بتريده فليردد إلا أن يكون خلف إمام ، وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قام ليلة بأية يرددها .

( الخامس ) التفهم ، وهو أن يستوضح عن كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل وذكر أفعاله ، وذكر أحوال الأنبياء وأحوال المكذبين لهم ، وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره ، وذكر الجنة والنار ، أما صفات الله عز وجل فكقوله : ( ليس كمثل شيء وهو

السميع البصير) وكقوله تعالى: (القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر) فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات ليعكشف له أسرارها، وأما أفعاله تعالى فكذلك خلق السموات والأرض وغيرها فليفهم التالي منها صفات الله عز وجل، إذ الفعل يدل على الفاعل، فتدل عظمته على عظمته، فينبغي أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل، فمن عرف الحق رآه في كل شيء، ولهذا ينبغي إذا قرأ التالي قوله عز وجل: (أفرايتم ما تحرثون. أفرايتم ما تمهون. أفرايتم الماء الذي تشربون. أفرايتم النار التي تورون) فلا يقصر نظره على الماء والنار والحلث والمني، بل يتأمل في المنى وهو نطفة متشابهة الأجزاء، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والمصعب، وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقاب وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجمل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى: (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) فتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى أعجب العجائب وهو الصنعة التي منها صدرت، فلا يزال ينظر إلى الصنعة ويرى الصانع، وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام، فإذا سمع منها أنهم كذبوا وضربوا وقتل بعضهم، ثم سمع نصرتهم في آخر الأمر فهم قدرة الله عز وجل وإرادته لنصرة الحق، وأما أحوال المكذبين كعاد وتمود وما جرى عليهم، فليكن فهمه منه استشمار الخوف من سطوته ونقمة، وليكن حفظه منه الاعتبار في نفسه.

(السادس) التغلّي عن مواقع الفهم، فإن أكثر الناس منعوا عن فهم القرآن لأسباب وحجب أسد لها الشيطان على قلوبهم، فعصيت عليهم عجائب أسرار القرآن، ومن حجب الفهم أن يكون لهم منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها عن مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليعرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل، فلا يزال يحملهم على ترديد الحروف يخيل إليهم أنه لم يخرج

من مخرجه ، فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف فإني تنكشف له المعاني ، وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس .

( السابع ) التخصيص : وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهى والمأمور ، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكذلك ، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء وعلم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود أن تعبره وتأخذ من بضاعته ما تحتاج إليه ، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي صلى الله عليه وسلم وأمة ، ولذلك قال تعالى : ( ما نثبت به فؤادك ) فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى . وكيف لا يقدر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لرسول الله خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين ، ولذلك أمر الله تعالى الكفاة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى : ( واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ) وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد كما قال تعالى : ( لأنذركم به ومن بلغ ) قال محمد القرظي : من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله . وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه ليقامله ويعمل بمقتضاه . ولذلك قال بعض العلماء : هذا القرآن رسائل أتينا من قبل ربنا عز وجل بمهوده ، نتدبرها في الصلوات وننفذها في الطاعات .

( الثامن ) لتأثر : وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة ، بحسب اختلاف الآيات ، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره ، ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فإن التضييق غالب على آيات القرآن ، فلا ترى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط

يقصر العارف عن نيلها كقوله عز وجل : ( وإني لغفار ) ثم أتبع ذلك بأربعة شروط : ( لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ) وقوله تعالى : ( والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ) ذكر أربعة شروط ، وحيث اقتصر ذكر شرطاً جامعاً ؛ فقال تعالى : ( إن رحمة الله قريب من المحسنين ) فالإحسان يجمع الكل — وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره . ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حاله انطسية والحزن ، وإلا كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه في قوله تعالى : ( ألا لعنة الله على الظالمين ) وفي قوله تعالى : ( كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ) وفي قوله : ( فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ) وفي قوله تعالى : ( ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ) إلى غير ذلك من الآيات فالقرآن يراد للعمل به .

وأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى وتلاوة القرآن حتى تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب : فحفظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيب — وحفظ العقل تفسير المعاني — وحفظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والاثمار . فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ .

## كتاب الأذكار والدعوات

### فضيلة الذكر

من الآيات قوله سبحانه وتعالى : ( فاذكروني أذكركم ) وقال تعالى : ( اذكروا الله ذكراً كثيراً ) وقال تعالى : ( الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ) وقال تعالى : ( فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ) وقال ابن عباس أي بالليل والنهار في البر والبحر والسفر والحضر واللفظي والفقر والمرض والصحة والسر والعلانية . وقال تعالى : ( واذكر ربك في

نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدر والأصال ولا تكن من الغافلين) وقال تعالى في ذم المنافقين : ( ولا يذكرون الله إلا قليلاً ) .

ومن الأخبار قوله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفقتاه » وقال صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن يرتفع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل » وسئل صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أفضل فقال : « أن تموت ولسانك رطب بذكر الله عز وجل » وقال صلى الله عليه وسلم : « قال الله تبارك وتعالى إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي ، وإذا ذكرني في ملاء ذكرته في ملاخي من ملئه ، وإذا تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً » الحديث .

ومن الآثار قول الحسن : الذكر ذكران ذكر الله عز وجل بين نفسك وبين الله عز وجل ما أحسنه وأعظم أجره - وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند ما حرم الله عز وجل .

### فضيلة مجالس الذكر

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكروا الله تعالى فيمن عنده »

### فضيلة التهايل

قال صلى الله عليه وسلم : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة » الحديث .

### فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار

قال صلى الله عليه وسلم : « من سبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وثلاثاً وثلاثين وكبر ثلاثاً وثلاثين وختم المائة بـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له



له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه « وقال صلى الله عليه وسلم :  
 « من قال سبحان الله وبحمده في اليوم مائة مرة حطت خطاياها » وقال صلى الله  
 عليه وسلم : « أحب الكلام إلى الله تعالى أربع : سبحان الله والحمد لله ولا إله  
 إلا الله والله أكبر لا يضرك بأيمن بدأت » وقال صلى الله عليه وسلم : « كلمتان  
 خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : « سبحان الله  
 وبحمده سبحان الله العظيم » .

### سر فضيلة الذكر

إن قلت ما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار  
 أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقة فيها — فاعلم أن تحقيق هذا  
 لا يليق إلا بعلم المكاشفة ، والقدر الذي يسمح بذكره في علم المعاملة أن المؤثر  
 الدافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو في أكثر  
 الأوقات هو المقدم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة  
 العبادات العملية . ولذا ذكر أول وآخر : فأوله يوجب الأنس والحب ، وآخره  
 يوجب الأنس والحب ويصدر عنه ، والمطلوب ذلك الأنس والحب .

### فضيلة الدعاء

قال الله تعالى : ( وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع  
 إذا دعان فليستجيبوا لي ) وقال تعالى : ( ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب  
 المعتدين ) وقال تعالى : ( وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ) وقال تعالى :  
 ( قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ) وقال صلى الله  
 عليه وسلم : « الدعاء منج العباداة » وقال صلى الله عليه وسلم : « سلوا الله تعالى  
 من فضله فإنه تعالى يحب أن يسأل وأفضل العباداة انقظار الفرج » .

آداب الدعاء وهي عشرة

( الأول ) أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة : كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل قال تعالى : ( وبالأسحار هم يستغفرون ) .

( الثاني ) أن يفتنم الأحوال الشريفة : كحال زحف الصفوف في سبيل الله تعالى ، وعند نزول الغيث ، وعند إقامة الصلوات المكتوبة ، وخلف الصلوات وبين الأذان والإقامة ، وحالة السجود ، وبالْحَقِيقَةُ يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً ، إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات ، ويوم عرفة ، ويوم الجمعة وقت اجتماع المهم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل .

( الثالث ) أن يدعو مستقبلاً القبلة : ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه ثم ينبغي أن يمسح بهما وجهه في آخر الدعاء ، قال عمر رضي الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه . وقال ابن عباس : كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه ، فهذه هي آيات اليد ، ولا يرفع بصره إلى السماء .

( الرابع ) خفض الصوت بين الخفاضة والجهر : قالت عائشة في قوله تعالى : ( ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ) أي بدعائك : وقد أثنى تعالى على نبيه زكريا عليه السلام حيث قال : ( إذ نادى ربه نداء خفياً ) وقال تعالى : ( ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ) .

( الخامس ) أن لا يتكلف السجع في الدعاء : والأولى ألا يجاوز الدعوات المأثورة ، فإنه قد يمتدى في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه الحاجة . فما كل أحد يحس الدعاء .

(السادس) التضرع والخشوع والرغبة والرهبة : قال تعالى : ( ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ) .

(السابع) أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يقل أحدكم إذا دعا اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت العزم المسألة فإنه لا مكره له » وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتماظمه شيء » وقال صلى الله عليه وسلم : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل » .

(الثامن) أن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثاً وأن لا يستبطئ الإجابة .

(التاسع) أن يفتح الدعاء بذكر الله تعالى ، ولا يبدأ بالسؤال ، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويحتمم بها أيضاً .

(العاشر) وهو الأدب الباطن : وهو الأصل في الإصابتة - التوبة ورد المظالم ، والإقبال على الله عز وجل بكنه الهمة - فذلك هو السبب الغريب في الإجابة .

فضيلة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى : ( إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا

عليه وسلموا تسليماً ) وقال صلى الله عليه وسلم : « من صلى علي من أمتي كتب له

عشر حسنات ، وقيل يا رسول الله : كيف نصلي عليك ؟ فقال : « قولوا اللهم صل

على محمد عبدك وعلى آله وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم

وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم

ذلك حميد مجيد » وروى أن عمر رضي الله عنه سمع بعد موت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يبكي ويقول : بأبي وأمي أنت يا رسول الله ، لقد بلغ من

عبيتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته ، فقال عز وجل : ( من يطع

رسول فقد أطاع الله ) بأبي وأمي يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك

عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذنب ، فقال تعالى : ( عفا الله  
 عنك لم أذنت لهم ) بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن  
 أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون  
 ( يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول ) بأبي أنت وأمي يا رسول الله لئن كان موسى  
 أعطاه الله حجراً تنفجر منه الأنهار فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع من  
 الماء صلى الله عليك ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لئن كان سليمان أعطاه  
 الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، فماذا بأعجب من البراق حين سرت عليه  
 إلى السماء السابعة ، ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك ، بأبي  
 أنت وأمي يا رسول الله ، لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فماذا  
 بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهي مشوية ، فقالت لك الذرارة  
 لا تأكلني فإني مسمومة ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد اتبعك في  
 سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحاً في كثرة سنة وطول عمره ولقد آمن بملك  
 الكثير وما آمن معه إلا القليل ، ولقد لبست الصوف ، وركبت الحمار  
 وأردفت خلفك ، ووضعت طعامك على الأرض ، ولعقت أصابعك نواضحاً منها  
 فصلى الله عليك وسلم .

### فضيلة الاستغفار

قال الله عز وجل : ( والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا  
 فاستغفروا لذنوبهم ) ، وقال تعالى : ( ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر  
 الله يمد الله غفوراً رحيماً ) وقال تعالى : ( فسبح بحمد ربك واستغفره إنه  
 تواباً ) ، وقال تعالى : ( والمستغفرين بالأسحار ) ، وقال تعالى : ( كانوا قد  
 من الليل ما يهجمون وبالأسحار هم يستغفرون ) ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول  
 أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم  
 وقال صلى الله عليه وسلم : « من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل فرس

ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب » ، وقال صلى الله عليه وسلم :  
 « إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة » وكان صلى الله  
 عليه وسلم يقول في الاستغفار : « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت  
 وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء  
 قدير » وعن الفضيل رحمه الله : استغفار بلا إقلاع توبة الكذابين ، وعن  
 الزبابة العدوية رحمه الله : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير .

وأما أوراد الصباح والمساء وخلف الصلوات وفي السحر ، فلنا فيها كتاب  
 مستقل فليرجع إليه من أحب ذلك .

### آداب النوم

( الأول ) الطهارة والسواك ( الثاني ) أن يعد طهوره وسواكه وينوي القيام  
 لعبادة عند التيقظ ( الثالث ) أن لا يبيت من له وصية إلا ووصيته مكتوبة عند  
 رأسه فإنه لا يأمن القبض من النوم ( الرابع ) أن ينام تائباً من كل ذنب سلم  
 القلب لجميع المسلمين لا يحدث نفسه بظلم أحد ولا يعزم على معصية إن استيقظ  
 ( الخامس ) أن يقتصد في تمهيد الفرش الناعمة ( السادس ) أن لا ينام ما لم يغلبه  
 النوم ولا يتكلف استجلابه إلا إذا قصد به الاستعانة على القيام في آخر الليل  
 ( السابع ) أن ينام مستقبلاً القبلة ( الثامن ) الدعاء عند النوم بما ورد ، ومنه  
 قراءة الإخلاص والمعوذتين وينفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده  
 وآية الكرسي والتسبيح ثلاثاً وثلاثين والتحميد كذلك والتكبير كذلك  
 ( التاسع ) أن يتذكر عند النوم أن النوم نوع وفاته والتيقظ نوع بعث وليتحقق  
 حاله يتوفى على ما هو الغالب عليه من حب الله وحب لقائه أو حب الدنيا ويمشرك  
 على ما يتوفى عليه ( العاشر ) الدعاء عند التنبه وليقل أولاً : الحمد لله الذي أحيانا  
 إذا ماتنا وإليه النشور : ثم ليقرأ خواتم آل عمران « إن في خالق السموات  
 أرض » الآيات ، وليسبح عشراً وليحمد كذلك وليكبر كذلك وليهمل

كذلك ، قالت عائشة رضی اللہ عنہا كان صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته ، قال : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » ، ثم يفتتح الصلاة ويصلي ركعتين خفيفتين ، ثم يصلي مثنى مثنى ما تيسر له ويحتج بالوتر إن لم يكن قد صلى الوتر ، وكان ربما جهر بالقراءة وربما أسر وأكثر ما ضاع عنه في قيام الليل ثلاث عشرة ركعة .

### بيان أن الأوراد المتجردة للعبادة

اعلم أن الأوراد والأذكار المروية والوظائف الاليلية والنهارية ، إنما تستعمل للمتجرد للعبادة الذي لا شغل له غيرها أصلاً بحيث لو ترك العبادة لجلس بطالاً وأما العالم الذي ينفع الناس بعلمه في فتوى أو تدريس أو تصنيف فترتيبه الأوراد يخالف ترتيب العباد فإنه يحتاج إلى المظالمه للكتب وإلى التصنيف والإفادة ويحتاج إلى مدة لها لا محالة ، فإن أمكنه استغراق الأوقات فيه فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات وروايتها ، ويدل على ذلك ما ذكرناه في فضيلة التعليم والتعلم في كتاب العلم وكيف لا يكون كذلك ، وفي العلم المواظبة على ذكر الله تعالى ، وتأمل ما قال الله تعالى وقال رسوله ، وفيه منفعة الخلق وهدايتهم إلى طريق الآخرة ، ورب مسألة واحدة يتعلمها المتعلم فيصالح به عبادة عمره ولو لم يتعلمها لكان سعيه ضائعاً ، وأما العامى والمتعلم فحضور مجالس العلم والوعظ أفضل من اشتغاله بالأوراد ، وكذلك المحترف الذي يحتاج إلى الكسب لعياله فليس له أن يضيع العيال ويستغرق الأوقات في العبادات بل ورده في وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب ، لكن ينبغي أن لا ينسى ذكر الله تعالى في صناعته .

فضيلة قيام الليل

من الآيات قوله تعالى : ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً  
 وطمعاً وما رزقناهم ينفقون ) وقوله تعالى : ( أمن هو قانت آناء الليل ) وقوله  
 وجل : ( والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ) وقوله سبحانه : ( كانوا  
 من الليل ما يهجعون وبالأسفار هم يستغفرون وفي أموالهم حق معلوم للسائل  
 والمحروم ) ومن الأخبار قوله صلى الله عليه وسلم : « ركعتان يركعهما العبد في  
 حروف الليل خير له من الدنيا وما فيها » وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن من  
 الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه إياه » ، وقوله  
 صلوات الله عليه : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم » .

الأسباب المسهلة لقيام الليل

منها أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ، ويثقل عليه القيام ، ومنها  
 أن لا يترك القيلولة بالنهار فإنها سنة الاستعانة على قيام الليل ، ومنها أن يعرف فضل  
 قيام الليل بسماع هذه الآيات والأخبار حتى يستحکم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه  
 فيهبجه الشوق لطلب المزيد والرغبة في درجات الجنان ، ومنها وهو أشرف  
 البواعث الحب لله وقوة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناجح به  
 ربه وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه وأن تلك الخطرات من الله تعالى  
 خطاب معه فإذا أحب الله تعالى أحب لا محالة الخلوة به وتلذذ بالمناجاة فتعمله  
 المناجاة للحبيب على طول القيام .

بيان لذة المناجاة عقلاً ونقلًا

لا ينبغي أن نستبعد هذه اللذة إذ يشهد لها العقل والنقل ، فأما العقل فليعتبر  
 في الحب لشخص بسبب جماله أو لملك بسبب إنعامه وأمواله أنه كيف يتلذذ  
 بالخلوة ومناجاته حتى لا يأتيه النوم طول ليله ، فإن قلت إن الجميل يتلذذ  
 بالجميلة وإن الله تعالى لا يرى فاعلم أنه لو كان الجميل المحبوب وراء ستر أو كان

في بيت مظلم لكان الحب يتلذذ بمجاورته المجردة دون النظر ودون الطامع في أمر  
آخر سواء ، وكان يتنعم بإظهار حبه عليه وذكره بلسانه بمسمع منه وإن كان  
ذلك أيضاً معلوماً عنده فإن قلت إنه ينتظر جوابه فيتلذذ بسماع جوابه وليس  
يسمع كلام الله تعالى ؟ فاعلم أنه إن كان يعلم أنه لا يجوبه ويسكت عنه فله  
بقية أيضاً لذة في عرض أحواله عليه ورفع سريره إليه كيف والموقن بسمع  
من الله تعالى كل ما يرد على خاطره في أثناء مناجاته فيتلذذ به وكذا الذي يخبر  
بالملاك ويمرض عليه حاجاته في جنح الليل يتلذذ به في رجاء إنعامه ، والرجاء  
حق الله تعالى أصدق وما عند الله أبقى وأنفع مما عند غيره وكيف لا يتلذذ بعرض  
الحاجات عليه في الخلوات . وأما النقل فيشهد له أحوال قوام الليل في تلذذ  
بقيام الليل واستقصاءهم له كما يستقصرون الحب ليلة وصال الحبيب حتى قيل لبعضهم  
كيف أنت والليل ؟ قال ما راعيته قط يريني وجهه ثم ينصرف وما تأماته بعد  
وقال علي بن بكار : منذ أربعين سنة ما أحزنتني شيء سوى طلوع الفجر  
وقال الفضيل بن عياض إذا غربت الشمس فرحت بالظلام نلوتني بربي و  
طلعت حزنت لدخول الناس علي . وقال أبو سليمان : أهل الليل في أيلهم  
من أهل اللهم في لهم ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا . وقال بعضهم  
ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التماق في قلوبهم بال  
من حلاوة المناجاة ، وقال بعضهم : لذة المناجاة ليست من الدنيا إنما هي من  
أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها سوام ، وقال ابن المنكدر : ما بقي من لذة  
الدنيا إلا ثلاث : قيام الليل وإقامة الإخوان والصلاة في الجماعة . وقيل لبعضهم  
كيف الليل عليك ؟ فقال ساعة أنا فيها بين حالين أفرح بظلمتها إذا جاء  
بفجره إذا طلع ما تم فرحي به قط<sup>(١)</sup> .

(١) ولتأييد هذا البحث الذي كان يتحدث به المؤلف في دروسه العامة نذكر ما كان  
المؤلف أيضاً في تأليف آخر عن الشمس ابن القيم الدمشقي في إغاثة الأهلان وصورته ، قال



طرق القسمة لأجزاء الليل

إحياء الليل له سبع مراتب : ( الأولى ) إحياء كل الليل ، وهو شأن الأقوياء الذين تجردوا لعبادة الله تعالى وتلذذوا بمفاجاته ، وصار ذلك غذاء لهم وحياة قلوبهم فلم يترعبوا بطول القيام وردوا المنام إلى النهار . اشتهر ذلك عن أربعمين ( الثانية ) أن يقوم نصف الليل ( الثالثة ) أن يقوم ثلث الليل من نصف الأخير ( الرابعة ) أن يقوم سدس الليل الأخير أو خمسة ( الخامسة ) أن يراعى التقدم فينام ويقوم في أجزاء الليل مطلقاً ( السادسة ) أن يقوم مقدار سبع ركعات أو ركعتين وحيث يتعذر عليه القيام في وسط الليل فلا ينبغي أن يهمل القيام قبل الصبح وقت السحر ولا يدركه الصبح نائماً ، وهذه هي رتبة السابعة .

وأما قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث المقدار فلم يكن على ترتيب

من القيم : حقيقة المرء قلبه وروحه ولا صلاح له إلا بتوحيد ربه وعبادته وخوفه ورجائه وفي ذلك عظم لذة المرء وسعادته ولعمريه إذ ليس في الكائنات شيء غير الله عز وجل يسكن القلب به ويطمئن به ويأنس به ويتنعم بالتوجه إليه ، فتنفس الإيمان به ومحبتة وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه كما دلت عليه السنة والقرآن وشهدت به الفطرة لا كما يقوله من قل نصيبه من التحقيق إن عبادته وذكره تكليف ومشقة مجرد الامتحان أو لأجل مجرد التعويض بالثواب أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم بل عبادته ومعرفة وتوحيده وشكره قرة عين الإنسان وأفضل لذة الروح والجنان . وليس الفسود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول ، وإن وقع ذلك ضمناً في بعضها لأسباب اقتضته لا بد منها هي من لوازم هذه النشأة ، فأوامره سبحانه وحقه الذي أوجبه على عباده وشرائعه لهم هي قرة العيون ولذة القلوب ونعيم الأرواح وسرورها به سعادتها وفلاحها في معاشها ومعادها بل لا سرور لها ولا لذة في الحقيقة إلا بذلك كما قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فإفرحوا هو خير مما يجمعون ) قال أبو سعيد الخدري : فضل الله ، ورحمته أن جعلكم من أهله . وكذا قال غير واحد لا يقال قد وقع تسمية ذلك في القرآن كقوله : ( لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ) لأننا نقول إنما جاء في جانب التيسير بسم سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفاً قط بل سماها روحاً ونوراً وشفاء ورحمة وحياة وعهداً ووصية ونحو هذا انتهى ،

واحد ، بل ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه أو سدسه يختلف ذلك في الليالي ، ودل عليه قوله تعالى في الموضعين : ( إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ) فأدنى من ثلثي الليل كأنه نصف ونصفه سدسه . فإن كسر قوله ( ونصفه وثلثه ) كان نصف الثلثين وثلثه فيقرب من الثلث والرابع . وإن نصب كان نصف الليل وثلثه . وقالت عائشة رضي الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم يقوم إذا سمع الصارخ يعني الديك - وهذا يكون السدس فما دونه .

## كتاب آداب الأكل والدعوة والضيافة

إن الله تعالى أحسن تدبير الكائنات ، نفاق الأرض والسموات ، وأنزل الماء الفرات من المعصرات ، فأخرج به الحب والنبات وقدر الأرزاق والأقوات وحفظ بالمأكولات قوى الحيوانات ، وأعان على الطاعات والأعمال الصالحات بأكل الطيبات ؛ فشكراً له على عر الأوقات .

ولما كان مقصد ذوى الألباب لقاء الله تعالى في دار الثواب ولا طريق إلى الوصول للاقائه إلا بالعلم والعمل ، ولا يمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات والتناول منها بقدر الحاجة على تكرر الأوقات ؛ فمن هذا الوجه قال بعض السلف : إن الأكل من الدين ، وعليه نبه قوله تعالى : ( كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ) . وهما نحن نرشد إلى وظائف الدين في الأكل فرائضها وسننها وآدابها .

بيان ما لا بد للآكل من مراعاته - وهو ثلاثة أقسام

القسم الأول في الآداب المتقدمة على الأكل - وهي خمسة

( الأول ) أن يكون الطعام بعد كونه حلالاً في نفسه طيباً في جهة مكسبه

موافقاً لسنة والورع لم يكتسب بسبب مكروه في الشرع ولا بحكم هوى ومداهنة

دين ، وقد أمر الله تعالى بأكل الطيب وهو الحلال ، وقدم النهي عن الأكل الباطل على القتل تفخيماً لأمر الحرام وتعظيماً لبركة الحلال فقال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ) إلى قوله : ( ولا تقتلوا أنفسكم ) الأصل في الطعام كونه طيباً وهو من الفرائض وأصول الدين .

( الثاني ) غسل اليد لأنها لا تخلو عن لوث في تعاطي الأعمال ففسامها أقرب إلى النظافة والنزاهة .

( الثالث ) أن ينوي بأكله أن يتقوى به على طاعة الله تعالى لئلا يكون مطيعاً لأكل ، ومن ضرورة هذه النية أن لا يمد اليد إلى الطعام إلا وهو جائع ويكون الجوع أحد ما لا بد من تقديمه على الأكل . ثم ينبغي أن يرفع اليد قبل الشبع ، ومن فعل ذلك استغنى عن الطيب .

( الرابع ) أن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام .

( الخامس ) أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده . فإن غير الطعام ما كثرت عليه الأيدي ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يأكل وحده .

### القسم الثاني في آدابه حالة الأكل

وهو أن يبدأ بسم الله في أوله وبالحد في آخره ويحمر ليد كغيره ويأكل ليفي ويصغر اللقمة ويجود مضمها ، وما لم يبتلعها لا يمد اليد إلى الأخرى فإن عجزت عن الأكل ، وأن لا يذم ما كولا ، كان صلى الله عليه وسلم لا يعيب كولا كان إذا أهجبه أكله وإلا تركه . وأن يأكل مما يابيه إلا الفاكهة فله يجمل يده فيها ، ولا يضع على الخبز قصعة ولا غيرها إلا ما يؤكل به ، ولا يمسح بالخبز ، ولا ينفخ في الطعام الحار بل يصبر إلى أن يسهل أكله ، ولا يجمع التمر والنوى في طبق ولا يجمع في كفه بل يضع الفتوة من فيه على ظهر كفه ، يلتقيها وكذا كل ماله حجم وثقل ، وأن لا يترك ما استردله من الطعام

ويطرحه في القصعة بل يتركه مع الثفل حتى لا يلتبس على غيره فيأكله ، وأما  
لا يكثر الشرب في أثناء الطعام إلا إذا غص بلقمة أو صدق عطشه .  
( وأما الشرب ) فأدبه أن يأخذ الكوز بيمينه ويقول « بسم الله » ويشرب  
مصاً لا عباً ولا يشرب قائماً ولا مضطجماً ، وينظر في الكوز قبل الشرب  
ولا يتجشأ ولا يتنفس في الكوز بل يفتحيه عن فمه بالحد ويرد بالتسمية  
والكوز وكل ما يدار على القوم يدار يمنة ، وقد شرب رسول الله صلى الله  
عليه وسلم لبناً وأبو بكر رضى الله عنه عن شماله وأعرابي عن يمينه فناول الأعرابي  
وقال : الأيمن فالأيمن ، وبشرب في ثلاثة أنفاس يحمد الله في أواخرها ويسبح  
الله في أوائلها .

### القسم الثالث ما يستحب بعد الطعام

وهو أن يمسك قبل الشبع ، ثم يغسل يديه ويتخال ويرمي المخرج بالخللا  
وأن يشكر الله تعالى بقلبه على ما أطعمه فيرى الطعام نعمة منه قال الله تعالى  
( كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ) فإن أكل طعام الغير فليقل  
له وليقل : اللهم أكثر خيره ، وبارك له فيما رزقته ، واجعلنا وإياه من  
الشاكرين وإن أفطر عند قوم فليقل : أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم  
الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة . وليكثر الاستغفار والحزن على ما أكل  
من شبهة ويستحب عقيب الطعام أن يقول : « الحمد لله الذي أطعمنا وشفقنا  
وكفانا وآوانا » .

### آداب الاجتماع على الأكل - وهي سبعة

( الأول ) أن لا يبتدىء بالطعام ومعه من يستحق التقديم بكبر سن أو زيد  
فضل إلا أن يكون هو المتبوع والمقتدى به فحينئذ ينبغي أن لا يطول عليه  
الانتظار إذا اشربوا للأكل واجتمعوا له .  
( الثاني ) أن لا يسكتوا على الطعام ولكن يتكلمون بالمعروف .

( الثالث ) أن يرفق برقيقه في القصة فلا يقصد أن يأكل زيادة عما يأكله فإن ذلك حرام إن لم يكن موافقاً لرضا رفيقه مهما كان الطعام مشتركاً بل ينبغي أن يقصد الإيثار ولا يأكل تمرتين في دفعة إلا إذا فعلوا ذلك أو استأذنهم ، فإن قال رفيقه نشطه ورغبه في الأكل وقال له كمل ، ولا يزيد في قوله كمل على ثلاث ، فإن ذلك إلهام وإضجار — فأما الخلف عليه بالأكل فممنوع . قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : الطعام أهون من أن يحلف عليه .

( الرابع ) أن لا يحوج رفيقه إلى أن يقول له كمل أو يتفقد في الأكل بل يحمل عن أخيه مؤنة ذلك . ولا ينبغي أن يدع شيئاً مما يشتهي لأجل نظر الغير إليه فإن ذلك تصنع بل يجري على المعتاد ولا ينقص من عاداته شيئاً في الوحدة ولكن يعود نفسه حسن الأدب في الوحدة حتى لا يحتاج إلى التصنع عند الاجتماع نعم لو قال من أكله إيثاراً لإخوانه ونظراً لهم عند الحاجة إلى ذلك فهو حسن ، وإن زاد في الأكل على نية المساعدة وتحريك نشاط القوم في الأكل فهو أحسن .

( الخامس ) إن غسل اليد في الطشت لا بأس به . قال أنس : إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردّها . روى أن هارون الرشيد دعا أبا معاوية الضير فصب الرشيد على يده في الطشت ، فلما فرغ قال يا أبا معاوية أتدرى من صب على يدك؟ فقال لا ، قال صبه أمير المؤمنين ، فقال يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجلاته فأجلك الله وأكرمك كما أجلت العلم وأهله . وليصب صاحب المنزل بنفسه المساء على يد ضيفه هكذا فعل مالك بالشافعي رضي الله عنهما في أول نزوله عليه ، وقال لا يروحك ما رأيت مني نخدمة الضيف فرض .

( السادس ) أن لا ينظر إلى أصحابه ، ولا يراقب أكلهم فيستحيون بل يفيض بصره عنهم ، ويشغل بنفسه ، ولا يمسك قبل إخوانه إذا كانوا يمتشمون الأكل بعده بل يمد اليد ويقبضها ، ويتناول قليلاً قليلاً إلى أن يستوفوا فإن

امتنع لسبب فليعتذر إليهم دفعا للخجلة عنهم .

( السابع ) أن لا يفعل ما يستقذره غيره ، فلا ينفض يده في القصعة ، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه وإذا أخرج شيئاً من فيه صرف وجهه عن الطعام وأخذ بيساره ، ولا يغمس اللقمة اللسمة في الخل فقد يكرهه غيره واللقمة التي قطعها بسننه لا يغمسها في المرققة والخل ، ولا يتكلم بما يكره من المستقذرات .

فضل تقديم الطعام إلى الزائرين وآدابه

تقديم الطعام إلى الإخوان فيه فضل كثير ، قال الحسن : كل نفقة ينفقها الرجل يحاسب عليها إلا نفقته على إخوانه في الطعام ، فإن الله أكرم من أن يسأل عن ذلك . وقال علي رضي الله عنه : لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحسن إلي من أن أعتق رقبة . وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : من كرم المرء طيب زاده في سفره وبذله لأصحابه ، وكانوا رضي الله عنهم يجتمعون على قراءة القرآن ولا يتفرقون إلا عن ذواق .

( وأما آدابه ) فبعضها في الدخول وبعضها في تقديم الطعام — أما الدخول فليس من السنة أن يقصد قوماً متربصاً لوقت طعامهم فيدخل عليهم وهم الأكل فإن ذلك من المفاجأة ، وقد نهى عنه . قال الله تعالى : ( لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ) يعني منة نظرين حرم ونضجه . أما إذا كان جائعاً فقصده بعض إخوانه ليطعمه ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به وفيه إعانة لأخيه على حيازة ثواب الإطعام وهي عادة السالم فإن دخل ولم يجد صاحب الدار وكان واثقاً بصداقته عالمياً بفرحه إذا أكل طعامه فله أن يأكل بغير إذنه ، إذ المراد من الإذن الرضاء لاسيما في الأطفال وأمرها على السعة ، فرب رجل يعمرح بالإذن ويحاف وهو غير راض فأكل طعامه مكرهه ، ورب غائب لم يأذن وأكل طعامه محبوب ، وقد قال تعالى :

(أوصديقكم) قال الحسن : الصديق من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب . كان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون ما يجدون ويغير إذن ، فكان الحسن يدخل ويرى ذلك فيسر به ويقول : هكذا كنا . ومشي قوم إلى منزل سفيان الثوري ، فلم يجدوه ، ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وجعلوا يأكلون ، فدخل الثوري وجعل يقول : ذكرتوني أخلاق السلف هكذا كانوا .

(وأما آداب التقديم) فترك التكلف أولاً ، وتقديم ما حضر . كان الفضيل يقول : إنما تقاطع الناس بالتكلف ، يدعو أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه عن رجوع إليه . ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده فيجحف بعياله ويؤذي إخوانه . قال بعضهم : دخلنا على جابر رضي الله عنه فقدم لنا خبزاً وخلاً وقال : لولا أنا نهينا عن التكلف لتكلفت لكم .

(الأدب الثاني) وهو للزائر أن لا يقترح ، ولا يتحكم بشيء بعينه ، وربما شق على المزور إحضاره ، فإن خيره أخوه بين طعامين ، فليختر أيسرهما عليه ، وإن علم أنه يسر باقتراحه ويتيسر عليه ذلك فلا يكره له الاقتراح . قال بعضهم : الأكل على ثلاثة أنواع : مع الفقراء بالإيثار ، ومع الإخوان بالانبساط ، ومع أبناء الدنيا بالأدب .

(الأدب الثالث) أن يشتهي المزور أخاه الزائر ، ويلتمس منه الاقتراح ما كانت نفسه طيبة بفعل ما يقترح فذلك حسن ، وفيه أجر وفضل جزيل . (الأدب الرابع) أن لا يقول له هل أقدم لك طعاماً ؟ بل ينبغي أن يقدم كان فإن أكل وإلا فلا يرفعه .

(مسائل)

(الأولى) رفع الطعام على المائدة فيه تيسير للأكل فلا كراهة فيه ، بل هو الم ينفقه إلى الكبر والتعظيم ، وما يقال إنه بدعة فجوابه أنه ليس كل

ما أبدع منہیما ، بل المنہی بدعة تضاد سنة ثابتة ، وترفع أمراً من الشرع مع بقاء  
علته ، وليس فی المائدة إلا رفع الطعام عن الأرض لتيسير الأكل ونحوه  
بما لا كراهة فیہ ( الثانية ) الأكل والشرب متکثراً مکروه مضر للمعدة  
ومثله الأكل مضطجماً ومنبطحاً ( الثالثة ) السنة البداءة بالطعام قبل  
الصلوة . وفي الحديث : « إذا حضر العشاء والعشاء فابدؤوا بالعشاء »  
وكان ابن عمر رضی الله عنہما ربما سمع قراءة الإمام ولا يقوم من عشاءه  
نعم إن كانت النفس لا تقوق إلى الطعام ، ولم یکن فی تأخیر الطعام ضرر  
فالأولى تقديم الصلاة .

بیان ما یخص الدعوة والضيافة

فضیلة الضیافة

قال رسول الله صلی الله علیه وسلم : « من كان یؤمن بالله والیوم الآخر  
فلیکرم ضیفه » وفي الأثر : لا خیر فیمن لا یضيف ، وسئل رسول الله صلی  
علیه وسلم ما الإیمان قال : « إطعام الطعام وبذل السلام » وقال صلی الله علیه وسلم  
فی الکفارات والدرجات : « إطعام الطعام والصلوة باللیل والناس نيام .  
( أما الدعوة ) فینبغی للداعی أن یعمد بدعوته الأتقیاء دون الفساق ،  
صلی الله علیه وسلم : « أکمل طعامک الأبرار » وفي الأثر : لا تأکل إلا  
تقی ، ولا یأکل طعامک إلا تقی . ولا یقتصر علی الأغنیاء خاصة ، بل  
معهم الفقراء . قال صلی الله علیه وسلم : « شر الطعام طعام الولیة یؤتی  
إلیها الأغنیاء ویحرم منها الفقراء » وینبغی أن لا یهمل أقاربه فی ضیافته  
فإن إهمالهم إیحاش وقطع رحم ، وكذلك یراعی الترتیب فی أصدقائه ومعارفه  
فإن فی تخصیص البعض إیحاشاً لقلوب الباقین ، وینبغی أن لا یقصد بدو  
المباهاة والتفاخر ، بل استمالة قلوب الإخوان وإدخال السرور علی قلوب المؤمنین  
وینبغی أن لا یدعو من یعلم أنه یشق علیه الإجابة ، وإذا حضر تأذی بالحام



سبب من الأسباب ، وينبغي أن لا يدعو إلا من يحب إجابته .  
( وأما الإجابة ) فهي سنة مؤكدة ، وقد قيل بوجودها في بعض المواضع ،  
ولها خمسة آداب :

( الأول ) أن لا يميز الغني بالإجابة عن الفقير ، فذلك هو التكبر المنهى عنه .  
( الثاني ) أن لا يمتنع عن الإجابة بعد المسافة ، كما لا يمتنع لفقير الداعي  
وعدم جاهه ، بل كل مسافة يمكن احتمالها في العادة لا ينبغي أن يمتنع لأجابه .  
( الثالث ) لا يمتنع لكونه صائماً بل يحضر ، فإن كان يسر أخاه إفطاره  
فليفطر ، وليحتسب في إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه ما يمتسب  
في الصوم وأفضل ، وذلك في صوم التطوع ، وإن تحقق أنه متكلف فليتعال .  
وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : من أفضل الحسنة إكرام الجاساء  
بالإفطار ، فالإفطار عبادة بهذه النية وحسن خلق ، فتوابه فوق ثواب الصوم ،  
ومهما لم يفطر فضيافته الطيب والحجيرة والحديث الطيب .

( الرابع ) أن يمتنع عن الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة ، أو كان يقام  
في الموضع منكراً<sup>(١)</sup> ، أو كان الداعي ظالماً ، أو فاسقاً ، أو متكافئاً طالباً  
للبهاة والفخر .

( الخامس ) أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن ، فيكون عاملاً في أبواب

(١) عد الغزالي من المنكر : فرش الحرير والتصوير على الحيطان وسماع الزامير وعندى  
المنكر الذي يحظر الحضور معه ويتمين إنكاره هو ما اتفق على إنكاره وأجم عليه ، فما لم  
ينطق الفقهاء على تحريمه فلا يكون منكراً ولا ينسب مقره إلى الفسق : هذا فرش الحرير  
والخليفة الجلوس عليه ، والتصوير على الحيطان سوغه المالكية ، وسماع الزامير ذهب إليه  
الحزم ، وكثير من أتباع الأئمة المشهورين وصنفت فيه مؤلفات معروفة فأنى يكون هذا من  
المنكر فالذي أراه في المنكر أنه المجمع على تحريمه حتى نمرط الفقهاء في إنكار المنكر أن  
يتم بحماً عليه ، نعم التورع والاحتياط وترك ما يريب إلى ما لا يريب باب آخر فيه حسم للشبهة  
في حال الدين .

الدنيا ، بل يحسن نيته ليصير بالإجابة عاملاً للآخرة فينوي الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإكرام أخيه المؤمن وزيارته ، ليكون من المتحابين في الله وينوي صيانة نفسه عن أن يساء به الظن في امتناعه ، ويطلق اللسان فيه بأن يحمل على تكبر ، أو سوء خلق ، أو استحقاق أخ مسلم أو ما يجر مجراه ، وكان بعض السلف يقول : أنا أحب أن يكون لي في كل عمل نية حسنة في الطعام والشراب ، فإن المباح يلتحق بوجوه الخيرات بالنية .

( وأما الحضور ) فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن بل يتواضع ولا يطول الانتظار عليهم ، ولا يجعل بحيث يفاجئهم قبل تم الاستعداد ، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة ، بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه البتة ، فإنه قد يكون رتب في نفسه موضع كل واحد فمخالفته تشوش عليه ، ولا يجلس في مقابلة باب الحجرة التي للنساء وسترن ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام ، فإنه دليل على الشرم ، ويخضع بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس ، وإذا دخل ضيف للبيت فأيمن صاحب المنزل عند دخوله القبلة وبيت الماء وموضع الوضوء ، وأن يفسح صاحب المنزل يده قبل القوم وقبل الطعام ، لأنه يدعو الناس إلى كرمه ، ويقدم في آخر الطعام عنهم ، وعلى الضيف إذا دخل فرأى منكرأ أن يغيره إن قدر وإلا أنكر بلسانه وانصرف .

( وأما إحضار الطعام فله آداب خمسة ) : ( الأول ) تمجيل الطعام ، فذلك من إكرام الضيف ، ومهما حضر الأكثرون وغاب واحد أو اثنان ، وتأخر عن الوقت الموعود ، فحق الحاضرين في التمجيل أولى من حق أولئك في التأخير وأحد المعنيين في قوله تعالى : ( هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين أنهم أكرموا بتمجيل الطعام ، ودل عليه قوله تعالى : ( فما لبث أن جاء بهم حنيذ ) وقوله ( فراغ إلى أهله فجاء بمجمل سمين ) والروغان : الذهب بسرغ

وقيل : في خفية . قال حاتم الأصم : العجلة من الشيطان إلا في خمسة ، فإنها من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : إطعام الضيف ، وتجهيز الميت ، وتزويج البكر ، وقضاء الدين ، والتوبة من الذنب .

( الثاني ) ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولاً إن كانت ؛ فذلك أوفق في الطب فإنها أسرع استجابة ، فينبغي أن تقع في أسفل المعدة ، وفي القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة في قوله تعالى : ( وفاكهة مما يتخيرون ) ثم قال : ( ولحم طير مما يشتهون ) ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد ، فإن جمع إليهما حلاوة بعده ، فقد جمع الطيبات ودل على حصول الإكرام باللحم قوله تعالى في ضيف إبراهيم ، إذ حضر العجل الحنيد ، أي المنوذ وهو الذي أجيد نضجه وهو أحد معنى الإكرام ، أعني تقديم اللحم . قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه : أكل الطيبات تورث الرضاء عن الله ، وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد ، وصب الماء الفاتر على اليد عند الغسل . قال المأمون : شرب الماء بثلاج يخاص الشكر . وقال بعضهم : الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الألوان ، والنمك كن على المائدة خير من زيادة لونين . وتزوين المائدة بالقبول مستحب أيضاً .

( الثالث ) أن يقدم من الألوان الطعما حتى يستوفي منها من يريد ولا يكثر الأكل بعده ، وعادة المترفين تقديم الغليظ ليستأنف حركة الشهوة بمصادفة اللطيف بعده ، وهو خلاف السنة فإنه حيلة في استكثار الأكل ، ويستحب أن يقدم جميع الألوان دفعة أو يخبر بما عنده .

( الرابع ) أن لا يبادر إلى رفع الألوان قبل تمكثهم من الاستيفاء حتى يرفعوا الأيدي عنها فلعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه أو بقيت فيه حاجة إلى الأكل فيتنفص عليه بالمبادرة .

( الخامس ) أن يقدم من الطعام قدر الكفاية ، فإن التقليل عن الكفاية نقص في المروءة والزيادة عليه تصنع . قال ابن مسعود رضي الله عنه : نهينا

أن نجيب دعوة من يباهى بطعامه ، وكره جماعة من الصحابة أكل طعام المباهاة ، وينبغي أن يعزل أولاً نصيب أهل البيت حتى لا تكون أعينهم طامحة إلى رجوع شيء منه ، فلهذا لا يرجع فتضييق صدورهم ، وتنطلق في الضيفان ألسنتهم .

( فأما الانصراف فله ثلاثة آداب ) : ( الأول ) أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار وهو سنة وذلك من إكرام الضيف . وتام الإكرام طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة .

( الثاني ) أن ينصرف الضيف طيب النفس وإن جرى في حقه تقصير فذلك من حسن الخلق والتواضع ( الثالث ) أن لا يخرج إلا برضاء صاحب المنزل وإذنه ، ويراعى قلبه في قدر الإقامة ، وإذا نزل ضيفاً فلا يزيد على ثلاثة أيام فربما يتبرم به ويحتاج إلى إخراجهم . نعم لو ألع رب البيت عليه عن خلوص قلب فله المقام إذ ذاك . ويستحب أن يكون عنده فراش لضيف ينزل به .

### آداب متفرقة

( الأول ) حكى عن إبراهيم النخعي أنه قال : الأكل في السوق دناءة . ونقل عن بعض السلف فعله ، ووجه الجمع أنه يختلف بعادات البلاد وأحوال الأشخاص ، فمن لا يليق ذلك به لحاله أو عادة بلاده كان شرهاً وقلة مروءة . ومن لا فلا حرج .

( الثاني ) قال بعض الأطباء لا تنكح من النساء إلا نقاة ، ولا تأكل من اللحم إلا فتياً ، ولا تأكل المطبوخ حتى ينعم نضجه ، ولا تشربين دواء إلا من علة ، ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها ، ولا تأكلن طعاماً إلا أجدت مضغته ، ولا تشربين فوق طعام ، ولا تحبس البول والغائط ؛ وإذا أكلت بالنهار فتم ، وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة .

( الثالث ) يستحب أن يحمل الطعام إلى أهل الميت . ولما جاء نعي جعفر ابن أبي طالب قال عليه الصلاة والسلام : « إن آل جعفر شغلوا بميتهم عن صنع طعامهم فاحملوا إليهم ما يأكلون » فذلك سنة ، وإذا قدم ذلك إلى الجمع حل الأكل منه .

( الرابع ) لا ينبغي أن يحضر طعام ظالم فإن أكره فليقل الأكل .

تقمة

حكى أن بعضهم كان يمتنع عن إجابة الدعوة ويقول انتظار المرققة ذل وقال آخر : إذا وضعت يدي في قصعة غيري فقد ذلت له رقبتى ، وقد أنكر بعضهم هذا الكلام ، وقال هذا خلاف السنة . قال الغزالي : وليس كذلك فإنه ذل إذا كان الداعي لا يفرح بالإجابة ولا يتقلد بها منة ، وكان يرى ذلك بدأ له على المدعو ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحضر لعله أن الداعي له يتقلد منة ويرى ذلك شرفاً وذخراً لنفسه في الدنيا والآخرة - فهذا يختلف باختلاف الحال . فمن ظن به أنه يستثقل الإطعام ، وأنه يفعل ذلك مباحاة أو تكلفاً فليس من السنة إجابته بل الأولى التعمل . ولذلك قال بعض الصوفية : لا تجب إلا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك وأنه سلم إليك وديعة كانت لك عنده ، ويرى لك الفضل عليه في قبول تلك الوديعة منه ، فإذا علم المدعو أنه لا منة في ذلك فلا ينبغي أن يرد .

## كتاب آداب النكاح

الترغيب فيه

قال الله تعالى : ( وأنكحوا الأيامى منكم ) وهذا أمر ، وقال تعالى : ( فلا تمضونهم أن ينكحن أزواجهن ) وهذا منع من المضل ونهى عنه ، وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم : ( ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا

لهم أزواجاً وذرية) فذكر ذلك في معرض الامتنان وإظهار الفضل ومدح أوليائه بسؤال ذلك في الدعاء فقال: (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين) الآية. وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم: «النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فهدى الله ربه عنى» وقال: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء». هذا يدل على أن سبب الترغيب فيه خوف الفساد في العين والفرج. والوجاء: هو عبارة عن رض الخصيتين للفحل حتى تزول فحولته فهو مستعمار للضعف عن الوقاع بالصوم، وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» وهذا أيضاً تعليل الترغيب لخوف الفساد، وقال صلى الله عليه وسلم: «كل عمل ابن آدم ينقطع إلا ثلاث: ولد صالح يدعو له<sup>(١)</sup>» الحديث. ولا يتوصل إلى هذا إلا بالنكاح.

(وأما الآثار) فقال ابن عباس رضى الله عنه: لا يتم نسك الفاسك حتى يتزوج بحتمل أنه جملة من النسك أو تقمة له أو أراد أنه لا يسلم قلبه لغلبة الشهوة إلا بالتزويج، ولا يتم النسك إلا بفراغ القلب. وكان يجمع غلته لما أدركوا ويقول: إن أردتم النكاح أنكم تحتمكم فإن العبد إذا زنى نزع الإيمان من قلبه.

(وأما فوائد النكاح) خمسة: الولد، وكسر الشهوة، وتدبير المنزل، وكثرة المشيرة، ومجاهدة النفس بالقيام بهن.

(١) قوله كل عمل الخ هكذا بالأصل والذي أحفظه أن نص الحديث هكذا: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به، أو صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له» اهـ مصححه.

ما يراعى من أحوال المرأة

الحصول المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ، ليدوم العقد وتتوفر مقاصده ثمانية : الدين ، والخلق ، والحسن ، وخفة المهر ، والولادة ، والبكارة ، والنسب ، وأن لا تكون قرابة قريبة .

( الأولى ) أن تكون صالحة ذات دين : فهذا هو الأصل وبه ينبغى أن يقع الاعتناء ، فإنها إن كانت ضعيفة الدين في صيانة نفسها وفرجها ، أزرت زوجها وسودت بين الناس وجهه ، وشوشت بالغيرة قلبه ، وتنقص بذلك عيشه ، فإن سلك سبيل الحمية والغيرة لم يزل في بلاء ، وإن سلك سبيل التساهل كان متهاوناً بدينه وعرضه ومنسوباً إلى قلة الحمية والأنفة . وإن كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوشاً معه فإن سكت ولم ينكره كان شريكاً في المعصية مخالفاً لقوله تعالى : ( قوا أنفسكم وأهليكم نارا ) وإن أنكر وخاصم تنقص العمر - ولهذا بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحريض على ذات الدين فقال : « تنكح المرأة لجمالها وحسبها ودينها ، فعليك بذات الدين تربت يداك » .

( الثانية ) حسن الخلق : فإنها إن كانت سليطة بذيمة اللسان كافرة للنعم ، كان الضرر منها أكثر من النفع ، والصبر على لسان النساء مما يمتحن به الأولياء .

( الثالثة ) حسن الوجه ، فذلك أيضاً مطلوب إذ به يحصل التحصن ، والطبع لا يكتفى بالدميمة غالباً ، وما نقلناه من الحث على الدين ليس زجراً عن رعاية الجمال بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدين فإن الجمال وحده في غالب الأمر يرغب في النكاح ويهون أمر الدين ، ويدل على الالتفات إلى معنى الجمال أن الإلف والمودة تحصل به غالباً ، وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة ، ولذلك استحب النظر فقال : « إذا أوقع

الله في نفس أحدكم فليتنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما ، أي يوافق بينهما .  
 وكان بعض الورعین لا ينكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرور ،  
 وقال الأعمش : كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم . وروى أن رجلاً  
 تزوج على عهد عمر رضي الله عنه وكان قد خضب فنصل خضابه فاستمدى عليه  
 أهل المرأة إلى عمر وقالوا حسبناه شاباً فأوجعه عمر ضرباً ، وقال : غررت القوم ،  
 والغرور يقع في الجمال والخلق جميعاً ، فيستحب إرالة الغرور في الجمال بالنظر ،  
 وفي الخلق بالوصف والاستيصال ، ولا يستوصف في أخلاقها وجمالها إلا من هو  
 بصير صادق خبير بالظاهر والباطن ، لا يميل إليها فيفترط في الثناء ، ولا يحسدها  
 فيقصر ، وقل من يصدق فيه ، بل الخداع والإغراء أغلب ، والاحتياط  
 فيه مهم .

( الرابعة ) أن تكون خفيفة المهر : فقد نهى عن المغالاة في المهر ، وتزوج  
 بعض الصحابة على نواة من ذهب يقال [ كانت ] قيمتها خمسة دراهم ، وزوج سعيد  
 ابن المسيب ابنته من أبي هريرة رضي الله عنه على درهمين ثم حملها هو إليه ليلاً  
 فأدخلها من الباب ثم انصرف ثم جاءها بعد سبعة أيام فسلم عليها ، وفي خبر : من  
 بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحمتها أي الولادة ويسر مهرها وكما تكره  
 المغالاة في المهر من جهة المرأة فيكره السؤال عن مالها من جهة الرجل ، ولا ينبغي  
 أن ينكح طمعاً في المال ، وإذا أهدى إليهم فلا ينبغي أن يهدى ليضطرهم  
 إلى المقابلة بأكثر منه - وكذلك إذا أهدوا إليه ، فنية طالب الزيادة نية فاسدة  
 وداخل في قوله تعالى : ( ولا تمنن تستكثر ) أي تعطى لطلب أكثر .

( الخامسة ) أن تكون المرأة ولوداً : فإن عرفت بالمقر فليمتنع  
 عن تزويجها .

( السادسة ) أن تكون بكرأ : قال عليه الصلاة والسلام لجابر وقد نسك

ثيباً : ( هلا بكرأ تلاعبها وتلاعبك ) .



( السابعة ) أن تكون نسبية : أعنى أن تكون من أهل بيت الدين والصالح فإنها سترى بفاتها وبذمها ، فإذا لم تكن مؤدبة لم تحسن التأديب والتربية وفي خبر : ( تخيروا لنطفكم فإن العرق نزاع ) .

( الثامنة ) أن لا تكون من القرابة القريبة : فإن ذلك يقال الشهوة - فهذه هي الخصال المرغوبة في النساء .

( ويجب ) على الولي أيضاً أن يراعى خصال الزوج ولينظر لكرامته فلا يزوجه من ساء خلقه أو خلقه أو ضعف دينه أو قصر عن القيام بحقها أو كان لم يكافئها في نسبها ، ومهما زوج ابنته ظالماً أو فاسقاً أو مبتعداً أو شارب خمر ، فقد جنى على دينه ، وتعرض لسخط الله لما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار ، قال رجل للحسن : قد خطب ابنتي جماعة فمن أزوجهما ؟ قال : ممن يتقى الله فإن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها .

آداب المعاشرة بعد العقد إلى الفراق

والنظر فيما على الزوج والزوجة

( أما الزوج ) فعليه مراعاة الاعتدال والأدب في اثني عشر أمراً : في الوليمة ، والمعاشرة ، والدعابة ، والسياسة ، والخيرة ، والنفقة ، والتعليم ، والقسم ، والتأديب في النشوز ، والوقاع ، والولادة ، والمفارقة بالطلاق .

( الأدب الأول الوليمة ) وهي مستحبة . قال أنس رضي الله عنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أثر صغرة ، فقال ما هذا ؟ فقال تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب ، فقال بارك الله لك أولم ولو بشاة . وأولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على صفية بتمر وسويق . واستحب منه فيقول من دخل على الزوج : بارك الله لك ، وبارك عليك ، وجمع بينكما في خير ويستحب إظهار النكاح . قال عليه السلام : « فصل ما بين الحلال والحرام الهدى والصوت » .

( الأدب الثاني حسن الخلق معهن ) واحتمال الأذى منهن ترجحاً عليهن قال تعالى : ( وعاشروهن بالمعروف ) وقال في تعظيم حقهن : ( وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ) وقال : ( والصاحب بالجانب ) قيل هي المرأة . وليس حسن الخلق معها كلف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها ، والحلم عند طيشها وغضبها اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام ، وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل .

( الثالث ) أن يزيد على احتمال الأذى بابتداعية والمدح والملاعبة فهي التي تطيب قلوب النساء . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق ، وأرى عائشة لعب الحبشة بالمسجد واستوقفته طويلاً وهو يقول لها : حسبك ، وقال صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » وقال صلى الله عليه وسلم لجابر : « هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك » ووصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت : والله لقد كان ضحوكاً إذا ولى ، سكيتاً إذا خرج ، آكل ما وجد ، غير سائل عما فقد .

( الرابع ) أن لا يندسط في الدعاية وحسن الخلق ، والموافقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها ويسقط بالسكينة هيئته عندها بل يراعى الاعتدال فيه ، فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً ، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتنع ، فبالعدل قامت السموات والأرض فكل ما جاوز حده انمكس على ضده ؛ فينبغي أن يسلك سبيل الاعتدال في المخالفة والموافقة ، ويتبع الحق ، في جميع ذلك ليسلم من شرهن ، فإن الغالب عليهن سوء الخلق ، ولا يعقل ذلك منهن إلا بنوع لطف ممزوج بسياسة . وعليه أن ينظر إلى أخلاقها أولاً بالتجربة ثم ليعامها بما يصلحها كما يقتضيه حالها .

(الخامس) الاعتدال في الغيرة : وهو أن لا يتنافل عن مبادئ الأمور التي تخشى غوائلها ، ولا يبالغ في إساءة الظن والتعننت وتجنس البواطن ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات النساء ، وفي رواية : أن تبفت النساء ، ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره قال قبل دخول المدينة : « لا تطرقوا النساء ليلا » بخالفه رجالان فسبقا فرأى كل واحد في منزله ما يكره . وفي الحديث : إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة ، لأن ذلك من سوء الظن الذي نهينا عنه . وأما الغيرة في محلمها فلا بد منها وهي محمودة وذلك في الريبة . وكان قد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء في حضور المسجد سيما في العيدين ، فالخروج مباح للمرأة العفيفة برضاء زوجها ، وإن كان القعود أسلم ، وينبغي أن لا تخرج إلا لمهم فإن الخروج للنظارات والأمور التي ليست مهمة تقدر في المروءة وربما تفضي إلى الفساد فإذا خرجت فينبغي أن تفض عن الرجال . ولما نقول إن وجه الرجل في حقها عورة كوجه المرأة في حقه بل هو كوجه الصبي الأمد في حق الرجل فيحرم النظر عند خوف الفتنة فقط فإن لم تكن فتنة فلا إذ لم يزل الرجال على عمر الزمان مكشوفى الوجوه ، والنساء يخرجن متنقبات ، ولو كانت وجوه الرجال عورة في حق النساء لأسروا بالتنقب ، أو ممنعن من الخروج إلا لضرورة .

(السادس) الاعتدال في النفقة : فلا ينبغي أن يقتر عليهن في الإنفاق ولا ينبغي أن يسرف ، بل يقتصد ، قال تعالى : ( كلوا واشربوا ولا تسرفوا ) قال ابن سيرين : يستحب للرجل أن يعمل لأهله في كل جمعة حلاوة . وينبغي أن يأمرها بالتصدق ببقايا الطعام ، وما يفسد لو ترك ، فهذا أقل درجات الخير ، والمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير تصريح وإذن من الزوج ، ولا ينبغي أن يسأثر عن أهله بما كول طيب فلا يطعمهم منه فإن

ذلك مما يوغر الصدور ويبعد عن المعاشرة بالمعروف ، ولا ينبغي أن يصف عندهم طعاماً ليس يريد إطعامهم إياه ، وإذا أكل فليقدم العيال كلهم على مائدته . وأم ما يجب عليه سراعاته في الإنفاق أن يطعمها من الحلال ، ولا يدخل مداخل السوء لأجلها فإن ذلك جناية عليها لا مراعاة لها .

( السابع ) أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يحترز به الاحترار الواجب ، ويعلم زوجته أحكام الصلاة ، ويخوفها من الله إن تساهلت في أمر الدين ، فإن كان الرجل قائماً بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء ، وإن قصر علم الرجل ، ولا تكن ناب عنها في السؤال فأخبرها بجواب المفتي فليس لها الخروج ، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال بل عليها ذلك . ويعصى الرجل بمنعها .

( الثامن ) إذا كان له نسوة فينبغي أن يعدل بينهن ولا يميل إلى بعضهم فإن خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهن . فإن ظلم امرأة بليلتها قضى لها فإن القضاء واجب عليه وإنما عليه العدل في العطاء والمبيت ، وأما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار . وكان صلى الله عليه وسلم يطاق به محمولا في مرضه في كل يوم وكل ليلة . فببيت عند كل واحدة منهن ، ومهما وهبت واحدة ليلتها لصاحبها ثبت الحق لها .

( السابع ) القاديب في النشوز ومهما وقع بينهما خصام ولم يلتئم أمرهما فإن كان من جانبها جميعاً أو من الرجل فلا تسلط الزوجة على زوجها ولا يقدر على إصلاحها فلا بد من حكيم أحدهما من أهله ، والآخر من أهلها لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما ( إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما ) وأما إذا كان النشوز من المرأة خاصة ( فالرجال قوامون على النساء ) فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً ، ولا تكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها وهو أن يقدم أولاً الوعظ والتحذير والتخويف فإن لم ينجح ولاها ظهره في المضجع أو انفرد عنها بالفراش وجره

وهو في البيت معها من ليلة إلى ثلاث ليال فإن لم ينجح ذلك فيها ضربها ضرباً  
غير مبرح ولا يضرب وجهها فذلك منهي عنه .

(العاشر في آداب الجماع) ويستحب أن يقدم عليه الحديث والمؤانسة وأن  
يفطى رأسه ويفض صوته . ثم إذا قضى وطره فليتمهل على أهله حتى تقضى هي  
أيضاً نهمتها ، ولا يأتها في المحيض حتى تطهر . وله أن يستمتع بجميع بدن  
الحائض ولا يأتها في غير المأني إذ حرم غشيان الحائض لأجل الأذى ، والأذى  
في غير المأني دائم فهو أشد تحريماً من إتيان الحائض . وقال تعالى : ( فاتوا  
حرائكم أني شئتم ) أي في أي وقت شئتم . وله أن يستمني بيديها وأن يستمتع  
بما تحت الإزار بما يشتهي سوى الوقاع ؛ وله أن يؤاكل الحائض ويخالطها في  
المضاجعة وغيرها . ومن الآداب أن لا يعزل فما من نسمة قدر الله كونها إلا وهي  
كائنة ، فإن عزل فن العلماء من أباحه ومنهم من أحله برضاها وحرمه بدون  
رضاها لئلا يؤذيها والصحيح الأول . وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أنه  
قال : كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل . وفي لفظ  
آخر : كنا نعزل فبأمر نبي الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا . وقد يبعث على العزل  
استبقاء جمال المرأة وسمتها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفاً من خطر الطاق  
أو الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد والاحتراز من الحاجة إلى القعب  
في الكسب ودخول مداخل سوء فإن قلة الحرج معين على الدين .

(الحادي عشر في آداب الولادة) وهي خمسة :

(الأول) أن لا يكثر فرجه بالذكر وحزنه بالأثني فإنه لا بدري الخير له في

أهلهما . فكم من صاحب ابن يتمنى أن لا يكون له أو يتمنى أن تكون بنتاً بل

الثواب فيهن أكثر . قال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت

الفتان أو أختان فأحسن إليهما ما صحبتهما كنت أنا وهو في الجنة كهاتين » .

(الثاني) أن يؤذن في أذن المولود حين ولادته .

(الثالث) أن یسمیه اسماً حسناً . ومن كان له اسم مکرره یستحب تبديله  
(الرابع) العقیقة عن الذکر بشاتین ، وعن الأنثی بشاة وأن یتصدق بوجه  
شعره ذهباً أو فضة .

(الخامس) أن یحمله بتمرة أو حلاوة — روى ذلك من فعله صلى الله علیه و  
(الثامن عشر فی الطلاق) وهو أبغض المباحات إلى الله تعالى ، وإنما یك  
مباحاً إذا لم یكن فیہ إیذاء بالباطل . ومهما طلقها فقد آذاها ولا یباح إیذاء  
إلا بحیثیة من جانبها أو بضرورة من جانبها . قال تعالى : ( فإن أطعتم فلا تن  
علیهن سبیلاً ) أى لا تطلبوا حیلولة للفراق . وإن كان کرهها أبوه لا لفرض  
فلیطلقها برأ به . ومهما آذت زوجها وبذت على أهله فهى جائیة . وكذا  
مهما كانت سبباً الخلق أو قاسدة الدین ، وإن كان الأذى من الزوج فلم  
تفتدی ببذل مال . ویكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى فإن  
إجحاف بها وتحامل علیها وتجارة على البضع . قال تعالى : ( فلا جناح علیهم  
افتدت به ) فرد ما أخذته فما دونه لائق بالفداء . فإن سألت الطلاق  
ما بأس فهى آئمة . ثم لیراع الزوج فی الطلاق أربعة أمور :

(الأول) أن یطلقها فی طهر لم یجامعها فیہ فإن الطلاق فی الحیض أو  
الذى جامع فیہ بدعى حرام وإن كان واقعاً لما فیہ من تطویل العدة علیها  
فعل ذلك فلیراجعها حتى تطهر ، ثم تحیض ثم تطهر ، ثم إن شاء طلقها  
شاء أمسكها .

(الثانى) أن یقصر على طلقة واحدة لأنها تفید المقصود وبستفید بها  
إن ندم فی العدة . وإذا طلق ثلاثاً ربما ندم فیحتاج إلى أن یتزوجها بحال  
الصبر مدة ، وعقد الحلال منہی عنه ویكون هو السامی فیہ .

(الثالث) أن یقلطف فی العمل بتطليقها من غیر تعنیف واستخفاف  
وتطیب قلبها بهدیة على سبیل الإمتاع والجبر لما فجعها به من أذى النفس

بن تعالى ( ومتموهن ) وجه الحسن بن علي رضي الله عنهما ببعض أصحابه  
اللاق ابرأتين من نساته وقال قل لها اعتدا وأمره أن يدفع إلى كل واحدة  
شيرة آلاف درهم .  
(الرابع) أن لا يفشى سرها لا في الطلاق ولا عند النكاح ، فقد ورد في  
شأن سر النساء وعيد عظيم .

### حقوق الزوج على الزوجة

على الزوجة طاعة الزوج في كل ما طلب منها مما لا معصية فيه — وقد ورد  
تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة ، قال صلى الله عليه وسلم : « أيما امرأة  
أت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا صامت  
أمة خمسين وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت جنة  
بها » قال ابن عباس : أتت امرأة من خنعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
التي إني امرأة أيم وأريد أن أتزوج فما حق للزوج قال : « إن من حق الزوج  
على الزوجة إذا أرادها فراودها عن نفسها وهي على ظهر بعير لا تمنعه » ومن حقه  
، لا تعطى شيئاً من بيته إلا بإذنه فإن فعات ذلك كان الوزر عليها والأجر له ،  
من حقه أن لا تصوم تطوعاً إلا بإذنه فإن فعلت ذلك جاءت وعطشت ولم يتقبل  
بها ، وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو  
وب . فحقوق الزوج على زوجته كثيرة وأهمها أمران : أحدهما الصيانة والستر ،  
آخر : ترك المطالبة بما وراء الحاجة والتعفف عن كسبه إذا كان حراماً . ومن حقه  
والوالدين تعليمها حسن المعاشرة وآداب العشرة مع الزوج ، كما روى أن أسماء بنت  
عمة الفزارى قالت لا ينتها عند الزوج « إنك خرجت من العس الذي فيه  
ت فصرت إلى فراش لا تعرفيه وقرين لا تألفيه . فكوني له أرضاً يكن لك  
وكوني له مهاداً يكن لك عماداً . وكوني له أمة يكن لك عبداً . لا تألفي  
لك . ولا تباعدى منه فينساك . إن دنا منك فأقربى منه . وإن نأى فأبعدى

عنه . واحفظی أنفه وسمعه وعینه ، فلا یسمن منك إلا طیباً ، ولا یسمع إلا حسناً ، ولا یفظر إلا جمیلاً . فالقول الجامع فی آداب المرأة من غیر تطویل أن تكن قاعدة فی قعر بیتها ، لازمة لمنزلها ، لا یكثر صمودها واطلاعها ، قليلة الكلام لجيرانها لا تدخل علیهم إلا فی حال یوجب الدخول . تحفظ بعلمها فی غیبتها وحضرتها وتطلب مسرته فی جمیع أمورها ، ولا تخونه فی نفسها وماله ، ولا تخرج من بیتها إلا بإذنه فإن خرجت بإذنه فمختفیه فی هیئة رثة تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق ، محترزة من أن یسمع غریب صوتها أو یعرفها بشخصها ، لا تعرف إلى صديق بعلمها فی حاجاتها بل تنفكر علی من تظن أنه یعرفها أو تعرفه . همها صلاح شأنها وتدبیر بیتها ، مقبلة علی صلاتها وصیامها وإذا استأذن صديق لبعائها علی الباب ولیس البعل حاضرألم تستفهم ولم تعاوده فی الكلام غیرة علی نفسها وبعلمها وتكون قائمة من زوجها بما رزق الله وتقدم حقه علی حق نفسها وحق سائر أقاربها متعظفة فی نفسها مستعمدة فی الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء ، مشفقة علی أولادها ، حافظة لستر علیهم . قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الأزواج . (ومن آدابها) أن لا تتفاخر علی الزوج بجمالها ولا تزدری زوجها لقبحه . (ومن آدابها) ملازمة الصلاح والانقباض فی غیبة زوجها والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة فی حضور زوجها . (وما یجب علیها) من حقوق النكاح إذا مات عنها زوجها أن لا تحد علیه أكثر من أربعة أشهر وعشر ، وتتجنب الطیب والزینة فی هذه المدة . وقال صلی الله علیه وسلم : « لا یحل لامرأة تؤمن بالله والیوم الآخر أن تحد علی میت أكثر من ثلاثة أيام إلا علی زوج أربعة أشهر وعشراً » ويلزمها لزوم مسکن النكاح إلى آخر المدة ، ولیس لها الانتقال إلى أهلها ولا الخروج إلا لضرورة . (ومن آدابها) أن تقوم بكل خدمة فی الدار تقدر علیها كما كان علیه نساء الصحابة رضی الله عنهم أجمعین .



## كتاب آداب الكسب والمعاش

### فصل الكسب والحث عليه

أما من الكتاب فقوله تعالى : ( وجعلنا النهار معاشاً ) فذكره في معرض الامتنان ، وقال تعالى : ( وجعلنا لكم فيها مجازيل قليلاً ما تشكرون ) فجعلها ربك نعمة وطلب الشكر عليها ، وقال تعالى : ( فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ) وأما الأخبار فمنها قوله صلى الله عليه وسلم : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه » وكان صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسمي ، فقالوا : ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله تعالى ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لا تقولوا هذا فإنه إن كان خرج يسمي على ولده صغاراً فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسمي على نفسه يعمها فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسمي رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان » وقيل يا رسول الله أي الكسب أطيب ؟ قال « عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « خير الكسب كسب العامل إذا نصح » أي بأن أتقن وتجنب الفس وقام بحق الصنعة ، وقال عمر رضي الله عنه : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في أمر دنياه ولا في أمر آخرته ، وقيل لأحمد بن حنبل رضي الله عنه : ما تقول فيمن جلس في بيته أو مسجده ، وقال لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي ، فقال أحمد : هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله جهل رزقي تحت ظل رمحي » وقوله عليه السلام حين ذكر الطير ، فقال : « تفدو خصاصاً وتروح بطاناً » فذكر أنها تفدو في طلب الرزق ، وكان أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون في البر والبحر ، ويعملون في نجيلهم والقذوة بهم ، ومن ليس له مال موروث فلا ينجيه من ذلك إلا الكسب والتجارة ، نعم ترك الكسب أفضل لعالم مشتغل بتربية علم الظاهر مما ينتفع الناس به في دينهم كالمفتي - أى الفقيه والمفسر والمحدث وأمثالهم - أو رجل مشتغل بمصالح المسلمين كالسلطان والقاضي والشاهد ، فهؤلاء إذا كانوا يكفون من الأموال المرصدة للمصالح أو الأوقاف المسبلة على الفقراء أو العلماء فإقبالهم على ما هم فيه أفضل من اشتغالهم بالكسب . ولهذا أشار الصحابة على أبي بكر رضى الله عنهم بترك التجارة لما ولى الخلافة إذ كان ذلك يشغله عن المصالح ، وكان يأخذ كفايته من مال المصالح ، ورأى ذلك أولى ، ثم لما توفى أوصى برده إلى بيت المال ولكنه رآه في الابتداء أولى .

### بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة

اعلم أن المعاملة قد تجرى على وجه يشتمل على ظلم يتعرض به المعامل لسخط الله تعالى ، وهذا الظلم يعنى به ما استغفر به الغير وهو منقسم إلى ما يعم ضرورة وإلى ما يخص المعامل .

### القسم الأول فيما يعم ضرره - وهو أنواع

( الأول الاحتكار ) فادخار بائع الطعام له ينتظر به غلاء الأسعار ، هو ظلم عام ، صاحبه مذموم في الشرع - وذلك في وقت قلة الأطعمة وحاجة الناس إليه حتى يكون في تأخير بيعه ضرر ما - أما إذا اتسعت الأطعمة وكثرت واستغنى الناس عنها ولم يرغبوا فيها إلا بقيمة قليلة ، فانتظر صاحب الطعام ذلك ولم ينتظر قحطاً فليس في هذا إضرار - وأما إذا كان الزمان زمان قحط كان في ادخاره إضرار فلا ريب في تحريمه .

ومع عدم الضرر لا يخلو احتكار الأقوات عن كراهية ، فإنه ينتظر مبادئ الضرر وهو ارتفاع الأسعار ، وانتظار مبادئ الضرر أيضاً محذور كانتظار عين

والله دونه ، وانتظار عين الضرار أيضاً هو دون الإضرار فبقدر درجات  
 بزاز تتفاوت درجات الكراهية والتحريم .  
 (الثاني) ترويح الزيف من الدرهم في أثناء النقد فهو ظلم إذ يستضر به  
 من إن لم يعرف وإن عرف فسيروجه على غيره فيتردد في الأيدي ويعم الضرر  
 مع الفساد ويكون وزر الكل ووباله راجعاً إليه لأنه هو الذي فتح هذا  
 باب ، قال بعضهم إنفاق درهم زيف أشد من سرقة مائة درهم لأن السرقة  
 مية واحدة وقد تمت وانقطعت ومصيبة إنفاق الزيف قد يكون عليه وزرها  
 يموتها إلى مائة سنة أو مائتي سنة إلى أن يفنى ذلك الدرهم ، ويكون عليه  
 فسد من نقص أموال الناس - وطوبى لمن إذا مات مات معه ذنوبه والويل  
 لويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة أو أكثر يعذب بها في قبره ويسأل عنها  
 آخر انقراضها ، قال تعالى : ( ونكذب ما قدموا وآثارهم ) أي نكذب أيضاً  
 أخروه من آثار أعمالهم كما نكذب ما قدموه وفي مثله قوله تعالى : ( ينبأ  
 إنسان يومئذ بما قدم وأخر ) وإنما أخر آثار أعماله من سنة سيئة عمل بها  
 به ، وفي الزيف أمور : منها أنه إذا رد عليه شيء منه فينبغي أن يطرحه في بئر  
 يث لا تمتد إليه اليد وإياه أن يروجه في بيع آخر ، فإن أفسده بحيث لا يمكن  
 تعامل به جاز ، ومنها أنه يجب على التاجر تعلم النقد لئلا يسلم إلى أحد زيفاً  
 هو لا يدري فيكون آثماً بتقصيره في تعلم ذلك العلم ، فكل عمل علم به يتم  
 مع المسلمين فيجب تحصيله ، ومنها أنه إن كان في ماله قطعة نقرتها ناقصة عن  
 البلد فعليه أن يخبر بها معاملة وأن لا يعامل بها إلا من لا يستحل الترويح  
 في النقد بطريق القابض فأما من يستحل ذلك فتسليمه إليه تسليط له على  
 وهو كبيع العنب ممن يعلم أنه يتخذه خمرًا وذلك محذور وإعانة على الشر  
 فيكون فيه وسلوك طريق الحق بمثابة هذا في التجارة أشد من المواظبة على نوافل  
 . والتخلي لها .

القسم الثاني ما يخص ضرره المعامل

فكل ما يستضر به المعامل فهو ظلم وإنما العدل بأن لا يضر بأخيه المسلم والضابط الكلي فيه أن لا يحب لأخيه إلا ما يحب لنفسه ، فكل ما عومل به وشق عليه وثقل على قلبه فينبغي أن لا يعامل غيره به بل ينبغى أن يستوى عند درهمه ودرهم غيره . هذه جملة ، وأما تفصيله ففي أربعة أمور :

(الأول) أن لا يثني على السلامة بما ليس فيها لأنه كذب ، فإن قبل المشتري

ذلك فهو تلبيس وظلم ، وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة ، وأما الثناء على السلامة بذكر القدر الموجود فيها من غير مبالغة وإطناب فلا بأس به ، ولا ينبغى أن يحلف عليها البتة فإنه إن كان كاذباً فقد جاء باليمين الغموس وهي من الكبائر ، وإن كان صادقاً فقد جعل الله تعالى عرضه لإيمانه وقد أساء فيه ، إذ الدنيا أخس من أن يقصد ترويحها بذكر اسم الله من غير ضرورة ، وفي الخبر « ويل للتاجر من بلى والله ولا والله ، وويل للصانع من غد وبعد غد » وفي الخبر « اليمين الكاذبة منفة للسلامة محقة للبركة » .

(الثاني) أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيها وجليها ، ولا يكتم منها شيئاً

فذلك واجب ، فإن أخفاه كان ظالماً غاشاً والفسح حرام ، وكان تاركاً للنصح في المعاملة والنصح واجب ، ومهما أظهر أحسن وجهى الثوب وأخفى الثاني كان غاشاً ، وكذلك إذا عرض الثياب في المواضع المظلمة ، وكذلك إذا عرض أحسن فردى الخلف أو الفعل وأمثاله ، ويدل على تحريم الفسح ما روى أنه مر عليه السلام برجل يبيع طعاماً فأعجبه ، فأدخل يده فرأى بللاً ، فقال ما هذا ؟ قال أصابته السماء ، فقال : « فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غشنا فليس منا » ويدل على وجوب النصح بإظهار العيوب ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع جريراً على الإسلام ذهب لينصرف ف جذب ثوبه واشترط عليه النصح لكل مسلم فكان جرير إذا قام إلى السلامة يبيعها بصر عيوبها ، ثم خيره

وقال إن شئت فخذ وإن شئت فترك ، فقيل له إنك إذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع ، فقال : إنا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم ، وكان وائلة بن الأسقع واقفاً فباع رجل ناقه له بثلاثمائة درهم فقفل وائلة وقد ذهب الرجل وجعل يصيح به يا هذا اشتريتها للحم أو للظهر ؟ فقال بل للظهر ، فقال : إن بخنمها نقياً قد رأيتك وأنها لا تتابع السير ، فعاد غردها فنقصها البائع مائة درهم ، وقال لو وائلة رحمتك الله أفسدت على بيعي ، فقال إنا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم ، وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يحل لأحد يبيع ببيعاً إلا أن يبين آفته ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا تبينه » فقد فهموا من النصح أن لا يرضى لأخيه إلا ما يرضاه لنفسه ولم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل وزيادة المقامات ، بل اعتقدوا أنه من شروط الإسلام الداخلة تحت بيعتهم ، وهذا الأمر وإن كان يشق على النفس إلا أنه يتيسر على العبد باعتقاد أمرين : ( أحدهما ) أن تلبسه العيوب وتروى بجه السلع لا يزيد في رزقه بل يمحقه ويذهب ببركته ، وقد يهلك الله ما يجمعه من التلبسات دفعة واحدة ، فقد حكى أن واحداً كان له بقرة يحلبها ويخاط بابنها المساء ويبيع فجاء سيل ففرق البقرة فقال بعض أولاده إن تلك المياه المتفرقة التي صببناها في الابن اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة كيف وقد قال صلى الله عليه وسلم : « الهيمان إذا صدقاً ونصحاً بورك لهما في بيعهما وإذا كتما وكذبا نزلت بركة بيعهما » وفي الحديث : « يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا فإذا تخاونا رفع يده عنهما » فإذا لا يزيد مال من خيانة كما لا ينقص من صدقة ( والمعنى الثاني ) الذي لا بد من اعتقاده ليتم له النصح ويتيسر عليه أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من الدنيا وأن فوائد أموال الدنيا تنقضي بانقضاء العمر وتبقى مظالمها وأوزارها فكيف يستجيز العاقل أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير والخير كله سلامة الدين وفي الحديث : « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه » ومن علم

أن هذه الأمور قاذحة في إيمانه وأن إيمانه رأس ماله في تجارته في الآخرة لم يضيع رأس ماله المعد لعمر لا آخر له بسبب ربح ينتفع به أياماً معدودة ، وعن بعض التابعين أنه قال : لو دخلت الجامع وهو غاص بأهله وقبيل لي من خير هؤلاء ومن شرم ؟ لقلت : خيرهم أنصحهم وشرم أغشهم ، والغش حرام في البيوع والصنائع جميعاً ، ولا ينبغي أن يتهارن الصانع بعمله على وجه لو عامله به غيره لما ارتضاه لنفسه ، بل ينبغي أن يحسن الصنعة ويحكمها ، ثم يبين عيبها إن كان فيها عيب فبذلك يتخلص وسأل رجل حذاء ابن سالم ، فقال : كيف لي أن أسلم في بيع النعال ؟ فقال : اجعل الوجهين سواء ، ولا تفضل اليمنى على الأخرى ، وجود الحشو ، وليكن شيئاً واحداً تماماً وقارب بين الخرز ولا تطبق أحد النعلين على الآخر ، ومن ذلك ما سئل عنه أحمد بن حنبل رحمه الله من الرفو بحيث لا يتبين : وقال لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه وإنما يحل للرفاء إذا علم أنه يظهره أو أنه لا يريد لها للبيع ، فإن قلت : فلا تتم المعاملة مهما وجب على الإنسان أن يذكر عيوب المبيع ، فأقول : ليس كذلك إذ شرط التاجر أن لا يشتري للمبيع إلا الجيد الذي يرتضيه لنفسه لو أمسكه ولا يحتاج إلى تلبيس فمن تعود هذا لم يشر المبيع فإن وقع في يده معيب نادراً فليذكره وليقتنع بقيمته ، باع ابن سيرين شاة فقال للمشتري : أبرأ إليك من عيب فيها إنها تقاب العلف برجلها ، فمكذبا كانت سيرة أهل الدين (الثالث) أن لا يكتنم في المعيار وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفي الكيل ، فينبغي أن يكيل كما يكتال ، قال الله تعالى : (ويل للمطففين \* الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون \* وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجع إذا أعطى وينقص إذا أخذ ، إذ العدل الحقيقي قلما يتصور فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان ، فإن من استقصى حقه بكاله يوشك أن يعمدها ، وكان بعضهم يقول : لا أشتري الويل من الله بحبة ، وكل من خلط بالطعام تراباً أو غيره ثم كاله فهو من المطففين

في الكيل ، وكل قصاب وزن مع اللحم عظما لم تجر المادة بمثله فهو من المطففين في الوزن ، وقس على هذا سائر التقديرات حتى في الذرع الذي يتعاطاه البزاز فإنه إذا اشترى أرسل الثوب في وقت الذرع ولم يمدده مدأ ، وإذا باعه مده في الذرع ليظهر تفارتماً في القدر ، فكل ذلك من التطفيف الممرض صاحبه لاويل (الرابع) أن يصدق في سعر الوقت ولا يخفى منه شيئاً فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تلاقى الركبان ونهى عن النجش - أما تلاقى الركبان فهو أن يستقبل الرفقة ويتلقى المتاع ويكذب في سعر البلد فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تلاقوا الركبان » ومن تلقاها فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدم السوق (ونهى أيضاً) أن يبيع حاضر لباد وهو أن يقدم البدوي البلد ومعه قوت يريد أن يتسارع إلى بيعه فيقول له الحضري : اتركه عندي حتى أغالى في ثمنه وأنتظر ارتفاع سعره (ونهى أيضاً) عن النجش وهو أن يتقدم إلى البائع بين يدي الراغب المشتري ويطلب السلعة بزيادة وهو لا يريد لها ، وإنما يريد تحريك رغبة المشتري فيها ، فهذه المناهي تدل على أنه لا يجوز أن يلبس على البائع والمشتري في سعر الوقت ، ويكتم منه أسراً لو علمه لما أقدم على العقد ففعل هذا من الفش الحرام المضاد للنصح الواجب ، ومن ذلك أنه ليس له أن يغتحم فرصة وينتهز غفلة صاحب المتاع ويخفى من البائع غلاء السعر أو من المشتري تراجع الأسعار ، فإن فعل ذلك كان ظالماً تاركاً للعدل والنصح للمسلمين ، ومهما باع سراجه بأن يقول بعث بما قام على أو بما اشتريته فعليه أن يصدق ، ثم يجب عليه أن يخبر بما حدث بعد العقد من عيب أو نقصان .

### الإحسان في المعاملة

قد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً ، والعدل سبب النجاة فقط وهو يجري من التجارة مجرى سلامة رأس المال ، والإحسان سبب الفوز

ونيل السعادة ، وهو يجرى من التجارة مجرى الربح ، ولا يمد من القلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله فكذا في معاملات الآخرة ، ولا ينبغي للمؤمن أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان ، وقد قال الله تعالى ( وأحسن كما أحسن الله إليك ) وقال عز وجل : ( إن الله يأمر بالعدل والإحسان ) وقال سبحانه : ( إن رحمة الله قريب من المحسنين ) وينال المعامل رتبة الإحسان بواحد من ستة أمور : ( الأول ) في المفاينة ، فينبغي أن لا يفبن صاحبه بما لا يقفان به في العادة ، فأما أصل المفاينة فأذون فيه لأن البيع للربح ، ولا يمكن ذلك إلا بفبن ما ، ولكن يراعى فيه التقريب ، ومن قنع بربح قليل كثرت معاملاته ، واستفاد من تسكرها ربحاً كثيراً ، وبه تظهر البركة .

( الثاني ) في احتمال الفبن ، والمشتري إن اشترى طعاماً من ضعيف ، أو شيئاً من فقير ، فلا بأس أن يحتمل الفبن ويتساهل ، ويكون به محسناً وداخلاً في قوله عليه الصلاة والسلام : « رحم الله سهل البيع وسهل الشراء » وأما احتمال الفبن من الغنى فليس محموداً ، بل هو تضييع مال من غير أجر ولا حمد ، وكان كثير من السلف يستقصون في الشراء ويهبون مع ذلك الجزيل من المال ، فقل لبعضهم في ذلك فقال : إن الواهب يعطى فضله ، وإن المغبون يفبن عقله .

( الثالث ) في استيفاء الثمن وسائر الديون والإحسان فيه مرة بالمساهمة وحط البهض ومرة بالإمهال والتأخر ، ومرة بالمساهلة في طلب جودة النقد ، وكل ذلك مندوب إليه ومحث عليه . وفي الخبر : « من أقرض ديناراً إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله ، فإذا حل الأجل فأنظره بعده فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة » ونظر للنبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل يلازم رجلاً بدين فأوماً إلى صاحب الدين بيده ، أي ضع الشطر ، ففعل ، فقال للمديون : قم فأعطه ( الرابع في توفية الدين ) ومن الإحسان فيه حسن القضاء ، وذلك بأن يمشى إلى صاحب الحق ، ولا يكلفه أن يمشى إليه يتقاضاه ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « خيركم أحسنكم قضاء »



مهما قدر على قضاء الدين فليبادر إليه ولو قبل وقته ، وإن هجز فليؤنو قضاءه  
 بها قدر ، ومهما كلمه مستحق الحق بكلام خشن فليتهمله وليقابله بالاعطاف  
 فتداء رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ردد عليه كلامه صاحب الدين ، فهم به  
 صحابه ، فقال : « دعوه فإن لصاحب الحق مقالا » ومن الإحسان أن يعيل  
 الحكم إلى من عليه الدين لمسره (الخامس) أن يقيل من يستقيه ، فإنه لا يستقيل  
 إلا مقدم مستضر بالبيع ، ولا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار  
 غيره ، وفي الخبر : « من أقال نادماً صفتته أقال الله عشرته يوم القيامة »  
 (السادس) أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة ، وهو في الحال عازم  
 على أن لا يطالبهم إن لم يظهر لهم ميسرة ، وكان من السلف من يقول لفقير : خذ  
 ما تريد فإن يسرك فاقض وإلا فأنت في حل منه وسعة ؛ فهذه طرق تجارات  
 سلف ، وبالجملة فالتجارة محك الرجال وبها يمتحن دين الرجل وورعه .

### شفقة التاجر على دينه

لا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده ، فيكون عمره ضائعاً وصفقته  
 خامرة ، وما يفوته من الربح في الآخرة لا يفي به ما ينال في الدنيا ، فيكون  
 من اشترى الحياة الدنيا بالآخرة ، بل العاقل ينبغي أن يشفق على نفسه ، وشفقته  
 على نفسه يحفظ رأس ماله ، ورأس ماله دينه وتجارته فيه ، وإنما تتم شفقته على  
 دينه بمراعاة سبعة أمور :

(الأول) حسن النية في ابتداء التجارة فليؤنو بها الاستعفاف عن السؤال ،  
 وكف الطمع عن الناس استغناء بالحلال عنهم واستعانة بما يكسبه على الدين ،  
 وأما بكفاية العيال ليكون من جملة المجاهدين به ، وليؤنو النصح للمسلمين ،  
 يجب لسائر الخلق ما يجب لنفسه ، وليؤنو اتباع طريق العدل والإحسان  
 معاملته كما ذكرناه ، وليؤنو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل ما يراه

في السوق ، فإذا أضمر هذه النيات كان عاملاً في طريق الآخرة ، فإن استفاد فهو مزيد ، وإن خسر في الدنيا ربح في الآخرة .

(الثاني) أن يقصد القيام في صنفته ، أو تجارته بفرض من فرض الكفايات ، فإن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعاش وهلك الخلق ؛ فانقظام أمر الكل بتمام الكل وتكفل كل فريق بعمل ، الصناعات ما هي مهمة ، ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها إلى طلب والتزين في الدنيا ، فليشتغل بصناعة مهمة ليكون لقيامه بها كافي المسلمين مهمًا في الدين .

(الثالث) أن لا يمتنع سوق الدنيا عن سوق الآخرة ، وأسواق الآخرة المسماة قال الله تعالى : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) وكان السلف يتقدرون عند الأذان ، ويخلون الأسواق الذمة والصدقات .

(الرابع) أن لا يقتصر على هذا ، بل يلزم ذكر الله سبحانه في السوق وبشتغل بالتهليل والتسبيح ، فذكر الله في السوق بين الفاقين أفضل .

(الخامس) أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، وذلك يكون أرل داخل وآخر خارج .

(السادس) أن لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتقى مواقع الشك ومظان الريب ، ويستفتي قلبه ، فإذا وجد فيه حزاة اجتنبه ، وإذا إليه سلامة رابه أمرها سأل عنها ، وكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو أو رباً فلا يعامله .

(السابع) ينبغى أن يراقب جميع مجارى معاملته مع كل واحد من معارفه فإنه مراقب ومحاسب فليعد الجواب ليوم الحساب .

## كتاب الحلال والحرام

### فضيلة الحلال ومذمة الحرام

قال الله تعالى : ( كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ) أمر بالأكل من الطيبات قبل العمل . وقيل : إن المراد به الحلال ، وقال تعالى : ( ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ) وقال تعالى : ( إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ) وقال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ) ثم قال : ( فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ) ثم قال : ( وإن تبتم فالكم رؤوس أموالكم ) ثم قال : ( ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ) جعل آكل الربا في أول الأمر مؤذناً بمحاربة الله ، وفي آخره متعرضاً للنار . والآيات الواردة في الحلال والحرام لا تحصى . وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « طلب الحلال فريضة على كل مسلم » وقال بعض العلماء في قوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم : المراد به طلب علم الحلال والحرام ، وجعل المراد بالحديثين واحداً ، ولما ذكر صلى الله عليه وسلم الحريص على الدنيا قال : « رب أشعث أغبر مشرد في الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام يرفع يديه فيقول يا رب يا رب فأني يستجاب لذلك » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » وأما الآثار فقد ورد أن الصديق رضي الله عنه شرب ابناً من كسب عبده ثم سأل عبده ، فقال : تكلمت بقوم فأعطوني فأدخل أصابعه في فيه وجعل يقيء حتى ظننت أن نفسه ستخرج ، ثم قال : اللهم إني أعذر إليك مما حمت العروق وخالط الأمعاء . وكذلك شرب رضي الله عنه من ابن إبل الصدقة غاطماً ، فأدخل أصابعه وتقيأ . وقال سهل بن عبد الله : لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال : أداء الرائض

بالسنة ، وأكل الحلال بالورع ، واجتناب النهي ظاهراً وباطناً ، والصبر على ذلك إلى الموت . وكان بشر الخافي رحمه الله من الورعين ، فقيل له : من أين تأكل ؟ فقال : من حيث تأكلون ، ولكن ليس من يأكل وهو يبكي ، كمن يأكل وهو يضحك ، وقال : يد أقصر من يد ، ولقمة أصغر من لقمة ، وهكذا كانوا يحترزون من الشبهات .

### أصناف الحلال ومداخله

اعلم أن تفصيل الحلال والحرام إنما يقوى بيانه كتب الفقه ، ويستغنى المراد عن تطويله بأن يكون له طعمة معينة يعرف بالفتوى حلها ، وكان لا يأكل من غيرها ، فأما من يتوسع في الأكل من وجوه متفرقة فيفتقر إلى علم الحلال والحرام كله ، ونحن الآن نشير إلى مجامعه في سياق تقسيم ، وذلك أن المال إنما يحرم إما لمنى في عينه ، أو لخلال في جهة اكتسابه .

( القسم الأول ) الحرام لصفة في عينه كالخمر والخنزير وغيرها ، وتفصيله أو الأعيان الماء كولة على وجه الأرض لا تعدو ثلاثة أقسام ، فإنها إما أن تكون من المعادن كالمالح والطين وغيرها ، أو من النباتات ، أو من الحيوانات ، فأما المعادن فهي أجزاء الأرض وجميع ما يجري منها فلا يحرم أكله إلا من حيث أنه يضر بالآكل أو في بعضها ما يجري مجرى السم ، والخبز لو كان مضرًا لحرم أكله والطين الذي يعتمد أكله لا يحرم إلا من حيث الضرر .

( وأما النباتات ) فلا يحرم منه إلا ما يزيل العقل ، أو يزيل الحياة أو الصحة فزيل العقل البنج والخمر وسائر المسكرات ، ومزيل الحياة السموم ، ومزيل الصحة الأدوية في غير وقتها ، وكان مجموع هذا يرجع إلى الضرر إلا الخمر والمسكرات فإن الذي لا يسكر منها أيضاً حرام مع قلته .

( وأما الحيوانات ) فتقسم إلى ما يؤكل وإلى ما لا يؤكل ، وتفصيله في كتب الفقه ، وما يحل أكله فإنما يحل إذا ذبح ذبحاً شرعياً روعى فيه شر

الذابح والآلة والمذبح على ما يذكر في كتب الفقه ومالم يذبح ذبحاً شرعياً أو مات وهو حرام ، ولا يحل إلا ميتتان السمك والجراد .

( القسم الثاني ) ما يحرم لخلل في جهة إثبات اليد عليه ، ويتحصل منه أقسام :

( الأول ) ما يؤخذ من غير مالك : كنبيل المعادن وإحياء الموات والاصطياد والاحتطاب والاستقاء من الأنهار والاحتشاش فهذا حلال ، وشرطه أن لا يكون للأخوذ مخصصاً بذى حرمة من الآدميين .

( الثاني ) للأخوذ قهراً ممن لا حرمة له ، وهو الفيء والغنيمة وسائر أملاك الكفار المحاربين ، وذلك حلال للمسلمين إذا أخرجوا منها الخمس وقسموها بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد .

( الثالث ) ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة ، وذلك حلال إذا روعي فيه الشروط المصححة مع ما تعبد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة .

( الرابع ) ما يحصل بغير اختيار : كالميراث ، وهو حلال إذا كان الموروث قد اكتسب من وجه حلال ، ثم كان ذلك بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا ، وتعديل القسمة بين الورثة ، وإخراج الحج والزكاة والكفارة إن كان واجباً ، وبقي أقسام آخر ، ونحن أشرنا إلى جملتها ليعلم المرید أن كل ما يأكله من جهتها ينبغي أن يستفتى فيه أهل العلم ، ولا يقدم عليه بالجهل ، فإنه كما يقال للعالم : خالفت علمك ؟ يقال للجاهل : لم لازمت جهلك ، ولم تعلم بعد أن قيل لك : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ؟

### درجات الحلال والحرام

اعلم أن الحرام كله خبيث لكن بهضه أخبث من بعض ، والحلال كله طيب ، ولكن بهضه أطيب من بعض ، وأصفي من بعض . ولذا كان الورع الحرام على درجات ، فمنه الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء ، ومنه

الورع عما يتطرق إليه احتمال التحريم ، ومنه ما لا شبهة في حله لـكن يخاف منه  
أداؤه إلى محرم وهو ترك ما لا بأس به مخافة مما به بأس . ومنه ما لا يخاف منه  
أن يؤدي إلى ما به بأس ولـكنه يتناول غير الله ولا هلـى نية التقوى به على عبادة  
الله أو تطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية .

وقد حكى عن ابن سيرین أنه ترك لشريكه أربعة آلاف درهم لأنه حاك في  
قلبه شيء مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به . وكان لبعضهم مائة درهم على  
إنسان فحملها إليه فأخذ تسعة وتسعين وتورع عن استيفاء الكل خيفة الرياسة  
وكان بعضهم يتجر فكل ما يستوفيه يأخذه بنقصان حبة وما يعطيه بوزنه بزيادة  
حبة ، ومن ذلك لا حترز عما يتسامح به الناس فبن ذلك حلال في الفتوى  
ولـكن يخاف من فتح بابه أن ينجر إلى غيره وترث النفس الاستمرار وتترك  
تورع كما تورع بعضهم من أخذ ترويض من حائط بيت كان يسكنه بكراة ، وكما  
روى أن عمر بن عبد العزيز كان يوزن بين يديه ملك نصيبين فأخذ بأنفه  
حتى لا تصيبه رائحة . وقال من استعمل ذلك منه أهل ينتفع منه إلا بريحه  
ومنه من بعضهم كان عند محتضر مات ليلا فقل أعطوا المرح قد حدث  
تمرة حتى في لدهن ، وأحد حسن رضي لله عنه تمرة من تمر الصدقة وكان  
صغيرا ذكرا صبي في عبه وصرا كخ كخ) أي نعم ، وتقي الصدوق زفو فاعلم  
من لم ين صدق ربه رقيه ، وكان تسكمن فأنضى ابن أجرة ، وذلك خيفة  
من أن يحوث حرمه فيه قوة مع أنه شره عن جهن وكان لا يجب بخراجه  
ولـكن تحية لبطن عن خبيث من ورع الصديقين ، وبوجه ذلك كان أمير  
أحد مشركي على نفسه كان خلف ظهر يوم تقيته وأبى عن أن يترج كفة  
سبته هي كفة حسنة ، وبعد عمت حفيقة لأمر فيك خير فبن ذلك  
فأكثر من الاحتياط ، وبين ذلك فرخص ، ففمنك محتط ، وعلى نفسك  
فرخص وتلازم .

مراتب الشبهات

قال صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتهيات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ أمره ودينه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، فهذا الحديث نص في إثبات الأقسام الثلاثة ، والمشكل منها القسم المتوسط الذى لا يعرفه كثير من الناس وهو الشبهة فلا بد من بيانها فإن ما لا يعرفه لكثير فقد يعرفه القليل فنقول : ( الحلال المطلق ) ما خلا عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم في عينه وانحل عن أسبابه تحريم أو كراهة .

( والحرام المحض ) هو ما فيه صفة محرمة لا يشك فيها كالخمر لشدة المطربة والبول لنجاسته أو حصل بسبب منهى عنه قطعاً كالمحصل بالظلم والربا ونظائره ، وهذان طرفان ظاهران ويلتحق بالطرفين ما تحقق أمره ولكنه احتمال تغيره ولم يكن لذلك الاحتمال سبب يدل عليه ، والاحتمال المعدوم دلالة كالا احتمال المعدوم في نفسه . وأما الشبهة فما اشتبه علينا أمره بأن تعارض لنا فيه اعتقادان مدرا عن سببين متضادين للاعتقادين ؛ ولشبهة منارات :

( المنار الأول ) الشك في السبب المحلل والمحرم .

فإن تعادل الاحتمالان كان الحكم لما عرف قبله فيستصحب ولا يترك بالشك وإن غلب أحد الاحتمالين عليه بأن صدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب . ولا يقين هذا إلا بالأشكال والشواهد فلنقسمه إلى أقسام أربعة :

( القسم الأول ) أن يكون التحريم معلوماً من قبل ثم يقع الشك في المحلل شبهة يجب اجتنائها ويحرم الإقدام عليها .

( القسم الثانى ) أن يعرف الحل ويشك في المحرم فالأصل الحل وله الحكم .

( القسم الثالث ) أن يكون الأصل التحريم ولكن طراً ما أوجب تحليله بظن

غالب ، فهو مشكوك فيه والغالب حله ، فهذا ينظر فيه فإن استند غلبة الظن إلى سبب معتبر شرعاً فالذي يختار فيه أنه يحل وأن اجتنابه من الورع : مثاله أن يرمى إلى صيد فينوب ثم يدركه ميتاً وليس عليه أنرسوى سهمه ، ولكن يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر ، فالخيار أنه حلال لأن الجرح سبب ظاهر ، وقد تحقق ، والأصل أنه لم يطراً عليه غيره ، فطريانه مشكوك فيه ، فلا يدفع اليقين بالشك .

(القسم الرابع) أن يكون الحل معلوماً ولكن يغلب على الظن طريان محرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعاً فيرفع الاستصحاب ويقضى بالتحريم ، مثاله أن يؤدي اجتهاده إلى نجاسة أحد الإنامين بالاعتماد على علامة معينة توجب غلبة الظن فتوجب تحريم شر به كما توجب منع الضوء به .

المثار الثاني للشبهة شك منشؤه الاختلاط

وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال ويشتبه الأمر ولا يتميز ، واختلط أنواع نوع يقع بعدد محصور كما لو اختلطت مائة بذكاة أو بعشرة مذكاة أو اختلطت رضيمة بعشرة نسوة ، فهذه شبهة يجب اجتنابها بالإجماع لأنه لا مجال للاجتهاد والعلامات في هذا ، وإذا اختلطت بعدد محصور صارت الجملة كالشيء الواحد فتقابل فيه يقين التحريم والتحليل ، فضعف الاستصحاب ، وجانب الحظر أغلب في نظر الشرع فلذلك ترجح .

ونوع يقع فيه حرام محصور بحلال غير محصور كما لو اختلطت رضيمة أو عشرة رضائع بنسوة بلد كبيرة فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح أهل البلد بل له أن ينكح من شاء منهم ، وذلك لغلبة الحل والحاجة جميعاً إذ كل من ضاع له رضيع أو قريب أو محرم بمصاهرة أو سبب من الأسباب ، فلا يمكن أن يسد عليه باب النكاح . وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً لا يلزمه ترك الشراء والأكل ، فإن في ذلك حرج (وما في الدين من حرج) ويعلم هذا بأنه لما صرف



في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بجن وغل واحد في الفنيمة عبادة لم يمنع أحد من شراء الجن والعبادة في الدنيا وكذلك كل ما سرق ، وكذلك كان يعرف أن في الناس من يراى في الدراهم والدنانير ، وما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الناس الدراهم والدنانير بالكفاية . وأما إذا اختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر بحكم الأموال في زماننا هذا فإنه لا يحرم بهذا الاختلاط أن يتناول شيء بعينه احتمال أنه حرام وأنه حلال إلا أن يقتن بملك العين علامة تقلد على أنه من الحرام ، وقول القائل : أكثر الأموال حرام في زماننا غلط منشؤه استكثار النفوس الفساد واستعظامها له وإن كان نادراً حتى ربما يظن أن الزناة وشرب الخمر قد شاعوا كما شاع الحرام ، فيتخيل أنهم الأكثرون وهو خطأ فإنهم الأقلون وإن كان فيهم كثرة ، وبالجملة : فالأصل الحل ، ولا يرفع إلا بعلامة معينة .

المثار الثالث للشبهة أن يتصل بالسبب الحلال معصية

كالبيع في وقت النداء يوم الجمعة ، والذبح بالسكين المغصوبة ، والبيع على بيع الغير والسوم على سومه ، فكل نهى ورد في العقود ولم يدل على فساد العقد فإن الامتناع من جميع ذلك ورع لأن تناول الحاصل من هذه الأمور مكروه والكراهة تشبه التحريم ، ومثله كل تصرف يفضى في سياقه إلى معصية كبيع العنب من الخمر وبيع السلاح من قطاع الطريق ، وقد اختلف العلماء في صحة ذلك وفي حل الثمن المأخوذ منه ، والأقيس أن ذلك صحيح والمأخوذ حلال والرجل عاص بمقده كما يعصى بالذبح بالسكين المغصوبة والذبيحة حلال فإنه يعصى عصيان الإعانة على المعصية ، ولا يتعلق ذلك بعين العقد والمأخوذ من هذا مكروه كراهية شديدة وتركه من الورع .

( تنبيه )

لا ينبغي للإنسان أن يشغل بدقائق الورع إلا بحضوره عالم متقن ، فإنه إذا

جاءوا بها رسم له وتصرف بذهنه من غير سماع كان ما يفسده أكثر مما يصلحه ،  
والمتنطمون هم الذين يخشى عليهم أن يكونوا ممن قيل فيهم : ( الذين ضل سعيهم  
في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ) ولهذا قال : صلى الله عليه وسلم :  
« فضل العالم على العابد كفضلني على أدنى رجل من أصحابي » .

### البحث والسؤال في الحرام والحلال

اعلم أن كل من قدم إليك طعاماً أو هدية أو أردت أن تشتري منه أو تهب  
فليس لك أن تفتش عنه وتسال وتقول هذا مما لا أتحقق حله فلا آخذه بل أفتش  
عنه ، وليس لك أيضاً أن تترك البحث مطلقاً بل السؤال لا بد منه في مواقع  
الريبة ، ومنشأ الريبة بالنسبة لصاحب المال أن يكون مشكوكاً فيه أو معلوماً  
بنوع ظني يستند إلى دلالة . وبالنسبة للمال أن يختلط حرامه بحلاله ويكون الحرام  
أكثر مع يقين وجوده . فإذا كان الحرام هو الأقل واحتمل أن لا يكون موجوداً  
في الحلال لم يكن الأكل حراماً ولكن السؤال احتياط والامتناع منه ورع .  
وإنما يستل من صاحب اليد إذا لم يكن متهماً فإن كان متهماً بأنه ليس يدرى  
طريق كسب الحلال أو بأنه لا ثقة في أخباره وأمانته ، فليسأل من غيره ، فإذا  
أخبره عدل واحد قبله ، وإن أخبره فاسق علم من قرينة حاله أنه لا يكذب حيث  
لا غرض له فيه ، جاز قبوله ، لأن المطلوب ثقة النفس ، والمفتي هو القلب في مثل  
هذا الموضوع . ولالقلب التفاتات إلى قرآن خفية يضيق عنها نطاق النطق ، فإيتاء  
فيه ، فإذا اطمأن القلب كان الاحتراز حتماً واجباً .

### كيفية خروج القائب من المظالم المسالية

اعلم أن كل من تاب وفي يده مال مختلط ، فعليه وظيفة في تمييز الحرام  
وإخراجه ، ووظيفة أخرى في مصرف المخرج فليتنظر فيهما .  
( النظر الأول ) في كيفية التمييز والإخراج : من تاب وفي يده ما هو حر

معلوم المين من غصب أو وديعة أو غيره فأمره سهل فعليه تمييز الحرام وإن كان  
ماتبساً مختلطاً فيما أن يكون من ذوات الأمثال كالحبوب والنقود والأدهان  
أو يكون في أعيان متمايزة كالذور والثياب، فإن كان في المتماثلات أو كان شائماً  
في المال كله، كمن اكتسب المال بتجارة كذب في بعضها وكمن غصب  
دهناً وخلطه بدهن نفسه وفعل ذلك في الحبوب أو الدراهم والذنانير، فإن كان  
معلوم القدر مثل أن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام فعليه تمييز النصف،  
وإن أشكل فله طريقان: الأخذ باليقين، والأخرى الأخذ بغالب الظن، والورع  
في الطريق الأولى، فلا يستبقى إلا القدر الذي يتيقن أنه حلال.

(مسألة)

من ورث مالا ولم يدر من أين اكتسبه مورثه من حلال أم من حرام  
لم يكن ثم علامة فهو حلال باتفاق العلماء، وإن علم أن فيه حراماً وشك  
في قدره أخرج مقدار الحرام بالتحرى، وإن علم أن بعض ماله كان من  
الظلم فيلزمه إخراج ذلك القدر باجتهاد. وقال بعض العلماء لا يلزمه والإثم  
على المورث.

(النظر الثاني في المصرف) فإذا أخرج الحرام فله ثلاثة أحوال: إما أن  
يكون له مالك معين فيجب الصرف إليه أو إلى وارثه، وإن كان غائباً فينتظر  
ظهوره أو الإبصال إليه، وإن كانت له زيادة ومنفعة فلتجتمع فوائده إلى وقت  
ظهوره، وإما أن يكون للمالك غير معين وقع اليأس من الوقوف على عينه  
ليدرى أنه مات عن وارث أم لا، فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ويوقف  
في توضيح الأمر فيه وربما لا يمكن الرد لكثرة الملاك فهذا ينبغي أن يتصدق  
الملاك بضيع وتفوت المنفعة على المالك وعلى غيره، وله أن يتصدق على نفسه  
إذا كان فقيراً.

## کتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة

والمعاشرۃ مع أصناف الخلق

فضیلة الألفة والأخوة

اعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق ، والنفاق ثمرة سوء الخلق . فحسن الخلق  
یوجب التعاب والتألیف والتوافق ، وسوء الخلق یثمر التباعد والتحاسد  
والتدابیر . وحسن الخلق لا یخفی فی الدین فضیلتہ وهو الذی مدح الله سبحانه به نبیہ  
علیہ السلام إذ قال : ( وإنک لعلی خلق عظیم ) وقال النبی صلی الله علیہ وسلم :  
« أکثر ما یدخل الناس الجنة تقوی الله وحسن الخلق » وقال صلی الله علیہ وسلم  
« بعثت لأنعم محاسن الأخلاق » ولا یخفی أن ثمرة الخلق الحسن الألفة وانقطاع  
الوحشة ، وقد ورد فی الثناء علی نفس الألفة سیما إذا كانت الرابطة هی التقوی  
والدین وحب الله ، من الآیات والأخبار والآثار ما فیہ کفاية ومقنع : قال الله  
تعالی مظهراً عظیم منعمه علی المؤمنین : ( فأصبحتم بنعمته إخواناً ) أى بالألفة —  
وذم التفرقة ، وزجر عنها فقال تعالی : ( واعتصموا بحبل الله جمیعاً ، ولا تفرقوا )  
وقال صلی الله علیہ وسلم : « إن أقربکم منی مجلساً أحاسنکم أخلاقاً الوطنون  
أکنافاً الذین یألفون ویؤلفون » وقال صلی الله علیہ وسلم : « المؤمن آلف  
مألف ، ولا خیر فیمن لا یألف ولا یؤلف » وقال صلی الله علیہ وسلم : « من  
أراد الله به خیراً رزقه خلیلاً صالحاً ، إن نسی ذکراً وإن ذکر أعانه » وعنه :  
« ما تحاب اثنان فی الله إلا کان أحبهما إلى الله أشدهما حباً لصاحبه » وعنه صلی الله  
علیہ وسلم : « إن الله تعالی یقول حقت محبتی للذین یتزاورون من أجلی وحقت  
محبتی للذین یتحابون من أجلی ، وحقت محبتی للذین یتبذلون من أجلی وحقت  
محبتی للذین یتنامرون من أجلی » وعنه صلی الله علیہ وسلم : « إن أحبکم إلى الله  
الذین یألفون ویؤلفون ، وإن أبغضکم إلى الله المشاءون بالنیمة المفرقون بین

الإخوان « ومن الآثار ما روى عن الفضيل رحمه تعالى أنه قال : هاهنا تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن في داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بأى عمل حماته ، بأى شهوة تركتها ، بأى غيظ كظمته ، بأى رحم وصالها ، بأى زلة لأخيك غفرتها ، بأى قريب باعدته في الله ، بأى بعيد قاربته في الله ؟ وقال أيضاً : نظر الرجل إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة .

### تحقيق المحبة في الله

هو أن يحب المرء لا يحب لذاته بل إلى حظوظه الأخروية منه كمن يحب استقاده لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ، ومقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة - فهذا من جملة المحبين في الله . وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعاليم فهو محب في الله ، بل الذي يقصدق بأمواله لله ويجمع الضيفان ويهيء لهم الأطعمة اللذيذة الغريبة تقرباً إلى الله فأحب طبائخاً لحسن صنعته في الطبخ فهو من جملة المحبين في الله وكذا لو أحب من يتولى له إيصال الصدقة إلى المستحقين فقد أحبه في الله أو أحب من يخدمه بنفسه في غسل ثيابه وكفس بيته وطبخ طعامه ، ويفرغه بذلك للعلم أو العمل ومقصوده من استخدامه في هذه الأعمال الفراغ للعبادة فهو محب في الله . أو أحب من ينفق عليه من ماله ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع أغراضه التي يقصدها في دنياه ومقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل المقرب إلى الله فهو محب في الله . فقد كان جماعة من الساف تكفل بكفائتهم جماعة من أولى الثروة وكان المواسي والمواسي جميعاً من المتحابين في الله ، وكذا من نكح امرأة سالحة ليقصن بها عن وسواس الشيطان ويصون بها دينه أو ليولد له منها ولد صالح أو أحب زوجته لأنها آتة إلى هذه المقاصد الدينية فهو محب في الله ، وكذا إذا اجتمع في قلبه محبة الله والدنيا كمن أحب من يعلمه الدين ويكفيه مهمات الدنيا

بالمواساة في المال فهو محب في الله . وليس من شرط حب الله أن لا يحب في العاجل حظ البتة إذ الدعاء الذي أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فيه جمع بين الدنيا والآخرة ( ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ) وفي المأثور : « اللهم إني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة » ثم إذا قوى الحب في الله حمل على الموالاة والنصرة والذب بالنفس والمال واللسان وتفاوتت الناس فيه بحسب تفاوتهم في حب الله عز وجل إلا أنه يتمتعن الحب بالمقابلة بحفظ النفس وقد يغلب بحيث لا يبقى للنفس حظ إلا فيما هو حظ المحبوب وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحفظ دون بعض كما تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه في نصف ماله أو في ثلثه أو في عشره فمقادير الأموال موازين المحبة إذ لا يعرف درجة المحبوب إلا بمحسوب يترك في مقابلته ، فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يمسك لنفسه شيئاً مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه سلم ابنته التي هي قرّة عينه وبذل جميع ماله فحصل من هذا أن كل من أحب عالماً أو عابداً أو أحب شخصاً راغباً في علم أو في عبادة أو في خير فإنما أحبه في الله والله ، وله فيه من الأجر والثواب بقدر قوة حبه .

### بيان البغض في الله

اعلم أن كل من يحب في الله لا بد أن يبغض في الله ، فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله فإن عصاه فلا بد أن تبغضه لأنه عاص لله وعمقوت عند الله ، ومن أحب لسبب فبالضرورة يبغض لضده ، وإظهار البغض يكون بكف اللسان عن مكالمته ومحادثته والإعراض والتباعد عنه وقلة الالتفات إليه أو بالاستخفاف والتغليظ في القول وذلك بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه - أما ما يجري مجرى الهفوة التي يعلم أنه متقدم عليها فالأولى فيه الستر والإغماض .

الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته

اعلم أنه لا يصلح للصحبة كل إنسان ، قال صلى الله عليه وسلم : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » ولا بد أن يتميز بمخصال وصفات يرغب بسببها في صحبته ، وجهاتها أن يكون عاقلاً حسن الخلق غير فاسق ولا حريص على الدنيا . أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير في صحبة الأحمق قالى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت ، وقد قيل مقاطعة الأحمق قربان إلى الله . وأما حسن الخلق فلا بد منه ، فإن من غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن وأطاع هواه فلا خير في صحبته — وأما الفاسق المصير على فسقه فلا فائدة في صحبته بل مشاهدته تهون أمر المعصية على النفس وتبطل نفرة القلب عنها ، ولأن من يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأغراض : قال الله تعالى : ( ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ) وقال تعالى : ( فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ) وقال تعالى : ( واتبع سبيل من أناب إلى ) وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق . وأوصى علقمة ابنه ، فقال : « يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك وإن صحبته زانك وإن قدمت بك مؤنة مانك ، اصحب من إذا مدت يدك بخير مداها ، وإن رأى منك حسنة عداها وإن رأى سيئة سداها ، اصحب من إذا سأله أعطاك وإن سكت ابتداك ، وإن نزلت بك نازلة واساك ، اصحب من إذا قلت صدق قولك ، وإن حاولت أمراً آزرك وإن تنازعتما آثرك » ثم قال رضى الله عنه :

إن أخاك الحق من كان معك      ومن يضر نفسه لينفك  
ومن إذا ريب الزمان صدحك      شئت فيه شمله ليجمك

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: لا تصحب إلا أحد رجلين : رجلاً ترتفع في أمر دنياك ، أو رجلاً تزيد معه وتنتفع به في أمر آخرتك ، والاشتغال بغير

هذين حق كبير . وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل ، لأن الطباع مجبولة على التشبه والافتداء ، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه . فجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص ، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا ، فلذلك تذكره صحبة طلاب الدنيا ، وتطلب صحبة العلماء والحكماء . قال لقمان لابنه : يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك ، فإن القلوب لنحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر .

### حقوق الأخوة والصحبة

اعلم أن لأخيك عليك حقاً من المال ، وفي الإعانة بالنفس ، وفي اللسان والقلب وفي العفو ، وفي الدعاء ، وفي الوفاء والإخلاص ، وفي التضعيف وفي ترك التكلف والتكليف ، وذلك يجعلها ثمانية جعل .

### الحق الأول في المال

روى أن « مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداها الأخرى » وذلك لأنهما يتعاونان على غرض واحد وكذلك الأخوان إنما تتم أخوتهما إذا ترافقا في مقصد واحد فهما من وجه كالشخص الواحد ، وهذا يقتضي المساهمة في السراء والضراء والمشاركة في المال والحال وارتفاع الاختصاص والاستئثار والمواساة بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب : أدناها أن تنزله منزلة خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك ، فإذا سئمت له حاجة وكانت عندك فضلة من حاجتك أعطيته ابتداء ولم توجه إلى السؤال فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة .

( الثانية ) أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته في المال .

( والثالثة ) هي العليا أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك



وهذه رتبة الصديقين ومنتهى رتبة المقربين ، ومنتهى هذه الرتبة الإيثار بالنفس أيضاً . فإن لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أن عقد الأخوة لم ينفقد بعد في الباطن ، وإنما الجارى بينكما مخالطة رسمية لا وقع لها في العقل والدين . فقد قال ميمون بن مهران من رضى من الإخوان بترك الإفضال فليؤاخ أهل القبور ، وأما الدرجة الأولى فليست أيضاً مرضية عند ذوى الدين . روى أن عتبة الغلام رحمه الله جاء إلى منزل رجل كان قد آخاه فقال أحجاج من مالك إلى أربعة آلاف فقال خذ ألفين فأعرض عنه ، وقال آثرت الدنيا على الله أما استحببت أن تدعى الأخوة في الله وتقول هذا . وأما الرتبة العالما فهي التي وصف الله تعالى المؤمنين بها في قوله : ( وأمرهم شورى بينهم . . . . . ) وما رزقناهم ينفقون ) أى كانوا خلطاء في الأموال لا يميز بعضهم رحله عن بعض ، وكان منهم من لا يصحب من قال نعل ، لأنه أضافه إلى نفسه . ومنهم من كان يمتق أمته إذا حدثته بمجىء أخيه وأخذه من ماله حاجته في غيبته سروراً بما فعل . وقال زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما لرجل : هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذن ؟ قال لا ، قل فلستم بإخوان . وقال ابن عمر رضى الله عنهما : أهدي لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله رأس شاة فقال أخى فلان أحوج منى إليه فبعث به إليه فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر فلم يزل به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة . وقال أبو سليمان الداراني لو أن الدنيا كلها إلى فعملتها في فم أخ من إخواني لاستقلتها له — ولما كان الإنفاق على الإخوان أفضل من الصدقات على الفقراء . قال على رضى الله عنه : لعشرون درهماً أعطيتها أخى في الله أحب إلى من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين . ومن الصفاء في الأخوة الانبساط في بيوت الإخوان كما كان عليه كثير من السلف : وقد قال الله تعالى : ( ولو صدقتمكم ) وقال : ( أو ما ملكتم مفاتيحه ) إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته

إلى أخيه ويفوض إليه التصرف كما يريد ، وكان يتحرج عن الأكل بحكم التقوى حتى أنزل الله هذه الآية ، وأذن لهم في الانبساط في طعام الإخوان والأصدقاء .

### الحق الثاني في الإعانة بالنفس

وكذلك في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة . وهذه أيضاً لها درجات فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ولكن مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنفعة ، قال بعضهم : إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فاعلمه أن يكون قد نسي فإن لم يقضها فكبر عليه واقراً هذه الآية ( والموتى يبعثهم الله ) وكان من السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجتهم ويتردد كل يوم إليهم ويمسحهم من ماله فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه ، بل كانوا يرون منهم ما لم يروا من أبيهم في حياته ، وكان أحدهم يتردد إلى باب دار أخيه يقوم بحاجته من حيث لا يعرفه أخوه ، وبهذا تظهر الشفقة والأخوة إذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها ، قال ميمون بن مهران : من لم تلتقم بصداقته لم تضرك عداوته .

وبالجملة فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم من حاجتك ، وأن تكون متفقداً لأوقات الحاجة غير غافل عن أحوال نفسك ، وتفنيه عن السؤال إلى الاستعانة ولا ترى لنفسك حقاً بسبب قيامك بها بل تتعبد منه بقبوله سميت في حقه وقيامك بأمره .

وقال عطاء : تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث : فإن كانوا مرضى فدورهم ، أو مشاغيل فأعينوهم ، أو كانوا نسوا فذكروهم .

وقال سعيد بن العاص : للجليبي على ثلاث : إذا دنا رحبت به ، وإذا حدثت أقبلت عليه ، وإذا جلس أوسعت له . وقد قال تعالى : ( رحماء بينهم )

أثرة إلى الشفقة والإكرام ، ومن تمام الشفقة أن لا يتفرد بطعام لذيذ أو  
مور في مسرة دونه ، بل يتنفس إفراده ، ويستوحش بانفراده عن أخيه .

### الحق الثالث على اللسان

وذلك بالسكوت مرة ، وبالناطق أخرى . أما السكوت فهو أن بسكت عن  
ذكر عيوبه في غيبته وحضرته بل يتجاهل عنه وبسكت عن الرد عليه فيما يتكلم  
به ولا يماريه ولا يناقشه ، وأن بسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله ،  
وإذا رآه في طريق أو حاجة لم يفتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأل  
قربما ينقل عليه ذكره أو يحتاج إلى أن يكذب فيه . وليسكت عن أسراره التي  
بها إليها ولا يبينها إلى غيره البتة ، ولا إلى أخص أصدقائه ، ولا يكشف شيئاً  
منها ولو بعد القطيعة والوحشة فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن ، وأن  
بسكت عن المدح في أحبائه وأهله وولده ، وأن بسكت عن حكاية قدح غيره  
فيه فإن الذي سببك من باغك ، ولا ينبغي أن يخفى ما يسمع من الثناء عليه ،  
فإن السرور أولاً به يحصل من المبالغ للمدح ثم من القائل وإخفاء ذلك من الحسد  
وبالجملة فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلاً إلا إذا وجب عليه النطق  
في أمر معروف أو نهى عن منكر ولم يجد رخصة في السكوت فإذا ذلك لا يبالي  
بكرامته فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر .  
أما ذكر مساوئه وعيوبه ومساوئ أهله فهو من الغيبة وذلك حرام في حق كل  
مسلم ، ويترك عنه أمران :

(أحدهما) أن تطالع أحوال نفسك فإن وجدت فيها شيئاً واحداً مذموماً  
دون على نفسك ما تراه من أخيك وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة  
واحدة كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به ولا تستثقله بخصله واحدة مذمومة فأى  
حال المذهب .

(والأمر الثاني) أن تعلم أنك لو طلبت منزهاً عن عيب اعتزلت عن الخلق كافة وإن تجد من تصاحبه أصلاً ، فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوي فإذا غلبت المحاسن المساويء فهو الغاية والمفتى . فالؤمن الكريم أبداً يحضر نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام . وأما المنافق الكاذب فإنه أبداً يلاحظ المساويء والعيوب . قال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذ والمنافق يطالب العثرات ، وقال الفضيل : الفتوة : العفو عن زلات الإخوات ولذلك قال عليه السلام : « استعينوا بالله من جار السوء الذي إن رأى خيراً ستره وإن رأى شراً أظهره » وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساويهم يجب عليك السكوت بقلبك وذلك بترك إساءة الظن ؛ فسوء الظن غيبة بالقلب وهو منهي عنه أيضاً ، وحده أن لا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن يحمد على وجه خير . فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة ، فاحمله على سهو ونسيان إن أمكن وسوء الظن يدعو إلى التجسس والتحسس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الإخوانا » والتجسس في تطالع الأخبار ، والتحسس بالمراقبة بالعين ، فسوء العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين . واعلم أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به ، ومنشأ التقصير في ستر العورة أو السعي في كشفها الداء اللدني وهو الحقد والحسد : ومن في قلبه سخيمة على مسلم فإيمانه ضعيف وأمره خطر وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله (ومن ذلك) أن يسكت عن إنشاء سره الذي استودعه وله أن ينكره وإن كان كاذباً فليس الصدق واجباً في كل مقام فليس كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب فله أن يفعل ذلك في حق أخيه فإن أخاه نازل منزلته وهما كشخص واحد لا يختلف إلا بالبدن هذا حقيقة الأخوة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « من ستر عوني

ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة » وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا حدث  
 رجل بحديث ثم التفت فهو أمانة » وقال : « المجالس بالأمانة » وفي رواية :  
 إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة ، ولا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه  
 ما يكره » قيل لبعضهم : كيف حفظك السر ؟ قال : أنا قبره فإن صدور  
 حرار قبور الأسرار . وأفشى بعضهم سرأ له إلى أخيه ثم قال له : حفظت ؟  
 قال : بل نسيت . وقال العباس لابنه عبد الله : إني أرى هذا الرجل — يعني  
 رضى الله عنه — يقدمك على الأشياخ فاحفظ مني خمساً : لا تفشين له  
 أ ، ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا يجربن عليك كذباً ، ولا تعصين له أمراً ،  
 يطامن منك على خيانة . فقال الشعبي : كل كلمة من هذه الخمس خير من  
 ( ومن ذلك ) السكوت عن المارة والمدافعة في كل ما يتكلم به أخوك  
 قال ابن عباس : لا تمار سفيهاً فيؤذيك ، ولا حليماً فيقلبك ، وقد قال صلى الله عليه  
 وسلم : « من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في أربض الجنة . ومن ترك  
 المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة » هذا مع أن تركه مبطلا واجب ،  
 وقيل ثواب النفل أعظم لأن السكوت على الحق أشد على النفس من السكوت  
 على الباطل ، وإنما الأجر على قدر النصب ، وأشد الأسباب لإثارة نار الحقد  
 بين الإخوان المارة والمناقشة فإنها عين التدابر والتقاطع فإن التقاطع يقع أولاً  
 بالأراء ثم بالأقوال ثم بالأبدان ، وقال عليه السلام : « لا تدابروا ولا تباغضوا  
 ولا تماسدوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا » وقد قال رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يجرمه ولا يخذله ، بحسب المرء من  
 أن يحقر أخاه المسلم » وأشد الاحتقار المارة فإن من رد على غيره كلاماً  
 نسيه إلى الجهل أو الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه ، وكل ذلك  
 احتقار وإيفار للصدر وإيماش ، وفي حديث أبي أمامة قال : خرج علينا  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتمازى فنفضب وقال : « ذروا المراء أقله خيره

وذروا المرء فإن نفعه قليل وإنه يهيج العداوة بين الإخوان ، وقال بعض السلف : من لاحى الإخوان وماراهم قلت مروءته ، وذهبت كرامته ، وقال غيره : إياك وممارة الرجال ، فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم ، قال الحسن : لا تشتت هداوة رجل بمودة ألف رجل — وعلى الجملة : فلا باعث على الممارة إلا إظهار التمييز بمزيد العقل والفضل واحتقار المردود عليه بإظهار جماله وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والإيذاء والشتم بالحق والجهل ، ولا معنى للمادة إلا هذا فكيف تضام الأخوة والمصافاة ، فقد روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تمار أخاك ولا تمارحه ولا تعد موهداً فتخافه » ، وقد قال عليه السلام : « إنكم لا تسمعون الناس بأموالكم ولكن ليسمعهم منكم بسط وجهه وحسن خلقه » والممارة مضادة لحسن الخلق — واعلم أن قوام الأخوة بالموافقة في الكلام والفعل والشفقة .

الحق الرابع على اللسان بالنطق

الأخوة كما تقتضى السكوت عن المكاره تقتضى أيضاً النطق بالحجاب هو أخص بالأخوة ، لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور ، وإنما يربى بالأخوة ليستفاد منهم لا ليخلص عن أذامهم ، والسكوت معناه كف الأذى فعد أن يتوود إليه بلسانه ، ويتفقد في أحواله التي يجب أن يتفقد فيها كالسؤال عارض إن عرض وإظهار شغل القلب بسببه ، واستبطاء العافية عنه وكذا أحواله التي يكرهها ينبغي أن يظهر بلسانه وأفعاله كراحتها وجملة أحواله يسر بها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركتة له في السرور بها ، فمنى الأخوة السكوت في السراء والضراء ، وقد قال عليه السلام : « إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب ، فإن عرف أنك تحبه أحب بالطبع لا محالة فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف ، والتحاب المؤمنین مطلوب في الشرع ومحبوب في الدين ، ولذلك علم النبي صلى الله عليه

الطريق ، فقال : « تهادوا تحابوا » ومن ذلك أن تدعوه بأحب أسمائه إليه غيبته وحضوره ، قال عمر رضى الله عنه « ثلاث يصفين لك ود أخيك : أن لم عليه إذا لقيته أولاً ، وتوسع له في المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه » ، من ذلك أن تثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده من ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة ، وكذلك الثناء على أولاده وأهل بيته وفعله حتى على عقله وخلقه وهيبته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح بذلك من غير كذب وإفراط ، وإن كان تحسین ما يقبل التحسين لا بد منه ، كد من ذلك أن تبالغه ثناء من أثني عليه مع إظهار الفرح فإن إخفاء ذلك من الحسد، ومن ذلك أن تشكره على صنيعه في حقتك بل على نيته وإن لم يتم ذلك. عظم من ذلك تأثيراً في جلب المحبة الذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض ، فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة كبيت المتعنت وتغليظ القول عليه ، والسكوت عن ذلك موغر للمصدر ، من ذلك ، وتقصير في حق الأخوة ، وإهماله لتمزيق عرضه كإهماله لتمزيق غيره ، فأخس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحومك وهو ساكت لا تحركه الشفقة والحمية للدفع عنك ، وتمزيق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم ولذلك شبهة الله تعالى بأكل لحوم الميتة ، فقال : ( أوجب أحدكم أن يكل لحم أخيه ميتاً ) فإذا ن حمية الأخوة بدفع ذم الأعداء وتمنت المتعنتين في عقد الأخوة ، وقال بعضهم : ما ذكر أخ لي بغيب إلا تصورته جالسا فيه ما يجب أن يسمع لو حضر ، ومن ذلك التعليم والنصيحة فليس حاجة إلى العلم بأقل من حاجته إلى المسال ، فإن كنت غنياً بالعلم فعاينك مواساته بملك وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا ، فإن علمه وأرشدته ولم يقتضى العلم فعاينك للنصيحة ، وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائده وما يكرهه في الدنيا والآخرة لينزجر عنه وتنبيهه على عيوبه ، وإن كان

ینبغی أن یكون ذلك فی سر لا یطلع علیه أحد فما كان علی الملأ فہو نضیحة  
 وما كان فی السر فہو شفقة ونضیحة ، قال ذو النون : « لا تصحب مع اللہ إلا  
 بالموافقة ، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا تظلم  
 أن فی نصح أخیک إیحاشاً لقلبه ، فإن فی تنبیہہ علی ما لا یعلمہ عین الشفقة وہو  
 استمالة القلوب ، أعنی قلوب العقلاء ، وأما الحمقى فلا یلتفت إلیہم فإن من ینہل  
 علی فعل مذموم تعاطیة أو صفة مذمومة اتصفت بہا تزکی نفسك عنها كان کما  
 ینبہک علی حیة أو عقرب تحت ذیلک وقد همت بإہلاکک فإن کنت تکر  
 ذلک فما أشد حتمک ، والصفات الذمیمة عقارب وحیات وہی فی الآخرة  
 مہاسکات ، فإنہا تلدغ القلوب والأرواح وألمها أشد مما یلدغ الظواہر والأجسام  
 وہی مخلوقة من نار اللہ الموقدة ، ولذلك كان ہر رضی اللہ عنہ یتہدی ذلک  
 إخوانہ ویقول : رحم اللہ امرأ أهدى إلى أخیہ عیوبہ ، ومن کتاب بہ  
 السلف لأخیہ : اعلم أن من قرأ القرآن وآثر الدنیالم آمن أن یكون بآیات  
 من المستہزئین ، وقد وصف اللہ تعالی السکاذبین ببعضہم للفاصلین ، إذ قال  
 (واکن لا تحبون الفاصلین) ، وهذا فی غیب هو غافل عنہ ، فأما ما یظن  
 فلا بد من التلطف بنصیحة بالتمریض مرة والتصریح أخرى إلى حد لا یؤدی  
 الإیحاش ، فإن علمت أن النصح غیر مؤثر فیہ ، وأنه مضطر من طبعہ  
 الإصرار علیہ فالسکوت عنہ أولى ، وهذا کله فیما یعلق بمصالح أخیک فی  
 أو دنیاه ، أما ما یعلق بتقصیرہ فی حتمک ، فالواجب فیہ الاحتمال والعفو والصفح  
 والتمای عنہ ، والتمریض لذلك لیس من النصح فی شئ ، نعم إن کان بحکم  
 یؤدی استمرارہ علیہ إلى القطیعة ، فالعتاب فی السر خیر من القطیعة  
 والتمریض بہ خیر من التصریح ، والکتابہ خیر من المشافہة ، والاحتمال  
 من السکل .



الحق الخامس العفو عن الزلات والمفوات

هفوة الصديق إن كانت في دينه فلا بد من القاطف في نصحه كما قدمنا فإن  
أصر فن السلف من رأى مقاطعته ، ومنهم من رأى إدامة حق مودته وبنفس  
عمله ، وأما زائمه في حقه بما يوجب إيمانه ، فلا خلاف في أن الأولى العفو  
والاحتمال بل كل ما يحتمل تنزيله على وجه حسن ، ويتصور تمهيد عذر فيه  
قريب أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة ، فقد قيل : ينبغي أن تستنبط لئلة أخيك  
سببها عذراً فإن لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك ، فتقول لقلبك ما أقساك  
باعتذار إليك أخوك سببها عذراً فلا تقبله فأنت المعيب لا أخوك ، وقال الأحنف  
« حق الصديق أن تحتمل منه ثلاثاً : ظلم الغضب ، وظلم الدولة ، وظلم الهفوة »  
ومهما اعتذر إليك أخوك كاذباً كان أو صادقاً فاقبل عذره ، فالمؤمن إن غضب  
فهو سريع الرضاء ، وينبغي أن لا يبالغ في البغضة عند الوقعة ، قال تعالى :  
( عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودة ) وقال عمر رضي الله عنه :  
لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً ، وهو أن تحب تاف صاحبك .

الحق السادس الدعاء للأخ

فتدعوه في حياته ومماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل متعاق به كما لنفسك  
وفي الحديث : « إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك والملك مثل ذلك »  
وفي حديث آخر : « دعوة الرجل لأخيه في ظهر الغيب لا ترد » ، وكان  
أبو الدرداء يقول : إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي أسميهم بأسمائهم  
كأن محمد بن يوسف الأصغراني يقول : وأين مثل الأخ الصالح ؟ أهلاك يقتسمون  
برائك ويتنعمون بما خلفت وهو منفرد بحزك مهتم بما قدمت وما عرت إليه  
فولك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى ، ومن بعض السلف : الدعاء  
بصوات بمنزلة الهدايا للأحياء .

## الحق السابع الوفاء والإخلاص

ومعنى الوفاء الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه فإن الحب إنما يراد الآخرة فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم أكرم مجوزاً دخلت عليه فقيل له في ذلك فقال : « إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن كرم العهد من الدين » فمن الوفاء الأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه المتعلقين به ، ومراعاتهم أوقع في قلب الصديق من مراعاة الأخ في نفسه فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر لدلالته على قوة الشفقة والحب ، ومن ثمرات المودة في الله أن لا تكون مع حسد في دين ودنيا وكيف يحسده وكل ما هو لأخيه فالإيه ترجع فائدته وبه وصف الله تعالى المحبين في الله تعالى قال : ( ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم )  
ووجود الحاجة هو الحسد .

( ومن الوفاء ) أن لا يتغير حاله في التواصل مع أخيه ، وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه ، والترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لوم ، قال الشاعر :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم بالمنزل الخشن  
واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين من الوفاء له المخالفة والنصح لله .

ومن آثار الصدق والإخلاص وتتمام الوفاء ، أن تكون شديد الجزع من المفارقة نفور الطبع عن أسبابها كما قيل :

وجدت مصيبيات الزمان جميعها سوى فرقة الأحباب هيبة الخطب  
وأشده ابن عيينة هذا البيت ، وقال : لقد عهدت أقواماً فارقتهم منذ ثلاثين سنة ما يخيل إلى أن حسرتهم ذهبت من قلوبى .

( ومن الوفاء ) أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه .

(ومن الوفاء) أن لا يصادق عدو صديقه ، قال الشافعي رحمه الله : إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عداوتك (١) .

### الحق الثامن التخفيف وترك التكلف والتكليف

وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه بل يروح سره من مهماته وحاجاته ويرفقه على أن يحمله شيئاً من أعبائه ، فلا يكلفه القيام بحقوقه بل لا يقصد بحبته إلا الله تعالى استعانة به على دينه واستئناساً ببلقائه وتقرباً إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمل مؤنته ، قال بعضهم من اقتضى من إخوانه ما لا يقتضونه منه فقد ظلمهم ، ومن اقتضى منهم مثل ما يقتضونه فقد أتعبهم ومن لم يقتض منهم المتفضل عليهم وتماخى بهم بطى بساط التكليف حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي من نفسه ، وقال علي رضي الله عنه : شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلى مداراة وأجلك إلى اعتذار ، وقال الفضيل : إنما تقاطع الناس بالتكلف يزور أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه ، وكان جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما يقول : أثقل إخواني علي من يتكلف لي وأتحفظ منه ، وأخفهم علي قلبي من أكون معه كما أكون وحدي .

(ومن التخفيف وترك التكلف) أن لا يعترض في نوافل العبادات : كان طائفة من الصوفية يصطحبون على أن أحدهم إن أكل النهار كله لم يقل له صاحبه صم ، وإن صام الدهر كله لم يقل له أفطر ، وإن نام الليل كله لم يقل له قم ، وإن صلى الليل كله لم يقل له نم وتستوى حالاته عنده بلا مزيد ولا نقصان ،

(١) أقول ما أظف ما قاله ابن المقفم في الدرة اليتيمة في باب الصديق في هذا المقام ما مثاله : إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يفضينك ذلك ، فإنما هو أحد رجلين : إن كان رجلاً من إخوان الثقة فأنفع موطنه لك أقربها من عدوك لغمر يكفيه عنك وعورة يسترها منك وغائبة يطلع عليها لك ، فأما صديقك فإخفاك أن يحضره ذو ثقتك ، وإن كان رجلاً غير خاصة لإخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس وتكلفه أن لا يصاحب ولا يجالس إلا من تهواه ، وهو كلام جيد يأخذ بيد الواقف إلى الإنصاف .

وقد قيل: من سقطت كلفته [خفت مؤنته] ، ومن خفت مؤنته دامت مودته ، وقال بعضهم: إذا عمل الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به إذا أكل عنده ودخل الخلاء وصلى ونام ، فذكر ذلك لبعض المشايخ فقال بقيت خامسة وهو أن يحضر مع الأهل في بيت أخيه لأن البيت يتخذ للاستخفاء في هذه الأمور الخمس وإلا فالمساجد أروح لصلاة المتعبدين فإذا فعل هذه الخمس ، فقد تم الإخاء وارتفعت الحشمة وتأكدا الانبساط ، وقول العرب في تسليمهم بشير إلى ذلك إذ يقول أحدهم لصاحبه : مرحباً وأهلاً وسهلاً ، أي لك عندنا مرحب وهو السعة في القلب والمكان ، ولك عندنا أهل تأنس بهم بلا وحشة لك ذلك كله أي لا يشتد علينا شيء مما تريد ، ولا يتم التخفيف وترك التكلف إلا بأن يرى نفسه دون إخوانه ويحسن الظن بهم ويسئ الظن بنفسه ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له فهذه أقل الدرجات وهو النظر بعين المساواة والكامل في رؤية الفضل الأخ ، ومهما رأى الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه وهذا في عموم المسلمين مذموم ، قال صلى الله عليه وسلم : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » ومن تمة الانبساط وترك التكلف أن يشاور إخوانه في كل ما يقصده ويقبل إشارتهم ، فقد قال تعالى : ( وشاورهم في الأمر ) فهذا جامع حقوق الصحبة ، ولا يتم ذلك إلا بأن تنزل نفسك منزلة الخادم لهم فتقيد بحقوقهم جميع جوارحك .

( أما البصر ) فبأن تنظر إليهم نظرة مودة يعرفونها منك وتنظر إلى محاسنهم ، وتنامي عن عيوبهم ، ولا تصرف بصرك عنهم في وقت إقبالهم عليك وكلامهم معك ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى كل من جاس إليه نصيباً من وجهه ، لا يظن جليسه إلا أنه أكرم الناس عليه ، وكان عليه السلام أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه ، وتعبيراً عما يحدثونه به .

( وأما السمع ) فبأن تسمع كلامهم متلذذاً بسماعه ومصداقاً به ، ومظهراً للاستبشار به ، ولا تقطع حديثهم عليهم بمرادة ولا منازعة ومداخلة واعتراض ، فإن أرهقك عارض اعتذرت إليهم .

( وأما اللسان ) فقد ذكرنا حقوقه : ومن ذلك أن لا يرفع صوته عليهم ، ولا يخاطبهم إلا بما يفقهون .

( وأما اليدين ) فبأن لا يقبضهما عن معاوتهم في كل ما يعطى باليد .

( وأما الرجلان ) فبأن لا يتقدمهم إلا بقدر ما يقدرونه ، ولا يقرب منهم إلا بقدر ما يقربونه ، ويقوم لهم إذا أقبلوا ، ولا يقعد إلا بقعودهم ، ويقعد متواضعاً حيث يقعد .

خاتمة في جملة من آداب المعاشرة والمجالسة مع أصناف الخلق

قال بعض الحكماء : إن أردت حسن العشرة فائق صديقك وعدوك بوجه الرضا وتوقر من غير كبر وتواضع في غير مذلة ، وكن في جميع أمورك في أوسطها فكلا طرفي قصد الأمور ذميم ، ولا تنظر في عطفيك ، ولا تكثر الالتمات ، ولا تقف عن الجماعات ، وإذا جلست فلا تستوفز ، وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك ونخاتك ، وتحليل أسنانك ، وإدخال أصبعك [في أنفك] ، وكثرة بصاقتك وتنخحك ، وكثرة التملط والتشاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها ، وليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوماً مرتباً ، وامرغ إلى الكلام الحسن من حديثك من غير إظهار تعجب مفرط ، ولا تسأله إعادته ، واسكت عن الضاحك ، ولا تحدث عن إعجابك بولئك ولا شعرك ولا تصنيفك وسائر ما يضحك ، ولا تصنع تصنع المرأة في التزين ، ولا تبدل تبدل العبد ، ولا تلح في الحاجات ، ولا تشجع أحداً على الظلم ، ولا تعلم أهلك وولئك فضلاً عن غيرهم مقدار مالك ، فإنهم إن رأوه قليلاً هنت عندهم ، وإن كان كثيراً لم تباع قط رضاهم ، وخوفهم من غير عيب ، وإن لهم من غير ضعف ، وإذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك

وتجنب عجلتك ، وتفكر في حجتك ، ولا تكثر الإشارة بيدك ، ولا تكثر الاتفات إلى من وراءك ، وإذا هدأ غيظك فتكلم ، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك ، وإذا دخلت مجلساً فالأدب فيه البداية بالتسليم وترك التخطي لمن سبق والجلوس حيث اتسع وحيث يكون أقرب إلى التواضع ، وأن تحيي بالسلام من قرب منك عند الجلوس ، ولا تجلس على الطريق فإن جلست فأدبه : غض البصر ، ونصرة المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وعون الضعيف ، وإرشاد الضال ، ورد السلام ، وإعطاء السائل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والارتياح لأوضاع البصاق ، ولا تبصق في جهة القبلة ، وإياك أن تمارح لبيباً أو غير لبيب ، فإن اللبيب يحقد عليك ، والسفيه يجترى عليك ، ومن بلى في مجلس بمزاح أو لفظ فليذكر الله عند قيامه . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من جلس في مجلس فكثرت فيه لفظه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك — إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك » .

### بيان حق المسلم والرحم والجوار

اعلم أن الإنسان لحاجته إلى مخالطة من هو من جنسه لم يكن له بد من تعلم آداب المخالطة ، وكل مخالط ففي مخالطته أدب ، والأدب على قدر حقه ، وحقه على قدر رابطة : إما القرابة ، وهي أخصها ، أو أخوة الإسلام ، وهي أهمها . وينطوي في معنى الأخوة الصداقة والصحبة . وإما الجوار ، وإما صحبة السفر والمكتب والدرس ، والصداقة أو الأخوة ، ولكل واحد من هذه الروابط درجات : فالقرابة لها حق ، ولكن حق الرحم المحرم أكد ، وللمحرم حق ولكن حق الوالدين أكد ، وكذلك حق الجار ، ولكن يختلف بحسب قربه من الدار وبعده ، ويظهر التفاوت عند النسبة حتى أن البلدي في بلاد الغربية يجرى مجرى القريب في الوطن لاختصاصه بحق الجوار في البلد ، وكذلك حق المسلم بقا أكد بقا أكد المعرفة والاختلاط .

حقوق المسلم

هي أن تسلم عليه إذا لقيته ، وتجيبه إذا دعاك ، وتشمته إذا عطس ، وتودده إذا مرض ، وتشهد جنازته إذا مات ، وتبرقسه إذا أقسم عليك ، وتنصح له إذا استنصحك ، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك ، ومنها أن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك . قال صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنین فی توادم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائرہ بالحق والسهر » وعنه صلى الله عليه وسلم : « المؤمن المؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضاً » ومنها أن لا يؤذى أحداً من المسلمین بفعل ولا قول . قال صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم ، والمهاجر من هجر السوء واجتنبه » وعنه صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً » ومنها أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه . قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد » ومنها أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ، ولا يباغ بعضهم ما يسمع من بعض ، ففي الحديث : « لا يدخل الجنة قتات » ومنها أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه . قال صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلة قيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرها لذي يبدأ بالسلام » وقالت عائشة رضی الله عنها : « ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله » وفي الحديث : « ما زاد الله رجلاً بمعفو إلا عزاً » ومنها أن يحسن إلى كل من قدر عليه منهم ما استطاع لا يميز بين الأهل وغير الأهل . وفي الأثر : « اصنع المعروف في أهله وفي غير أهله فإن أصبت أهله فهو أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله » وفي آخر : « رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر » لم يكن أحد يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أقبل عليه بوجهه ،

ثم لم يعصمه عنه حتى يفرغ من كلامه ، ومنها : أن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه بأن يستأذن ثلاثاً ، فإن لم يؤذن له انصرف . ومنها : أن يخالق الجميع بخلق حسن ، ويعامله بحسب طريقته . ومنها : أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان . وفي الحديث : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا » والتلطف بالصبيان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان إذا قدم من سفره تلقى بالصبيان ، ثم يأمر بهم فيرفعون إليه فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه ، ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم . وكان يؤتى بالصبي الصغير ليدعوه بالبركة ويسمه ، فيأخذه فيضمه في حجره ، فربما بال الصبي ، ثم يغسل ثوبه صلى الله عليه وسلم بعد . ومنها : أن يكون مع كافة الخلق مستبشراً طاق الوجه رقيقاً . قال صلى الله عليه وسلم : « أتدرون على من حرمت النار ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : على الذين الهين السهل القريب » . وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة » .

( منها ) أن لا يعد مسلماً بوعده إلا ويفي به . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العدة عطية » وقال : « العدة دين » وقال : « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوتى من خان » .

( ومنها ) أن ينصف الناس من نفسه ، ولا يأتي إلا بما يجب أن يؤتى إليه . قال صلى الله عليه وسلم : « يا أبا الدرداء ، أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً » .

( ومنها ) أن يزيد في توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته ، فينزل الناس منازلهم .

( ومنها ) أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد إليه سبيلاً . قال صلى الله عليه وسلم : « أفضل الصدقة إصلاح ذات البين » . وفي الحديث :



« ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً » وهذا يدل على وجوب الإصلاح بين الناس ، لأن ترك الكذب واجب . ولا يسقط الواجب إلا بواجب أكد منه . وقال صلى الله عليه وسلم : « كل الكذب مكتوب ، إلا أن يكذب الرجل في الحرب ، فإن الحرب خدعة ، أو يكذب بين اثنين فيصالح بينهما ، أو يكذب لامرأته ليرضيها » .

( ومنها ) أن يستر عورات المسلمين كلهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « من ستر على مسلم ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة » وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يرى المؤمن من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه ، لا تغتابوا الناس ولا تتبغوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ، ولو كان في جوف بيته » وروى عن بعض الخلفاء : أنه كان يعس من الليل ، فسمع صوت رجل في بيت يتغنى ، فتصور عليه فوجد عنده امرأة وعنده خمر ، فقال : يا عدو الله ، أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته ؟ فقال : وأنت أيها الأمير لا تعجل فإن كنت عصيت الله واحدة ، فقد عصيت الله ثلاثاً ، قال الله تعالى : ( ولا تجسسوا ) وقد تجسسست ، وقال الله تعالى : ( وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ) وقد تسورت على ، وقد قال الله تعالى : ( لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ) الآية ، وقد دخلت بيتي بغير إذن ولا سلام ، فقال الأمير : هل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال : نعم ، والله لئن عفوت عنى لا أعود إلى مثلها أبداً ، فعفا عنه وخرج وتركه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كل أمتي معصاني إلا الجاهرين ، وإن من الجاهرة أن يعمل للرجل سوء سرّاً ثم يخبر به » وقال صلى الله عليه وسلم : « من سمع خبر قوم وهم له كارهون حسب في أذنه الآنك يوم القيامة » .

( ومنها ) أن يتقى مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ولألسنتهم

عن الغيبة ، فإنهم إذا عصوا الله بذكره وكان هو السبب فيه كان شريكاً ، قال الله تعالى : ( ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم ) وقال صلى الله عليه وسلم : « كيف ترون من سب أبويه » فقالوا وهل من أحد يسب أبويه ؟ فقال « نعم بسب أبوى غيره فيسبون أبويه » وقال عمر رضي الله عنه : « من أقام نفسه مقام التهم فلا يلومن من أساء به الظن » .

( منها ) أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ويسمى في قضاء حاجته بما يقدر . قال صلى الله عليه وسلم : « اشفعوا تؤجروا » .

( ومنها ) أن يبدأ من يلقى بالسلام قبل الكلام ويصافحه عند السلام قال الله تعالى : ( وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ) وقال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أو لا أدركم على عمل إذا حملتموه تحاببتم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : أفسوا السلام بينكم » وعنه صلى الله عليه وسلم « يسلم الراكب على الماشي وإذا سلم عن القوم واحد أجراً عنهم » وكان أنس رضي الله عنه يمر على الصبيان فيسلم عليهم . ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فعل ذلك ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم مر في المسجد يوماً وعصبة من الناس تعود فأوماً بيده بالسلام . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ، ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الأخيرة » وروى أن من تمام التحية المصافحة . وقال الحسن : « المصافحة تزيد في الود » ولا بأس بقبلة يد المعظم في الدين تبركاً به وتوقيراً له ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم أذن في تقبيل يده ورأسه ، والآنحاء عند السلام منهي عنه ، والالتزام والتقبيل ورد عند القدوم من السفر ، والأخذ بالركاب في توقير العلماء ورد به الأثر فعل ذلك ابن عباس بركاب زيد بن ثابت . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يقيم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولا يتركه وتفسحوا » ولا يستحب للداخل إذا سلم ولم يجد مجلساً أن ينصرف بل يقعد وراء

الصف . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر . فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها ، وأما الثاني فجلس خلفهم . وأما الآخر فأدبر ذاهباً . فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة : أما أحدهم فآوى إلى الله فأواه الله . وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه . وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه » وسألت أم هانئ ع على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « من هذه ؟ فقيل له : أم هانئ ، فقال عليه السلام : مرحباً يا أم هانئ . »

(ومنها) أن يصون عرض أخيه ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر ، ويرد عنه ويناضل دونه وينصره ، فإن ذلك يجب عليه بمقتضى أخوة الإسلام وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من امرئ مسلم ينصر مسلماً في موضع ينتهك فيه عرضه ويستحل حرمة إلا نصره الله في موطن يجب فيه نصره ، وما من امرئ خذل مسلماً في موطن تنتهك فيه حرمة إلا خذاه الله في موضع يجب فيه نصرته . »

(ومنها) تسميت العاطس . قال عليه السلام في العاطس : « يقول الحمد لله على كل حال ، ويقول الذي يشتمه يرحمك الله ويرد عليه العاطس فيقول يهدبكم الله ويصلح بالكم » ويستحب إذا عطس أن ينض صوته ويخمر وجهه وإذا تشاب أن يضع يده على فيه .

(ومنها) أنه إذا بلى بذي شر فينبغى أن يجامله ويتقيه . قال بعضهم : خالص من مخالصة . وخالق الفاجر مخالقة فإن الفاجر يرضى بالخلق الحسن في الظلم إلى أبو الرداء : « إنا لنبش في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم » وهذا معنى لراة وهو من يخاف شره . قال الله تعالى : ( ادفع بالتي هي أحسن ) قال ابن في معنى قوله تعالى : ( ويدرون بالحسنة السيئة ) أي الفحش والأذى

بالسلام والمداراة . وقال في قوله تعالى : ( ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض )  
قال : بالرغبة والرغبة والحياء والمداراة . وقالت عائشة رضي الله عنها : استأذن  
رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ائذنوا فبئس رجل المشيرة هو »  
فلما دخل الآن له القول حتى ظننت أن له عنده منزلة ، فلما خرج قلت له لما  
دخل قلت الذي قلت ثم ألفت له القول فقال : « يا عائشة إن شر الناس منزلة عند  
الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه » وفي الخبر : « ما وقى الرجل به  
عرضه فهو له صدقة » وقال محمد بن الحنفية : ليس بحكيم من لا يعاشر بالمعروف  
من لا يجد من معاشرته بدأ حتى يجعل الله له فرجاً .

( ومنها ) أن يختلط بالمساكين ويحسن إلى الأيتام . كان صلى الله عليه وسلم  
يقول : « اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرنى في زهرة المساكين »  
وقد روى أن سليمان عليه السلام في ملكه كان إذا دخل المسجد فرأى مسكيناً  
جلس إليه وقال : « مسكين جالس مسكيناً » وفي الخبر : « لا تنبطن فاجراً  
بفهمة فإنك لا تدري إلام يصير بعد الموت فإن من ورائه طالباً حثيثاً » .

( وأما اليتيم ) فقال صلى الله عليه وسلم : « من ضم يتيماً حتى يستغنى فقد وجبت له  
الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم كهاتين » وهو يشير بأصبعيه  
وقال صلى الله عليه وسلم : « من وضع يده على رأس يقيم ترجماً كانت له بكل  
شعرة تمر عليها يده حسنة » وقال صلى الله عليه وسلم : « خير بيت من  
المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم  
يساء إليه » .

( ومنها ) النصيحة لكل مسلم والجهاد في إدخال السرور على قلبه قال صلى  
الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وعنه : « من  
أفر عن مؤمن أقر الله عينه يوم القيامة » وعنه : « من فرج عن مؤمن مغرم

أو أعان مظلوماً غفر له « وعنه : « إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على قلب المؤمن وأن يفرج عنه غمًا أو يقضى عنه دينًا أو يطعمه من جوع » .

(منها) أن يعود مرضاهم ، وأدب العائد خفة الجلسة وقلة السؤال ، وإظهار الرقة والدعاء بالعافية ، وغض البصر عن عورات الموضع . وعند الاسقنذان لا يقابل الباب ، ويدق برفق ، ولا يقول أنا إذا قيل له مَنْ . وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبوات منزلا من الجنة » وعن عثمان رضى الله عنه قال مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أعيذك بالله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد من شر ما تجدد » قاله مراراً ويستحب للعليل أيضاً أن يقول : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد ، وقال طاوس : أفضل العيادة أخفها ، وجملة أدب المريض الصبر وقلة الشكوى والضجر والفرع إلى الدعاء والتوكل بعد الدواء على خالق الدواء .

(ومنها) أن يشيع جنازتهم : قال صلى الله عليه وسلم : « من شيع جنازة فله قيراط من الأجر ، فإن وقف حتى دفن فله قيراطان والقيراط مثل أحد » — جبل عظيم في المدينة المنورة — والقصد من التشييع قضاء حق المسلمين والاعتبار .

(ومنها) أن يزور قبورهم ، والمقصود من ذلك الدعاء والاعتبار وترقيق القلب ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما رأيت منظراً إلا والقبر أفضح منه » وعن حاتم الأصم : من مر بالمقابر فلم يتفكر ولم يدع لهم ، فقد خان نفسه وخانهم . وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ، وقال ميمون هذه قبور آبائي كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في حياتهم — أما ترام صرعى قد خلت بهم المثلات وأصابته الهوام من أبدانهم ثم

بكى ، وقال والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله .

( وآداب المعزى ) خفض الجناح ، وإظهار الحزن ، وقلة الحديث ، وترك التبسم .

( وآداب تشييع الجنازة ) لزوم الخشوع ، وترك الحديث ، وملاحظة الميت والتفكير في الموت والاستعداد له . والإسراع بالجنازة سنة - فمذه جملة آداب تشييعه على آداب المعاشرة مع عموم الخلق والجملة الجامعة فيه أن لا تستصغر منهم أحداً حياً كان أو ميتاً فتهلك لأنك لا تدري لعله خير منك فإنه وإن كان فاسقاً فله يحنم لك بمثل حاله بالصلاح ولا تنظر إليهم في حال دنياهم بين العظم فإن الدنيا صغيرة عند الله صغير ما فيها ولا تبذل لهم دينك لتفارق من دنياهم فتصغر في أعينهم ثم تحرم دنياهم ولا تعادهم بحيث تظهر العداوة إلا إذا رأيت منكرات في الدين فعادى أفعالهم القبيحة ، ولا تسكن إليهم في ثنائهم عليك في وجهك وحسن بشرمك فقد لا يكون لذلك حقيقة باطناً ، ولا تشك إليهم أحوالك فيكلاك الله إليهم ولا تطمع أن يكونوا لك في الغيب والسركا في العلانية فذلك طمع كاذب ولا تطمع فيما في أيديهم فتستعجل الذل ، وإذا سألت أحداً منهم حاجة فعضاهم فهو أخ مستفاد ، وإن لم يقض فلا تعاتبه فيصير عدواً تطول عليك مقاساته ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول فلا يسمع منك ويعاديك ولا يمكن وعظه عرضاً واسترسالاً من غير تنصيص على الشخص ، وإذا بلغك منهم غيبة أو رأيت منهم شراً فكل أمرهم إلى الله واستمد بالله من شرهم ولا تشغل نفسك بالكفاة فيزيد الضرر وكن فيهم سمياً لحقهم أمم عن باطلهم نطوقاً بحقهم واحذر صحبة أكثر الناس فإنهم لا يقيلون عثرة ، ولا ينفرون زلة ولا يسترون عورة ، ويحاسبون على النقيير والقطمير ويحسدون في القليل والكثير

ولا تعمل على مودة من لم تخبره حق الخبره بأن تصحبه مدة فتجربه  
في أحواله ، أو تعامله بالدينار والدرهم ، أو تقع في شدة فمحتاج إليه ، أو تسافر  
معه ، فإن رضيقته في هذه الأحوال فاتخذه أباً لك إن كان كبيراً ، وابناً لك  
إن كان صغيراً ، أو أخاً إن كان مثلاً لك . فهذه جملة آداب المعاشرة مع  
أصناف الخلق .

### حقوق الجوار

اعلم أن الجوار يقتضى حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام ، فيستحق الجار  
المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الجيران ثلاثة  
جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق . فالجار الذى له ثلاثة  
حقوق : الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق الرحم ،  
وأما الذى له حقان : فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام - وأما الذى له  
حق واحد : فالجار المشرك » فانظر كيف أثبت للمشرك حقاً بمجرد الجوار .  
وقال صلى الله عليه وسلم : « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً » وقال  
صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »  
وقال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره »  
وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه » وقال صلى  
الله عليه وسلم : « لا يمنعن أحدكم جاره أن يفرز خشبة فى جداره » وكان أبو  
هريرة رضى الله عنه يقول : ما لى أراكم معرضين والله لأرْمينها بين أكتافكم  
وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب ذلك . وقيل لرسول صلى الله عليه وسلم إن  
فلانة تصوم النهار ، وتقوم الليل ، وتؤذى جيرانها ، فقال صلى الله عليه وسلم :  
« هى فى النار » وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « أربعون داراً جار » قال  
الزهري يعنى أربعين عن يمينه ويساره وخلفه وبين يديه . واعلم أنه ليس حق  
الجار كف الأذى فقط بل احتمال الأذى ، بل لا بد فوقه من الرفق وإسداء

الخیز والمعروف . وحكى أن ابن المقفع بلغه أن جاراً له يبيع داره في دين ركب  
وكان يجلس في ظل داره فقال ما قت إذا بحرمة ظل داره إن باعها معدماً فدفع  
إليه ثمن الدار وقال : لا تبعها ، وجملة حق الجار أن يبدأ بالسلام ، ولا يكثر عن  
حاله السؤال . يعود في المرض ويعزيه في المصيبة ، ويقوم معه في العزاء ، ويهتف  
بالفرح ، ويظهر الشركة في السرور معه ، ويصنع عن زلاته ، ولا يطلع من  
السطح إلى عوراته ، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره ، ولا يضيق طريقه  
إلى الدار ، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره ويستمر ما يفكشف له من عوراته  
وينعشه من صرعه إذا نابتة نائبة ، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته  
ولا يسمع عليه كلاماً ، ويفض بصره عن حرمة ولا يديم النظر إلى خادته  
ويتألف لولده في كلمته ، ويرشده إلى ما يحمله من أمر دينه ودنياه — هذه جملة  
الحقوق التي ذكرناها لعامة المسلمين .

### حقوق الأقارب والرحم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : أنا الرحمن وهذه الرحم  
شقت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته » وقيل لرسول الله  
صلى الله عليه وسلم أي الناس أفضل ؟ قال « أتقاهم لله وأوصلهم لرحمه وأمرهم  
بالمعروف وأنهم عن المنكر » وقال صلى الله عليه وسلم : « الصدقة على المسكين  
صدقة وهي على ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة » ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق  
بمئات كان له يعجبه عملاً بقوله تعالى : ( إن تنالوا البرحتى تنفقوا مما تحبون  
قال يا رسول الله ، هي في سبيل الله وللفقراء والمساكين ، فقال عليه السلام  
« وجب أجرك على الله واقسمه في أقاربك » .

### حقوق الوالدين والولد

لا يخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم فأخص الأرحام وأمسها الولد  
فبعضها تأكد الحق فيها ، قال صلى الله عليه وسلم : « برأمتك وأباك وأختك



أخاك ثم أدناك فأدناك » ، وقال رجل يا رسول الله ، هل بقي علي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد وفاتهما ؟ قال : « نعم ، الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقيهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى الأب » وعنه صلى الله عليه وسلم : « رحم الله والدًا أعان ولده على بره » أي لم يحمله على العقوق بسوء عمله ، وعنه صلى الله عليه وسلم : « ساووا بين أولادكم في العطية » وعنه أيضاً « من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه » ويستحب الرفق بالولد ، رأى الأقرع بن حابس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقبل ولده الحسن ، فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم ، فقال عليه السلام : « إن من لا يرّحم لا يرّحم » ، وقال معاوية للأحنف بن قيس : ما تقول في الولد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ثمار قلوبنا ، وهما دظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماؤهم ظليلة ، وبهم نعول على كل جليلة ، فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم بمنحونك ودهم ، ويحبوك جهدهم ، ولا تكن عليهم قفلاً ثقيلاً فيملوا حياتك ويودوا وفاتك ويكرهوا قربك ، فقال معاوية : لله أنت يا أحنف ، لقد أرضيتني عن سخطت عليه من ولدي ، ووصله بعطية عظمى .

واعلم أن أكثر العلماء على أن طاعة الوالدين واجبة في الشبهات وإن لم تجب في الحرام المحض ، وليس للولد أن يسافر في مباح أو نافلة إلا بإذنها ، وقال صلى الله عليه وسلم : « حق كبير الإخوة على صغيرهم بحق الوالد على ولده » .

### كتاب العزلة والمخالطة

اعلم أن من السلف من آثر العزلة لفوائدها كما واظبة على العبادة والفكر وتربية العلم ، والتخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة كالرياء والغبية والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومشاركة الطابع الأخلاق

الرديئة والأعمال الخبيثة من جلساء السوء إلى غير ذلك ، وأما أكثر الساف  
فذهبوا إلى استحباب المخالطة واستكثار المعارف والإخوان والتآلف والتحبب  
إلى المؤمنين والاستعانة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى ، وإن فوائد العزلة  
المتقدمة يمكن نيلها من المخالطة بالمجاهدة ومغالبة النفس ، وبالجملة : فلامخالطة  
فوائد عظيمة تفوت بالعزلة ، فإن قلت ما هي فوائد المخالطة والدواعي إليها ؟  
فاعلم : أنها هي التعليم والتعلم ، والنفع والانتفاع ، والتأديب والتأدب ، والاستئناس  
والإيفاس ، ونيل الثواب وإنالته في القيام بالحقوق ، أو اعتياد التواضع ،  
أو استفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها .

( فأما العلم والتعليم ) فهما أعظم العبادات في الدنيا ، ولا يتصور ذلك إلا  
بالمخالطة والحجاج إلى التعلم لما هو فرض عليه عاص بالعزلة ، ومن كان يقدر  
على التبرز في علوم الشرع والعقل ، فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران ،  
ولهذا قال الفخمي وغيره : تفقه ، ثم اعتزل ، ومن اعتزل قبل التعلم فهو في الأكثر  
مضيع أوقاته بنوم أو فكر في هوس ، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد  
يستوعبها ولا ينفك في أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور ، ويكون  
في أكثر أحواله ضحكة للشيطان وهو يرى نفسه من العباد ، فالعلم هو أصل  
الدين ، ولا خير في عزلة العوام والجهال .

( وأما التعليم ) ففيه ثواب عظيم مهما صححت نية المعلم والمتعلم .

( وأما الانتفاع بالناس ) فبالكسب والمعاملة إذ لا يأتي إلا بالمخالطة ، ومن  
اكتسب من وجهه وتصدق منه كان أفضل من المعتزل المشتغل بالنافلة .

( وأما النفع ) فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه ، فيقوم بحاجاتهم على سبيل  
الحسبة ، ففي النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب ، وذلك لا ينال إلا بالمخالطة  
ومن قدر عليه مع القيام بمحدود الشرع فهو أفضل له من العزلة .

( وأما القاديب بنصح الغير والتأديب ) ونعني به الارتياض بمقاساة الناس ،  
والجهادة في تحمل أذام كسراً للنفوس وقهراً للشهوات فهي من الفوائد التي  
تستفاد بالمخالطة .

( وأما الاستئناس والإيناس ) فهو مستحب لأمر الدين ، وذلك فيمن  
يستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين ، وقد يتعلق بحظ النفس ، ويستحب  
إذ كان الغرض منه ترويح القلب لتهييج دواعي النشاط في العبادة فإن القلوب  
إذا كربت عميت ، والنفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروح وفي تسكينها  
اللازمة داعية للفتنة ، وقد قال ابن عباس : لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس ،  
فلا يستغنى المعتزل إذا عن رفيق يستأنس بمشاهدته ومحادثته في اليوم والليلة  
ساعة فليجتهد في طلب من لا يفسد عليه في ساعته تلك سائر ساعاته ، فقد قال  
صلى الله عليه وسلم : « المرء على دين خليله فليتنظر أحدكم من يخال » وليحرص  
أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين والقصور عن الثبات على الحق ، ففي  
ذلك متروح للنفوس ، وفيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه .

( وأما نيل الثواب ) فبحضور الجنائز وعبادة المرضى وحضور الجماعة في سائر  
الصلوات أيضاً ، إذ لا رخصة في تركه إلا لخوف ضرر ظاهر يقاوم ما يفوت من  
فضيلة الجماعة ويزيد عليه ، وذلك لا يتفق إلا نادراً ، وكذلك في حضور  
الإملاكات والدعوات ثواب من حيث أنه إدخال سرور على قلب مسلم .

( وأما إنالة الثواب ) فهو أن يأذن لعبادته وتعزيته في المصائب وتهنئته على  
النعم ، فإنهم يبالغون بذلك ثواباً ، فينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بآفتها  
التي ذكرناها ، وعند ذلك قد ترجح العزلة وقد ترجح المخالطة .

( وأما التواضع ) فإنه من أفضل المقامات ، ولا يقدر عليه في الوحدة وقد  
يكون الكبر سبباً في اختيار العزلة ، أو مخافة أن لا يوقر في المحافل أو لا يقدم ،  
يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله وأبقى على اعتقاد الناس في تعبدته وزهده

وعلامه هؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا ولا يحبون أن يزوروا ويفرحون بتقرب  
العوام والأمراء إليهم ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذي يبغض إليه المخالطة  
وزيارة الناس لبغض إليه زيارتهم له ، ولكن اعتزاله سببه شدة اشتغاله بالناس  
لأن قلبه متجرد للاقتفات إلى نظرم إليه بعين الوفا والاحترام ، والعزلة بهذا  
السبب جهل من وجوه :

(أحدها) أن التواضع والمخالطة لا تنقص عن منصب من هو متكبر بعلمه  
أو دينه .

(الثاني) أن الذي شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه  
مفروور لأنه لو عرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا يفتنون عنه من الله شيئاً ،  
وأن ضرره ونفعه بيد الله ، بل رضا الناس غاية لا تدال ، فرضاء الله أولى  
بالطلب ، ولذلك قال الشافعي ليونس بن عبد الأعلى : والله ما أقول لك إلا  
نصحاً ، إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل ، فانظر ماذا يصلحك فافعله ،  
فإذن من حبس نفسه في الهيت لتحسن اعتقادات الناس فيه ، في عناء حاضر في  
الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

وبالجملة : فلا تستحب العزلة إلا لمستغرق الأوقات في علم بحيث لو خالطه  
الناس لضاعت أوقاته أو كثرت آفاته .

(وأما التجارب) فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجاري أحوالهم ، والعقل  
الفريزي ليس كافياً في تفهم مصالح الدين والدنيا وإنما تفيدتها التجربة والممارسة  
ولا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب ، فالصبي إذا اعتزل بقي غمراً جاهلاً بل  
ينبغي أن يشتغل بالتعلم ويحصل له في مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب  
وتحصل بقیة التجارب بسماع الأحوال وبالجهل يحبط العمل الكثير ، وبالعلم  
يزكو العمل القليل ، ولولا ذلك ما فضل العلم على العمل ، وقد قضى الشرع

بفضل العالم على العابد حتى قال صلى الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » .

إذا عرفت ما تقدم من الفوائد والآفات ، يتبين لك الأفضل من المخالطة والعزلة ، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال .

### كتاب آداب السفر

اعلم أن كل من سافر وكان مطالبه العلم والدين ، أو الكفاية للاستعانة على الدين كان من سالكى سبيل الآخرة ، وكان له في سفره شروط وآداب سفره عن فوائد تلحقه بأعمال الآخرة ، وإليك جملة من أقسام الأسفار .

( القسم الأول ) السفر في طلب العلم وهو إما واجب وإما نفل وذلك بحسب كون العلم واجباً أو نفلاً ، وذلك العلم إما علم بأمور دينية أو بأخلاقه في نفسه ، أو بآيات الله في أرضه ، وقد قال عليه السلام « من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » ورحل جابر بن عبد الله من المدينة مسيرة شهر في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه عن عبد الله بن أنيس حتى سمعه عنه ، وقال الشعبي : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تداه على هدى أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعاً — وأما علمه بنفسه وأخلاقه فذلك مهم ، فإن من لا يطلع على خباثت صفاته لا يقدر على تطهير القلب منها ، والنفس في الوطن مع مواتاة الأسباب لا تظهر خباثت أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوف ، فإذا امتحنت بمذاق الغربة وقع الوقوف على عيوبها فيمكن الاشتغال بعيوبها — وأما آيات الله في أرضه ففي مشاهدتها فوائد المستبصر فيها قطع متجاورات وفيها الجبال والبرارى والبحار ، وأنواع الحيوان والنبات ، وما من شيء منها إلا هو شاهد لله بالوحدانية .

(القسم الثاني) أن يسافر لأجل العبادة من حج أو جهاد، وفي الحديث :  
« لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ،  
والمسجد الأقصى » .

(القسم الثالث) أن يكون السفر للهرب من سبب مشوش للدين ، وذلك  
أيضاً حسن ، فالفرار مما لا يطاق ، من سنن الأنبياء والمرسلين ، وقد كان من  
عادة السلف رضی الله عنهم مفارقة الوطن خيفة من الفتن — وروى أن بعضهم  
قيل له إلى أين ؟ قال بلغنى عن قرية فيها رخص أريد أن أقيم بها ، فقيل له  
وتفعل هذا ؟ قال نعم إذا بلغك أن قرية فيها رخص فأقم بها فإنه أسلم لدينك  
وأقل لمك ، وهذا هرب من غلاء السعر .

(القسم الرابع) السفر هرباً مما يقدح في البدن كالطاعون أو في المال كغلاء  
السعر أو ما يجري مجراه ولا حرج في ذلك ، بل ربما يجب الفرار في بعض  
المواضع وربما يستحب في بعض بحسب وجوب ما يترتب عليه من الفوائد  
أو استحبابه ، ولكن يستثنى الطاعون فلا ينبغي أن يفر منه لورود  
النهي فيه .

( وبالجملة ) فالسفر ينقسم إلى مذموم ومحمود ومباح ، والمذموم منه حرام كالسفر  
للمأق لوالديه ، ومنه مكروه كالخروج من بلد الطاعون ، والحمود منه واجب  
كالحج وطالب العلم الذي هو فريضة على كل مسلم .

ومنه مندوب كزيارة العلماء للتخاطب بأخلاقهم وآدابهم وتحريك الرغبة للاقتداء  
بهم واقتباس الفوائد العلمية من أنفاسهم — وأما المباح فرجعه إلى النية فمهما  
كان قصده بطلب المال مثلاً التعفف عن السؤال ورعاية ستر الرودة على الأهل  
والعيال ، والتصدق بما يفضل عن مبالغ الحاجة صار هذا المباح بهذه النية من  
أعمال الآخرة ، ولو خرج إلى الحج وباعته الرياء والسمعة نخرج عن كونه من  
أعمال الآخرة لقوله صلى الله عليه وسلم : « الأعمال بالنيات » .

آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه

(الأدب الأول) أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون وإعذار النفقة لمن تلزمه نفقته وبرد الودائع إن كانت عنده ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب وياخذ قدراً يوسع به على رفقاته ، ولا بد في السفر من طيب الكلام وإطعام الطعام ، ومن إظهار مكارم الأخلاق ، والسفر من أسباب الضجر ، ومن أحسن خلقه في الضجر فهو الحسن الخلق ، وتتمام حسن الخلق المسافر بالإحسان إلى المسكاري ومعاونة الرفقة بكل ممكن وإعانة المنقطع بمركوب أو زاد ، وتتمام ذلك مع الرفقاء بمزاج ومطايبة في بعض الأوقات من غير فحش ومعصية ليكون ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه . (الثاني) أن يختار رفيقا فلا يخرج وحده « فالرفيق ثم الطريق » ولا يمكن رفيقه ممن يمينه على الدين فيذكره إذا نسي وييمينه ويساعده إذا ذكر فإن المرء على دين خليله ، ولا يعرف الرجل إلا برفيقه ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسافر الرجل وحده : وقال : « إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمرُوا أحدهم » وليأمرُوا أحسنهم أخلاقاً وأرفقهم بالأصحاب وأمرعهم إلى الإيثار وطلب الموافقة ، وإنما يحتاج إلى الأمر لأن الآراء تختلف في مصالح السفر ولا نظام إلا في الوحدة ولا فساد إلا من الكثرة ، وإنما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكل واحد ( لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ) . (الثالث) أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء ، ويودع عند الوداع بقوله لمودعه ، أستودع الله دينك وأمانتكم وخواتيم عملك وليدع المقيم له بقوله : زدك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير حيث توجهت ، وليصل المسافر قبل سفره ركعتين صلاة الاستخارة ، وإذا حصل على باب الدار فليقل ، « بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجمل أو يجهل علي » فإذا ركب فليقل ( سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين )

(الرابع) أن يرفق بالدابة إن كان راكباً فلا يحملها ما لا تطيق ولا يضربها في وجهها فإنه منهي عنه ، ويستحب أن ينزل عن الدابة أحياناً يروحها بذلك ويدخل السرور على المكاري ويروض بدنه حذراً من خدر الأعضاء بطول الركوب ، وليحذر أن يحمل فوق المشروط شيئاً وإن خف ، فإن القليل يجر إلى الكثير . قال رجل لابن المبارك وهو على دابة : احمل لي هذه الرقعة إلى فلان ، فقال حتى استأذن المكاري فأبى لم أشارطه على هذه الرقعة ، فانظر كيف لم يلتفت إلى قول الفقهاء إن هذا مما يتسامح فيه ولكن سلك طريق الورع .

(الخامس) أن يحتمل إن كان في قافلة فلا يمشي منفرداً لأنه ربما يفتال أو ينقطع ويكون بالليل متحفظاً عند النوم . وينبغي أن يتناول الرفقاء في الخراصة بالليل وأن يستصحب سراًة ومقراضاً ومسواكاً ومشطاً ، وليحذر التنطع في الطهارة فقد كان الأولون يكتفون بالميمم ويفنون أنفسهم عن نقل الماء ولا يبالون بالوضوء من الغدران ، ومن المياه كلها ما لم يتيقنوا بجاستها حتى توشأ عمر رضى الله عنه من ماء في جرة نصرانية .

(السادس) في آداب الرجوع من السفر : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزواً أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات . ويقول : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون أربفا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » ثم يرسل إلى المدينة من يبشر بقدومه ، وكان صلى الله عليه وسلم ينهى أن يطرق المرء أهله ليلاً فيقدم عليهم بفتة فيرى ما يكره . وكان صلى الله عليه وسلم إذا قدم دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين ثم دخل البيت . وينبغي أن يحمل لأهل بيته وأقاربه تحفة من مطموم أو غيره على قدر إمكانه فإن الأعين تمتد إلى القادم من السفر والقلوب تفرح به فيعأ كد الاستحباب في تأكيده



مخرجهم وإظهار التفات القلب في السفر إلى ذكرهم بما يستصحب في الطريق لهم .  
هذه جملة من الآداب الظاهرة .

( وأما الآداب الباطنة ) ففي الفصل الأول بيان جملة منها ، وجماعته أن لا يسافر إلا إذا كان زيادة في علمه في السفر ويفوى في دخول كل بلدة أن يرى شيوخها الحكماء ويجتهد أن يستفيد من كل واحد أدباً أو كلمة لينتفع بها وينفع بها وإذا قصد زيارة أخ له فلا يقيم عنده أكثر من ثلاثة أيام فذلك حد الضيافة إلا إذا شق على أخيه مفارقتها ، ولا يشغل نفسه بما لا فائدة فيه فإن ذلك يقطع بركة سفره .

مالا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر

إعلم أن للمسافر يحتاج في أول سفره إلى أن يتزود لدنياه وآخرته . أما زاد الدنيا فالطعام والشراب وما يحتاج إليه من نفقة فإن خرج من خير زاد فلا بأس به إذا كان سفره في قافلة أو بين قرى متصلة ، وإن ركب البادية وحده أو مع قوم لا طعام معهم ولا شراب ، فإن كان ممن يصبر على الجوع « أسبوعاً أو عشراً مثلاً » أو يكتفي بالحشيش فله ذلك وإن لم يكن له قوة الصبر على الجوع ولا الاجتزاء بالحشيش فخروجه من غير زاد معصية ، فإنه ألقى نفسه بيده إلى التهلكة ، وليس معنى التوكل التبعاد عن الأسباب بالكفاية وإلا لوجب أن يصبر حتى يسخر الله له ملكاً أو شخصاً آخر حتى يصب الماء في فيه ، ۱۱

( وأما زاد الآخرة ) فهو العلم الذي يحتاج إليه في طهارته وصومه وصلاته وعبادته ، وذلك أن السفر يفيد في الطهارة رخصتين مسح الخفين والقيام . وفي صلاة الغرض رخصته القصر والجمع ، وفي النفل رخصتين أداءه على الراحة وأداءه السجدة . وفي الصوم رخصة واحدة وهي الفطر .

( فأما المسح ) على الخفين <sup>(۱)</sup> فقال صفوان بن عسال — أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كنا مسافرين أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن — فكل من لبس الخف على طهارة مبيحة للصلاة ثم أحدث فله أن يمسخ على خفه من وقت حدثه ثلاثة أيام ولياليهن إن كان مسافراً أو يوماً وليلة إن كان مقبلاً .

( وأما التيمم ) فالتراب بدل عن الماء عند العذر كبعده عن منزله بحيث لو مشى إليه لم يلحقه غوث القافلة إن صاح أو استغاث . أو نزل على الماء عدو أو سبع أو احتاج إليه امطشه أو عطش أحد رفقائه . فيتيمم في هذه الصورة ، وإن بيع الماء بثمان المثل لزمه الشراء أو بنين لم يلزمه .

( وأما القصر ) فله أن يقتصر في كل واحدة من الظهر والعصر والعشاء على ركعتين ، ولا يصير مسافراً إلا بمفارقة عمران البلد .

( وأما الجمع ) بين الظهر والعصر في وقتيهما وبين المغرب والعشاء في وقتيهما فذلك أيضاً في كل سفر طويل مباح ، وفي جوازه في السفر القصير قولان ، ثم إن قدم العصر إلى الظهر فليجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما قبل الفراغ من الظهر ، وليؤذن للظهر وليقم ، وعند الفراغ يقيم للعصر وإن أصر الظهر إلى العصر فيجوز على هذا الترتيب .

( وأما النافلة ) فقد جوز أداؤها على الراحلة كي لا يتعوق عن الرنقة بسببها وكان صلى الله عليه وسلم يصلي على راحلته أيما توجهت به دابته ، وأوتر عليه السلام على الراحلة وليس على المتنفل الراكب في الركوع والسجود إلا بالإيماء ويجوز سجوده أخفض من ركوعه .

( وأما استقبال القبلة ) فلا يجب لافي ابتداء الصلاة ولا في دوامها ، وإن كان صوب الطريق بدل عن القبلة . فليكن في جميع صلواته إماماً مستقبلاً للقبلة أو

(۱) مثله في ذلك الجوربان منعلين كانا أو لا، صفيقين أو لا

متوجهاً في الطريق لتسكون له جهة يثبت فيها . وجوز للمسافر أيضاً التنفل ماشياً :  
فيومياً بالركوع والسجود ولا يقعد للشهد وحكمه حكم الراكب ، لكن ينبغي  
أن يتحرم بالصلاة مستقبلاً للقبلة . وكل هارب من عدو أو سبيل أو سبع فله أن  
يصلى الفريضة راكباً أو ماشياً كما ذكرناه في التنفل .

( وأما الفطر في رمضان للمسافر ) فهو مرخص له ، والمعوم أفضل إلا إن كان  
يضره فالإفطار أفضل .

## كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ،  
والمهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، لو طوى بساطه وأهل علمه وعمله  
لفشت الضلالة وشاعت الجهالة ، وخربت البلاد ، وهلك العباد فنعوذ بالله أن  
يندرس من هذا القطب عمله وعلمه ، وأن ينمحي بالكفاية حقيقة ورسمه وأن  
تستولي على القلوب مداهنة الخلق وتنمحي عنها مراقبة الخلق ، وأن يسترسل  
الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وأن يهز على بساط  
الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لأثم فلا معاذ إلا به ، ولا ما جأ  
إلا إليه .

ينحصر هذا الكتاب في مقاصد

وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته والمذمة في إهماله

دل على ذلك من الآيات قوله تعالى : ( ولما كن منكم أمة يدعوون إلى الخير  
ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ) ففي الآية  
بيان الإيجاب فإن قوله تعالى : ( ولما كن ) أمر وظاهر الأمر الإيجاب ، وفيها  
بيان أن الفلاح مندوط به إذ حصر بقوله : ( وأولئك هم المفلحون ) وفيها بيان  
أنه فرض كفاية لا فرض عين وأنه إذا قال به واحد سقط الفرض عن الآخرين

قال تعالى : ( والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون  
 عن المنكر ويقيمون الصلاة ) فقد نعت المؤمنین بأنهم يأمرون بالمعروف قالذي  
 هجر الأمر بالمعروف خارج عن هؤلاء المؤمنین المنعوتین فی هذه الآية : وقال تعالى :  
 ( لعن الذين كفروا من بنی اسرائیل علی لسان داود وعیسی ابن مریم ذلك بما  
 عصوا وكانوا یعتقدون كانوا لا یتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا یفعلون )  
 وهذا غاية التشدید إذ علل استحقاقهم لعنة بتركهم النهی عن المنكر وقال عز وجل :  
 ( كنتم خیر أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ) وهذا  
 يدل علی فضیلة الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر إذ بین أنهم كانوا خیر أمة .  
 وقال تعالى : ( فلما نسوا ما ذكروا به أجبنا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين  
 ظلموا بعذاب بئیس بما كانوا یفسقون ) فبین أنهم استفادوا الفجأة بالنهی عن  
 السوء قال تعالى : ( وتعاونوا علی البر والتقوی ولا تعاونوا علی الإثم والعدوان )  
 وهو أمر جزم ومعنی التعاون الحث علیه وتسهيل طرق الخیر وسد سبیل الشر  
 والعدوان بحسب الإمكان ، وقال تعالى ( لولا ینهاهم الربانیون والأحبار عن  
 قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا یصنعون ) فبین أنهم أثموا بترك  
 النهی . وقال تعالى : ( فلولا كان من القرون من قبلکم أولو بقیة ینهون  
 عن الفساد فی الأرض ) الآية فبین أنه أهلك جمیعهم إلا قلیلا منهم كانوا ینهون  
 عن الفساد . وقال تعالى : ( یا ایها الذین آمنوا كونوا قوامین بالقسط شهداء  
 لله ولو علی أنفسکم أو الوالدین والأقربین ) وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدین  
 والأقربین ، وقال تعالى : ( لا خیر فی کثیر من نجاوهم إلا من أمر بصدقة أو  
 معروف أو إصلاح بین الناس ومن یفعل ذلك ابتهاء مرضات الله فسوف نؤتی  
 أجرأ عظیما ) .

ومن الأخبار ما روى عن أبی بكر الصدیق رضی الله عنه عن النبی صلی الله  
 علیه وسلم أنه قال : ما من قوم عملوا بالمعاصی وفیهم من یقدر أن ینكر علیهم

لا يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » وقد روى في ذلك من الأحاديث ما لا يحصى - وبهذه الأدلة يظهر كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً ، وأن فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به .

الشروط التي بها يتحقق التصدي الإنكار

( الأول كونه منكراً ) وهو ما كان محذور الوقوع في الشرع ولفظ المنكر أهم من لفظ المعصية ، فإن من رأى صبيّاً أو مجنوناً يشرب الخمر فعليه أن يريق الخمر . وكذا إن رأى مجنوناً يزني بمجنونة أو بهيمة أن يمنعه منه وليس ذلك معصية في حق المجنون ، ولا يختص المنكر بالكبائر بل كشف العورة في الحمام والخلو بالاجنبية واتباع النظر للنسوة الأجنبية كل ذلك من الصفات ويجب النهي عنها .

( الثاني ) أن يكون المنكر ظاهراً بغير تجسس ، فكل من ستر معصية في داره وأغلق بابه لا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لتعرف المعصية ولا أن يتجسس عليه ، وقد نهى الله تعالى عنه في قوله : ( ولا تجسسوا ) وكذا لوروى فاسق وتحت ذيله شيء لم يجر أن يكشف عنه .

( الثالث ) أن يكون كونه منكراً معلوماً بغير اجتهاد ، فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا ينكران فيه ، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي ما هو من مجاري الاجتهاد بمعنى المسائل المختلف فيها بين الأئمة ، إذ لا يعلم خطأ المخالف قطعاً بل ظناً . فلا بد أن يكون المنكر متفقاً عليه ، وكذا إنما ينكر على الفرق المبتدعة في خطئهم المعلوم على القطع بخلاف الخطأ في مظان الاجتهاد .

درجات القيام بالإنكار

( الأولى التعريف ) أي تعريف المزجور أن ما يفعله منكراً ، فإنه قد يقدم عليه بجهل فاعلمه إذا عرف أنه منكراً تركه . فيجب تعريفه باللائف من غير عنف بل في التعريف كشفاً للعورة وإيذاء للقلب فلا بد وأن يمالج دفع أذاه بلطف

الرفق فنقول له إن الإنسان لا يولد عالماً ولقد كنا جاهلين فعلمنا العلماء فالصواب هو كذا وكذا فيتطاف به هكذا ليصل التعريف من غير إيذاء ، فإن إيذاء المسلم حرام محذور كما أن تقريره على المنكر محذور ، وليس من العقلاء من ينسل الدم بالدم أو بالبول . ومن آذى بالإنكار فهذا مثاله .

( الدرجة الثانية ) النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكراً ، كالذي يواظب على الشرب أو على الظلم أو على اغتياب المسلمين أو ما يجري مجراه ، فيذنبني أن يوعظ ويخوف بالله تعالى . وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذلك وتحكي له سيرة السلف وعبادة المتقين . وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب بل ينظر إليه نظر المترحم عليه .

( الدرجة الثالثة ) التعنيف بالقول الغليظ وذلك عند العجز عن المنع بالالطف وظهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام : ( أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ) ولا يفحش فيه سباً ولهذا الرتبة أدبان :

( أحدهما ) أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف .

( والثاني ) أن لا ينطق إلا بالصدق ، ولا يسترسل فيه فيعاطل لسانه بما لا يحتاج إليه ، بل يقتصر على قدر الحاجة .

( الدرجة الرابعة ) التغيير باليد ، وذلك كإراقة الخمر وإتلاف المنكر المتعمد أو دفعه عن محرم ، وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع ، وأما الإراقة والإتلاف فإلى الولاة وماؤذونهم كالضرب والحبس .

## آداب القائم بالأمر والنهي

جاءتها ثلاث صفات : العلم ، والورع ، وحسن الخلق .  
 ( أما العلم ) فليعلم مواقع الأمر والنهي وليقتصر على حد الشرع فيه .  
 ( وأما الورع ) فليردعه عن مخالفة معموله ، ولا يحمّله على مجاوزة الحد المأذون  
 به غرضاً من الأغراض ، وليكون كلامه مقبولاً ، فإن الفاسق يهزأ به  
 بناً أمر أو نهى وبورث ذلك جراءة عليه .

( وأما حسن الخلق ) فليتمكن به من اللطف والرفق ، وهو أصل الباب  
 أساسه .

والعلم والورع لا يكفيان ، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع  
 فمه مالم يكن في الطبع قبول له بحسن الخلق ، وبوجود هذه الصفات الثلاث  
 سير الإرشاد من القربات ، وبه تندفع المنكرات ، وإن فقدت لم يندفع المنكر .  
 قد حكى أن المأمون وعظه واعظ وعنف له في القول ، فقال : يا رجل أرفق  
 قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني ، وأمره بالرفق فقال تعالى :  
 فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ) فليكن اقتداء المرشد في الرفق  
 أنبياء صلوات الله عليهم .

## المنكرات المألوفة في العادات

## منكرات المساجد

اعلم أن المنكرات تنقسم إلى مكروهة ومحظورة ، فإذا قلنا : هذا منكر  
 مكروه ، فاعلم أن المنع منه مستحب والسكوت عليه مكروه وليس بحرام ، وإذا  
 قلنا : منكر محظور ، أو قلنا : منكر مطلقاً ، فنريد به المحظور ويكون السكوت  
 به مع القدرة محظوراً .

أما يشاهد كثيراً في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود

وهو منكر مبطل للصلاة بنفس الحديث ، فيجب النهي عنه : ومن رأى منكر في صلواته فسكت عليه فهو شريكه .

( ومنها ) قراءة القرآن ملحونة ، فيجب النهي عن ذلك وتلقين الصحيح والذي يكثر اللحن في القرآن إن كان قادراً على التعلم فليمنع من القراءة قبل التمام فإنه عاص به .

( ومنها ) ترسل المؤذنين في الأذان ، وتطويلهم بمد كلماته ، فذلك منكر مكروه .

( ومنها ) كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلامهم الكذب والأضاليل والخرافات ، فيجب الإنكار عليهم .

( ومنها ) التحلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتمويذات وكتبة السؤال وقراءتهم القرآن وإنشادهم الأشعار وما يجرى مجراه ، فكل ذلك منكر ينفون منه .

( ومنها ) بيع الأطعمة والأدوية والكتب وكذا الحيطة فيطلب المنع لأن المساجد لم تبين لهذا .

( ومنها ) دخول المجانين - المعروفين الآن بالمجازيب - والصبيان والسكران فإنهم يجنبون المساجد . وقد أوسعنا الكلام على منكرات المساجد وبدع وعوائدها في كتاب أفردناه لذلك ، فإيرجع إليه من أراد .

### منكرات الأسواق

من المنكرات المعتادة في الأسواق الكذب في المراجعة ، وإخفاء العيب فن قال : اشتريت هذه السلعة مثلاً بعشرة وأربح فيها كذا ، وكان كالم فهو فاسق ، وهى من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه ، فإن سكت مراعاة لقلب البائع كان شريكاً له في الخيانة وعصى بسكوته ، وكذا إذا علم به



فيأمره أن ينفه المشتري عليه ، وإلا كان راضياً بضياع مال أخيه المسلم وهو حرام ، وكذا التفاوت في الذراع والمكيال والميزان يجب على كل من عرفه تغييره بنفسه أو رفعه إلى الوالي حتى يغيره .

(ومنها) بيع الملامى وتلبيس المخراق الثياب بالرفق ، وكل ما يؤدي إلى القابضات ، وذلك يطول إحصاؤه ، فليقتس بما ذكرناه ما لم نذكره .

### منكرات الشوارع

من المنكرات المعتادة فيها وضع الخشب وأحمال الحبوب والأطعمة على الطرق وإخراج الأجنحة ، فكل ذلك منكر إن كان يؤدي إلى تضيق الطرق واستضرار المسارة ، وإن لم يؤدي إلى ضرر أصلاً لسعة الطريق فلا يمنع منه . نعم يجوز وضع الحطب وأحمال الأطعمة في الطريق في القدر الذي ينقل إلى البيوت ، فإن ذلك يشترك في الحاجة إليه الكفاية ، ولا يمكن المنع منه .

وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق وينجس المجتازين منكر يجب المنع منه إلا بقدر حاجة النزول والركوب ، وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة ، وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة .

والمرعى هو الحاجة التي تراد الشوارع لأجلها في العادة دون سائر الحاجات . ومنها سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس ، فذلك منكر إلا إن أمكن شدها وضمها حتى لا تمزق ، أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع ، وإلا فلا يمنع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك . نعم لا تترك ملقاة على الشوارع إلا بقدر مدة النقل . وكذلك تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيقه منكر يجب منع الملاك منه . وكذلك طرح القمامة على جوار الطارق ، وتبديد قشور البطيخ ، أو رش الماء بحيث يخشى منه التزاق والتعثر ، كل ذلك من المنكرات . وكذلك إرسال الماء من الميازيب المتفرجة من الحائط في الطريق الضيقة ،

فإن ذلك ينبس الثياب أو يضيق الطريق . وكذلك الثلج الذي يطرحه شخص في الطريق ، والماء الذي يجتمع فيه من ميزاب معين ، فملى الأول والثاني كسح الطريق منهما .

وأما مياه المطر فذلك على محنسي البلدة كسحها من الطريق ، وكذلك إذا كان له كلب عقور على باب داره يؤذى الناس فيجب منعه منه .

### منكرات الحمامات

(منها) كشف العمورات والنظر إليها ، ومن جهاتها كشف الدلاك عن عن الفخذ وما تحت السرة لتفحمة الوسخ ، بل من جهاتها إدخال اليد تحت الإزار فإن مس عورة الغير حرام كالنظر إليها .

(ومنها) الانبطاح على الوجه بين يدي الدلاك لتفحيز الأفضاخ والأعجاز ، فهذا مكروه إن كان مع حائل ، ولا يحرم إلا إذا خشي حركة الشهوة .  
(ومنها) أن يكون في مداخل بيوت الحمام ومجاري مياهها حجارة ماساء مزلة يزلق عليها الغافلون ، فهذا منكر ويجب قلعه وإزالته ، ويفكر على الحمى إهماله فإنه يفضى إلى السقطة ، وقد تؤدي إلى انكسار عضو أو انخلاءه .  
وكذلك ترك الصابون على أرض الحمام منكر ، وفي الحمام أمور آخر مكروهة تقدمت في كتاب الطهارة .

### منكرات الضيافة

(منها) فرش الحرير للرجال وتبخير البخور في حجرة ذهب أو فضة ، والشرب في أواني الفضة .

(ومنها) سماع القيظات ، أي : النساء المغنيات .

(ومنها) أن يكون الطعام حراماً أو الموضع منصوباً .

(ومنها) أن يكون فيها من يعملى شرب الخمر ، فلا يجوز الحضور

إن كان فيها مضحك بالحكايات وأنواع النوادر ، فإن كان يضحك بالفحش والكذب لم يجز الحضور ويجب الإنكار عليه ، وإن كان ذلك بمزح لا كذب فيه ولا فحش فهو مباح ، أعني ما يقل منه . فأما اتخاذ صنعة وعادة فليس بمباح .

( ومنها ) الإسراف في الطعام والبناء فهو منكر ، بل في المال منكران : ( أحدهما ) الإضاعة ( والآخر ) الإسراف ، فالإضاعة تفويت مال بلا فائدة يعتمد بها كإحراق الثوب وتمزيقه ، وفي معناه صرف المال إلى الفساحة والمنكرات وقد يطلق على الصرف إلى المباحات في جنسها ولكن مع المبالغة ، والمبالغة تختلف بالإضافة إلى الأحوال قال تعالى : ( ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ) وقال تعالى : ( ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ) وقال تعالى : ( والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ) فمن لم يملك إلا مائة دينار مثلاً ومعه عياله وأولاده ، ولا معيشة لهم سواه ، فأنفق الجميع في وليمة فهو مسرف يجب منعه منه ، كذلك لو صرف جميع ماله إلى نقوش حيطانه وتزيين بنيانه فهو أيضاً إسراف محرم ، وأما فعل ذلك ممن له كثير فليس بحرام ، لأن التزيين من الأغراض الصحيحة ، وكذلك القول في التجميل بالثياب والأطعمة فذلك مباح في جنسه ، ويصير إسرافاً باعتبار حال الرجل وثروته .

### المنكرات العامة

اعلم أن كل قاعد في بيته أينما كان فليس خالياً في هذا الزمان عن منكر حيث القاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف ، فأكثر من جاهلون بالشرع في البلاد ، فكيف في القرى والبادي ، فواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة في البلد فقيه يعلم الناس دينهم ، وكذا في كل قرية ،

وواجب على كل فقيه فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض السكفاية أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد والعرب ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم ، فإن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الباقيين .  
وبالجملة فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلاحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ، ثم يعلم ذلك أهل بيته ، ثم يتعمد بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ، ثم إلى أهل محله ، ثم إلى أهل بلده ، ثم إلى أهل السواد المكتنف ببلده ، ثم إلى أهل البوادي ، وهكذا إلى أقصى العالم ، فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد ، وإلا حرج به كل قادر عليه قريباً كان أو بعيداً .

### كتاب الآداب النبوية والأخلاق المحمدية

بيات تأديب الله تعالى صفيه محمداً

صلوات الله عليه بالقرآن

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير الضراعة والابتهال دائم السؤال من الله تعالى أن يزيه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، فكان يقول في دعائه : « اللهم حسن خلقي وخلقي » ويقول : « اللهم جنبني منكرات الأخلاق » فاستجاب الله دعاءه وفاء بقوله عز وجل : ( أدعوني أستجب لكم ) فأنزل عليه القرآن وأدبه ، فكان خلقه القرآن ، وإنما أدبه القرآن بمثل قول تعالى : ( خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهل ) وقوله ( إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ) وقوله : ( واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ) وقوله : ( طاعف عنك واصفح إن الله يحب المحسنين ) وقوله : ( ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ) وقوله : ( والكاظمين الفیظ والماضين عن الناس ) وقوله : ( اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتبوا )

بعضكم بعضاً) وأمثال هذه التأديبات في القرآن لا تحصر ، وهو عليه الصلاة والسلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب ثم منه يشرف النور على كافة الخلق فإنه أدب بالقرآن وأدب الخلق به - ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ثم رغب الخلق في محاسن الأخلاق . ثم لما أكمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال تعالى : ( وإنك لعلی خلق عظیم ) ثم بين صلوات الله عليه للخلق أن الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفاسفها . قال صلى الله عليه وسلم : يا عجبا لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه لاخير أهلا ، فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا ، لقد كان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق فإنها مما تدل على سبيل النجاة . وفي الحديث : « إن الله حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال » ومن ذلك حسن المعاشرة ، وكرم الضيعة وابن الجانب ، وبذل المعروف وإطعام الطعام وإفشاء السلام ، وعبادة المريض ، وتشجيع الجنابة وحسن الجوار لمن جاور مسلما كان أو كافرا ، وتوقير ذي الشيبة ، وإجابة الطعام ، والدعاء عليه ، والعمو ، والإصلاح بين الناس ، والجود والكرم والسماحة ، وكظم الغيظ ، واجتناب المحارم ، والفيبة ، والكذب ، والبخل والشح ، والجفاء ، والمكر ، والخديعة ، والنميمة ، وسوء ذات البين ، وقطيعة الأرحام ، وسوء الخلق ، والتكبر ، والفخر ، والاختيال ، والاستطالة ، والبذخ ، والرفحش ، والحقد ، والحسد ، والطيرة ، والبغى ، والعدوان ، والظلم .

قال أنس رضي الله عنه : فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها ، ولم يدع غشا أو عيبا إلا حذرنا منه ونهانا عنه ، ويكفي من ذلك كله هذه الآية ( إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ) وقال معاذ : أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا معاذ أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث

والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجار ورحمة اليتيم ، وابن الكلام ، وبذل السلام ، وحسن الفعل ، وقصر الأمل ؛ ولزوم الإيمان والتفقه في القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وخفص الجناح ، وأنهاك أن تسب حكماً ، أو تكذب صادقاً ، أو تطيع آثماً أو تعصى إماماً عادلاً أو تفسد أرضاً . وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة السر بالسر ، والعلانية بالعلانية « فهكذا أدب عباد الله ، ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب .

بيان جهل من محاسن أخلاقه صلوات الله عليه

كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس ، وأشجع الناس ، وأعدل الناس ، وأهف الناس ، لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه ، وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه ونجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه ، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط ، ويضع سائر ذلك في سبيل الله لا يسأل شيئاً إلا أعطاه ، ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى أنه ربما احتاج قبل انقضاء العام فاستقرض وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله ، وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد ، ويجيب دعوة الحر والعبد ، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن ويكافيها ويأكلها ، ولا يأكل الصدقة . ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين . يفضل لربه ولا يفضل لنفسه . وقد وجد بين من أصحابه قتيلاً من اليهود فلم يحف عليهم ولا زاد على مر الحق بل وداه بمائة ناقة وإن بأصحابه حاجة إلى بعير واحد يتقوون به . وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع . يأكل ما حضر ، ولا يرد ما وجد ، وإن وجد تمرأ دون خبز أكله وإن وجد شواء أكله . وإن وجد خبز بر أو شهير أكله ، وإن وجد حلوا

أو عسلاً كله ، وإن وجد ابناً دون خبز اكتفى به ، وإن وجد بطيخاً أو رطاباً  
أكله . لا يأكل متكئاً ولا على خوان ، لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية  
حتى لقي الله تعالى وإيثراً على نفسه لا فقراً ولا بخلاً .

وكان صلى الله عليه وسلم أشد الناس تواضعاً وأسكتهم في غير كبر ، وأبأنهم  
في غير تطويل ، وأحسنهم بشراً ، لا يهول شيء من أمور الدنيا ، خاتمه من  
فضة يلبسه في خنصره الأيمن والأيسر ، يركب الحمار ويردف خلفه عبده أو  
غيره ، يعود المرضى في أقصى المدينة ، يحب الطيب ، ويجالس الفقراء ، ويؤاكل  
المساكين ؛ ويكرم أهل الفضل ، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم ، ويصل رحمه  
ولا يجفو على أحد ، يقبل معذرة المعتذر إليه ، يمزح ولا يقول إلا حقاً ، ضحكته  
القبس من غير قهقهة . يرى اللعب المباح فلا ينكره ، يسابق أهله ، وترفع  
الأصوات عليه من الجفافة فيصبر ، لم يرتفع على عبده في مأكل ولا ملابس ،  
لا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه . يخرج  
إلى بساتين أصحابه لا يحتقر مسكيناً لفقره ، ولا يهاب ملكاً لملكه ، يدعو  
هذا وهذا إلى دعاء مستوياً ، قد جمع الله له السيرة الفاضلة والسياسة التامة ، وهو  
أبى لا يقرأ ولا يكتب . نشأ في بلاد الجمل والصحارى في فقر وفي رعاية الغنم يتما  
لأب له ولا أم فعله الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرقات الحميدة وأخبار  
الأولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والغبطة والخلاص  
في الدنيا . وفقنا الله لطاعته في أمره ، والتأسي به في فعله ، آمين  
أرب العالمين .

بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه

كما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه ما ضرب بيده أحداً قط إلا أن يضرب

بها في سبيل الله تعالى ، وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله  
وما خيّر بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة  
رحم فيكون أبعد الناس من ذلك ، وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة  
إلا قام معه في حاجته .

وقال أنس رضي الله عنه : والذي بعثه بالحق ما قال لي في شيء قط كرهه  
لم فعلته ، ولا لامني نساؤه إلا قال : « دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر » ،  
وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام ، ومن قامه لحاجة صابره حتى يكون  
هو المنصرف ، وكان إذا لقي أحداً من أصحابه بدأ بالمصافحة . وكان لا يقوم  
ولا يجلس إلا على ذكر الله . وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف  
صلاته وأقبل عليه فقال « ألك حاجة ؟ ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه  
لأنه كان حيث انتهى به المجلس جالس ، وكان يكرم من دخل عليه حتى ربما  
يسط له ثوبه يجلسه عليه ؛ وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته . وكان  
يعطي كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه  
ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس إليه ، ومجلسه مع ذلك حياء ، وتواضع وأمانة ،  
قال تعالى : ( فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا  
من حولك ) وافد كان يدعو أصحابه بكنام إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم ،  
ويكنى من لم تكن له كنية ، فكان يدعى بما كناه بها . ويكنى أيضاً النساء  
اللاتي لمن الأولاد ، واللاتي لم يلدن . ويكنى أيضاً الصبيان فيستلين به قلوبهم  
وكان أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضاً ، وكان أرف الناس بالناس ، وخير  
الناس للناس ، وأنفع الناس للناس ، ولم تكن ترفع في مجلسه الأصوات . وكان  
إذا قام من مجلسه قال : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت  
أستغفرك وأنوب إليك » .



بيان كلامه وضحك صلوات الله عليه

كان صلى الله عليه وسلم أفصح الناس منطلقاً وأحلام كلاماً ويقول : أنا أفصح العرب ، وكان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير يحفظه سامعه ويعيه ، وكان جهر الصوت أحسن الناس نعمة لا يتكلم في غير حاجة ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق ويعرض عن تكلم بغير جميل ، ويكفي عما اضطره الكلام إليه مما يكره ، وكان إذا سكت تكلم جلساًؤه ولا يتنازع عنده في الحديث ويعظ بالجد والنصيحة ، وكان أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه ومحبباً مما تحدثوا به وخاطباً لنفسه بهم ، ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسّم اقتداءً به وتوقيراً له وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى ، فيقول « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر الأرض والسموات عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

أخلاقه صلوات الله عليه في الطعام

كان صلى الله عليه وسلم يأكل ما وجد ، وإذا وضعت المائدة قال : « بسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة » وكان لا يأكل الحار ، ويقول إن الله لم يطعمنا ناراً فأبردوه ، وكان يأكل مما يليه ، ويأكل من الشعير والقماء بالرطب ، وكان أكثر طعامه الماء والتمر ، وأحب الطعام إليه اللحم وكان يأكل الثريد باللحم ، ويحب القرع ، وكان يحب من الشاة الذراع الكتف ولا يحب منها الكايتين ولا الذكر والأنثيين ولا المثانة والفرد والحياض يكره ذلك ، وكان لا يأكل الثوم ولا البصل ، وما ذم طعاماً قط إن أهجه نكاه ، وإن كرهه تركه ، وكان يعاف الضب والطحال ولا يجرمهما وكان إذا

فرغ قال : « الحمد لله اللهم لك الحمد أطعمت فأشبعتم وسقيت فأرويت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه » ، وكان إذا أكل اللحم غسل يديه غسلًا جيدًا ، وكان يشرب في ثلاث دفعات ، ويمس الماء مصًا ولا يعبه عبًا ، ولا يتنفس في الإناء بل ينحرف عنه ، وكان ربما قام في بيته فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرف .

### أخلاقه صلوات الله عليه في اللباس

وكان صلى الله عليه وسلم يلبس من الثياب ما وجد ، وأكثر لباسه البياض وكانت ثيابه كلها مشمرة فوفى السكعين ، وكان قميصه مشدود الأزرار ، وربما حل الأزرار ، وكان له ثوبان لجمعه خاصة ، سوى ثيابه في غير الجمعة ، وكان ربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره فأم به الناس ، وكان له كساء أسود يلبسه ثم وهبه ، وكان يتختم ، وربما خرج وفي خاتمه خيط مربوط يتذكر به الشيء ، وكان يحتم به السكتب وكان يلبس القلانس تحت العمامة وبغير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ، ثم يصلى إليها وكان إذا لبس ثوبًا لبسه من قبل ميامنه ويقول الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتى وأتجمل به في الناس ، وإذا نزع ثوبه أخرجه من ميامنه وكان إذا لبس جديدًا أعطى خلق ثيابه مسكينًا ، ثم يقول « مامن مسكين يكسو مسلمًا لله إلا كان في ضمان الله وحرزه حيًا وميتًا » ، وكان له فراش من آدم حشوه ليف ، وكانت له عبادة تفرش له حينما تنقل ثنى طاقتين تحفه ، وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومقاعه .

### عفوہ صلى الله عليه وسلم مع القدرة

كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس وأرغبهم في العفو مع القدرة ، فقد كان في حرب فرأى رجل من المشركين في المسلمين غرة فجاء حتى قام على رأس

رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف ، فقال من يمنعك مني فقال : « الله »  
 قطع السيف من يده فأخذ رسول الله السيف ، وقال : « من يمنعك مني » ،  
 قال كن خير آخذه قال : « قل أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله »  
 قال لا ، غير أنى لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، نفلى سبيله ، فجاء  
 أصحابه فقال جئتكم من عند خير الناس ، وكم استؤذن صلى الله عليه وسلم فى قتل  
 من أساء إليه ، وقيل دعنا يا رسول الله نضرب عنقه وهو يابى وينهى ، ثم يقبل  
 بذرة المعذر إليه ، وربما قال : « رحم الله أخى موسى قد أودى بأكثر من  
 ألف فصر » وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يباغى أحد منكم عن أحد من  
 أصحابى شيئاً فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » .

إغضاؤه صلوات عليه مما كان يكره

كان صلى الله عليه وسلم رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن ، يعرف  
 وجهه غضبه ورضاه ، وكان لا يشافه أحداً بما يكرهه ، بال أعرابى فى  
 المسجد بحضرتة فهم به الصحابة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ترموه ،  
 لئى لا تقطموا عليه البول ، ثم قال له : « إن هذه المساجد لا تصلح لشيء  
 من هذا » .

سخاؤه وجوده صلوات الله عليه

كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس وأسخام ، وكان فى شهر رمضان  
 كالريح المرسله لا يمسك شيئاً ، وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبى  
 صلى الله عليه وسلم قال : « كان أجود الناس كفاً ، وأوسع الناس صدراً ،  
 وأصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من  
 سألني فإني أعطاه ، ومن خالطه معرفة أحببه يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله ،  
 لا يئمل عن شيء قط إلا أعطاه » .

وأن رجلاً أتاه فسأله فأعطاه غنماً سدت ما بين جبلين فرجع إلى قومه ،  
وقال : أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة ، وما سئل شيئاً قط  
فقال لا ، وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم مال إليها فقسّمها  
فما رد سائلاً حتى فرغ منها ، وجاءه رجل فسأله فقال : « ما عندي شيء ولكن  
ابقع على فإذا جاءنا شيء قضيناه » ، فقال عمر يا رسول الله ما كلفك الله  
ما لا تقدر عليه فذكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال الرجل أنفق ولا تخش  
من ذي العرش إقلالا فتبسم صلى الله عليه وسلم وعرف السرور في وجهه ، ولما  
قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداؤه  
فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « أعطوني رداؤى لو كان لى عدد هذه  
المضاة اقسمتها بينكم ، ثم لا تجدونى بخيلاً ولا كذاباً ولا جباباً » .

### شجاعته صلى الله عليه وسلم

كان صلوات الله عليه أكرم الناس وأشجعهم ، قال على رضى الله عنه ،  
لقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو  
وكان من أشد الناس يومئذ بأساً ، وقال أيضاً ، كنا إذا احمر البأس ولقى القوم  
القوم اتقىنا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه  
ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول « أنا النبي لا كذب أنا ابن  
عبد المطلب » فما رنى يومئذ أحد كان أشد منه .

### تواضعه صلوات الله عليه

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس تواضعاً في علوم منصبه ، وكان  
يركب الحمار موكفاً عليه قطيفة ، وكان مع ذلك يستردف ، وكان يعود المريض  
ويقبع الجنائز ويحجب دهوة المملوك ويخفف النعل ويرقع الثوب ، وكان يصنع  
في بيته مع أهله في حاجتهم ، وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهته

ذلك ، وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ، وكان يجلس بين أصحابه مختلطاً بهم  
كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدرى أيهم حتى يسأل عنه ، وكان إذا جلس مع  
الناس إن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم ، وإن تحدثوا في طعام أو شراب  
تحدث معهم رفقا بهم وتواضعا لهم ، وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ،  
ويذكرون أشياء من أسر الجاهلية ويضحكون ، فيبتسم هو إذا ضحكوا ،  
ولا يزجرهم إلا عن حرام .

خلاقته الكريمة صلوات الله عليه

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير . وكان  
أزهر اللون ولم يكن بالآدم ولا الشديد البياض . وكان شعره ليس بالسبط  
ولا الجمد وشعر رأسه يضرب إلى شحمة أذنيه لم يبلغ شيبه عشرين شعرة بيضا  
في رأسه ولا في لحية . وكان واسع الجبهة أزج الحاجبين ، سابغهما أهدب  
الأشعار مقلج الأسنان كث اللحية وكان يهني لحية ويأخذ من شاربه - وكان  
عظيم المنكبين . بين كتفيه خاتم النبوة - وكان يمشي الهويفا كأنما يتقاع  
من صخر .

شذرة من معجزاته صلوات الله عليه

اعلم أن من شاهد أحواله صلى الله عليه وسلم وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة  
على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه وسياسة لأصناف الخلق وهداياته  
إلى ضبطهم وتآلفه أصناف الخلق وقوده إيام إلى طاعته مع ما يروى من عجائب  
أجوبته في مضائق الأسئلة وبدائع تدبيراته في مصالح الخلق ومحاسن إشاراته في  
تفصيل ظاهر الشرع الذي يعجز العقلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول  
أعمارهم ، لم يبق له ريب ولا شك في أن ذلك استمداد من تأييد سماوي وقوة  
إلهية ، وأن ذلك كله لا يتصور لمفتر ولا ملبس . بل كانت شمائله وأحواله شواهد

قاطعه بصدقه ، حتى أن العربي القح كان يراه فيقول والله ما هذا وجه كذاب  
فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله . فكيف من شاهد أخلاقه ومارس أحواله  
في جميع مصادره وموارده : وإنما أوردنا بعض أخلاقه لتعرف محاسن الأخلاق  
ليقتنبه لصدقه صلى الله عليه وسلم وعلو منصبه ومكانته العظيمة عند الله إذ آتاه الله  
جميع ذلك وهو أمي لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط في طلب علم  
بل نشأ بين أظهر الجهال من الأعراب يقيماً ضعيفاً مستضعفاً فن ابن حصل له  
محاسن الأخلاق والآداب ومعرفة مصالح الفقه من لدون غيره من العلوم فضلاً عن  
معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة لولا صريح  
الوحي ومن أين لقوة البشر الاستقلال بذلك فلو لم يكن إلا هذه الأمور الظاهرة  
الكفى وقد ظهر من آياته ومعجزاته ما لا يستريب فيه محصل . فلنذكر من جملتهم  
ما استفاضت به الأخبار من غير تطويل ، فنقول : استفاض أنه صلى الله عليه  
وسلم أطعم الفقر الكثير من الطعام القليل في منزل جابر ومنزل أبي طلحة ويوم  
الخنزق ، و مرة أطعم أكثر من ثمانين رجلاً من أقراص شعير حملها أنس  
في يده ، فأكلوا كلهم حتى شبعوا من ذلك وفضل لهم ، وبيع الماء من بين  
أصابه صلوات الله عليه فشرّب أهل المسكر كلهم وهم عطشى وتوضؤوا من قدح  
صغير ضاق عن أن يبسط عليه السلام يده فيه ، وأراق وضوءه من عين تبول  
ولا ماء فيها ، و مرة أخرى في بئر الحديدية فحاشتا بالماء فشرّب من عين تبول  
أهل الجيش وهم ألوف حتى رووا وشرب من بئر الحديدية ألف وخمسمائة ولم يكن  
فيها قبل ذلك ماء ، ورمى صلوات الله عليه جيش العدو بقبضة من تراب فعميت  
عيونهم ونزل بذلك القرآن في قوله تعالى : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى  
وحن الجزع الذي كان يخطب عليه إليه لما عمل له المنبر حتى سمع منه جميع أوجاع  
مثل صوت الإبل فضمه إليه فسكن ، ودعا اليهود إلى تمنى الموت وأخبرهم بأنهم  
لا يتمنونه فحيل بينهم وبين تمنيه كما أخبر

وأخبر عليه السلام بالغيوب ، فأندر عثمان بأن بلوى تصيبه بعدها الجنة ،  
بأن عماراً تقتله الفئة الباغية ، وأن الحسن يصلح الله به بين فئتين من  
المسلمين عظيمتين .

وأخبر عليه السلام عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار فظهر ذلك  
أن ذلك الرجل قتل نفسه .

وهذه كلها أشياء إلهية لا تعرف البتة بشيء من وجوه تقدمت المعرفة بها  
بمنجوم ولا بكشف ولا بنحو ولا بزجر لكن بإعلام الله تعالى له ووحيه إليه .  
واتبعه سراقه بن مالك فساخت قدما فرسه في الأرض حتى استغاثه فدعا له  
انطلق الفرس ، وأندره بأن سيوضع في ذراعيه سوار كسرى فكان كذلك .

وأخبر بمقتل الأسود العنسي الكذاب ليلة قتله وهو بصنعاء اليمن ، وأخبر بمن  
ذله ، وأخبر عليه السلام أنه يقتل أبي بن خلف الجحى فخذشه يوم أحد خدشاً  
طيفاً فكانت منيته فيه . وأطعم عليه الصلاة والسلام السم فمات الذي أكله  
وعاش هو صلى الله عليه وسلم بعده أربع سنين وكلمه الذراع المسموم .

وأخبر عليه السلام بمصارع صفاديد قريش ووقفهم على مصارعهم رجال رجلا  
لم يعتمد واحد منهم ذلك الموضع ، وأندر عليه السلام بأن طوائف من أمته يفرزون  
البحر فكان كذلك ، وزويت له الأرض فأرى مشارقها ومغاربها .

وأخبر بأن ملك أمته سيبلغ ما زوى له منها فكان كذلك فقد باغ ملكهم  
أول المشرق من بلاد الترك إلى آخر المغرب من بحر الأندلس وبلاد

أخبر فاطمة ابنته رضى الله عنها بأنها أول أهله لحوقاً به فكانت  
ذلك ، وأخبر نساءه بأن أطولهن بدأ أسرعن لحاقاً به فكانت زينب أطولهن  
المدة وأولهن لحوقاً به رضى الله عنها ، ومسح صرع شاه لابن لها

فدرت ، وكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود رضی اللہ عنہ ، وفعل ذلك من  
أخرى في خيمة أم معبد الخزاعية ، وندت عين بعض أصحابه فردها عليه  
الصلاة والسلام بيده فكانت أصح عينيه وأحسنهما ، وتفل في عين علي رضی اللہ  
عنه وهو أرمم يرم خوبر فصيح من وقته ، وبعثه بالراية . إلى غير ذلك من آيات  
ومعجزاته صلى الله عليه وسلم .

ومن يستريب في الخراق العادة على يده ويزعم أن آحاد هذه الوقائع لم يفتقروا  
تواتراً ، بل التواتر هو القرآن فقط ، كمن يستريب في شجاعة علي رضی اللہ عنہ  
وسخاوة حاتم الطائي ، ومعلوم أن آحاد وقائعهم غير متواترة ، ولكن مجموع  
الوقائع يورث علماً ضرورياً ، ثم لا يتماهى في تواتر القرآن ، وهو المعجزة  
الكبرى الباقية بين الخلق ، وليس لنبي معجزة سواه صلى الله عليه وسلم  
إذ تحدى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلقاء الخلق وفصحاء العرب  
وجزيرة العرب حينئذ مملوءة بالآلاف منهم والفصاحة صنعتهم ، وبها منافستهم  
ومباهاتهم .

وكان يفادي بين أظهرهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة  
مثله إن شكوا فيه ، وقال لهم : ( قل لئن اجتمعت الإنس والجن على  
يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ) قال ذلك  
تمجيزاً لهم ، فمجزوا عن ذلك حتى عرضوا أنفسهم للقتل ونساءهم وذرائعهم  
للسبي ، وما استطاعوا أن يعارضوا ولا أن يقدحوا في جزائه وحسنه .

ثم انتشر ذلك بعده في أقطار العالم شرقاً وغرباً ، قرناً بعد قرن وعصراً  
عصر إلى زماننا هذا فلم يقدر على معارضته أحد .

فأعظم بعبارة من ينظر في أحواله ، ثم في أقواله ، ثم في أفعاله ، ثم في أخلاقه  
ثم في معجزاته ، ثم في استمرار شرعه إلى الآن ، ثم في انتشاره في أقطار العالم .



في إذعان ملوك الأرض في عصره وبعده عصره ، مع ضعفه ويقمه ، ثم يتبارى  
 بذلك في صدقه . فما أعظم توفيق من آمن به وصدقته واتبعه في كل ما ورد  
 صدر . فندسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به في الأخلاق والأفعال ،  
 الأحوال والأقوال ، بمنه وسعة جوده آمين .

تم الجزء الأول من « موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين »

قبيل عشاء ليلة السبت غرة ذي الحجة الحرام ختام عام

( ١٣٣٣ هـ ) بمنزلنا بدمشق الشام على يد مؤلفه

ومختصره « جمال الدين القاسمي » عفا الله عنه

ومن والديه وإخوانه وأولاده والمسلمين

والحمد لله رب العالمين

« انتهى الجزء الأول ، ويليه الجزء الثاني ، وأوله كتاب رياضة النفس »



# مَوْعِظَاتُ الْمُؤْمِنِينَ

مِنْ

## أَحْيَاءِ عَالَمِ الدِّينِ

تَأليف

العلامة المرحوم الشيخ محمد جمال الدين الفاسمي الدمشقي

تنبية

لما رأنا المؤلف رحمه الله شغفين بنشر الكتب النافعة  
الإسلامية لا سيما الخاص بترقية الأخلاق وبترويح  
الفضيلة في الآفاق أذن لنا بنشر هذا الكتاب البديع  
النافع وأعطانا تصريحاً بذلك فرغنا فيما فطرنا عليه من حجب النفع  
للعموم فمنا باعادة طبعه راجين الحق جل أسمه أن ينفع به العباد

### الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظة

يطلب من  
المكتبة التجارية الكبرى  
بمصر ص.ب ٥٧٨



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كتاب رياضة النفس

في علاجها وإصلاحها

فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى : ( قد أفاح من زكاتها ) . وإيهاها هو المراد بقوله تعالى : ( وقد خاب من دساها ) ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها بعونه تعالى .

بيان فضيلة حسن الخلق ، ومذمة سوء الخلق

قال الله تعالى لنبيه مثنياً غايه ومظهراً نعمته لديه : ( وإنك لعلی خاق عظیم ) ، وقالت عائشة رضی الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خاقه القرآن . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وعنه صلى الله عليه وسلم : « الدين حسن الخلق » وهو أن لا تغضب ، وقيل : يا رسول الله ، ما الشؤم ؟ قال : « سوء الخلق » وقال صلى الله عليه وسلم : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلاق حسن » وقيل له : يا رسول الله ، إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها ، قال : « لا خير فيها هي من أهل النار » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق ألا فزينا دينكم بهما » وقيل : يا رسول الله ، أي المؤمنين أفضلهم إيماناً ؟ قال : « أحسنهم خلقاً » وقال صلى الله عليه وسلم : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم تسعونم يبسط الوجه وحسن الخلق » وقال صلى الله عليه وسلم : « يا أبا ذر لا عقل كل تدبير ولا حسب كحسن الخلق » وعن الحسن : من ساء خلقه ، عذب نفسه .

وقال وهب : مثل السيء الخلاق كمثل الفخارة المكسورة ، لا ترفع ولا تعاد طيناً . وقال الفضيل : لأن يصحبنى فاجر حسن الخلاق أحب إليّ من أن يصحبنى عابد سيء الخلق .

ما قاله السلف في حسن الأخلاق وشرح ماهيته

اعلم أنه روى عنهم في ذلك ما هو كالثمرّة ، والغاية من ذلك ما قاله الحسن رحمه الله : حسن الخلاق بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى . وقال أيضاً : هو إرضاء الخلق في السراء والضراء . وقيل غير ذلك مما هو من ثمرات حسن الخلق . وأما حقيقة الخلق فهي هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً — سميت تلك الهيئة خالقاً حسناً ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً ، وإنا قلنا إنها هيئة راسخة لأن من من يصدر عنه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خالقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ ، وإنا اشتراطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خالقه السخاء والحلم ، وأمّهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل . ونعني بالحكمة حالة للنفس بها تدرك الصواب من الخطأ في جميع الأحوال الاختيارية . ونعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها يسوس الغضب والشهوة ، ويحميها على مقتضى الحكمة ويضبطها في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها . ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها . ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع . فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها . وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين ، فقال تعالى : ( إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم

الصادقون) فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هي قوة اليقين وهي ثمرة العقل ومنتهاى الحكمة ، والمجاهدة بالمال هو السخاء الذى يرجع إلى ضبط قوة الشهوة ، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال ، فقد وصف الله الصحابة فقال : ( أشداء على الكفار رجاء بينهم ) إشارة إلى أن للشدة موضعاً وللرحمة موضعاً فليس الكمال فى الشدة بكل حال ولا فى الرحمة بكل حال .

### بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

اعلم أن بعض من غابت عليه البطالة استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته ، فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها ، فإن الطباع لا تتغير فنقول : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات . ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسنوا أخلاقكم » وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل البازى من الاستيحاش إلى الأنس والفرس من الجراح إلى السلاسة والانقياد ، وكل ذلك تغيير للأخلاق ، والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول : الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمى واختياره فى أصله وتفصيله ، كالسما واللكواكب بل أعضاء البدن داخلاً وخارجاً وسائر أجزاء الحيوانات .

وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكاله وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نحلة إذا انضاف التربية إليها ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض ، فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعها وقهرها بالكلية حتى لا يبقى لها أثر لم نقدر عليه أصلاً ، ولو أردنا

سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب  
نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى . نعم الجبال مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها  
بطيئة القبول ، وليس المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها -  
وهيئات فإن الشهوة خاقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة فلو انقطعت شهوة  
الطعام لهلك الإنسان ، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انقطع  
الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك - ومهما بقي أصل  
الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على  
إمساك المال ، وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال  
الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط . والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية  
وذلك بأن يخو عن التهور وعن الجبن جميعاً - وبالجملة أن يكون في نفسه قوياً  
ومع قوته منقاداً للعقل - ولذلك قال الله تعالى : ( أشداء على الكفار رحماء بينهم )  
وصفهم بالشدّة ، وإنما تصدر الشدة عن الغضب ، ولو بطل الغضب لبطل الجهاد  
وكيف يقصد قمع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن  
ذلك إذ قال صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر » وكان  
إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ، ولكن لا يقول  
إلا حقاً . فكان عليه الصلاة والسلام لا يخرج غضبه عن الحق وقال تعالى :  
( والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ) ولم يقل والفاقرين الغيظ ، فرد الغضب  
والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه بل يكون  
العقل هو الضابط لها والغالب عليهما ممكن . وهو المراد بتغيير الخلق . فإنه ربما  
تستولى الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها عن الانبساط إلى  
الفواحش وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال فدل أن ذلك ممكن ، والتجربة  
والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها ، والذي يدل على أن المطلوب هو  
الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعاً وهو وسط بين



لرفى التبذير والتقتير ، وقد أثنى الله تعالى عليه فقال : ( والذين إذا أنفقوا لم  
سرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ) وقال تعالى : ( ولا تجعل يدك مغلولة  
لى عنقك ولا تبسطها كل البسط ) وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام الاعتدال  
ون الشره والجمود قال الله تعالى : ( كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب  
المسرفين ) وقال فى الغضب : ( أشداء على الكفار رحماء بينهم ) وقال صلى الله  
عليه وسلم : « خير الأمور أوسطها » .

بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق على الجملة

عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة ، وإلى  
اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضاً . وهذا الاعتدال  
يحصل على وجهين : ( أحدهما ) بجود إلهى وكمال فطرى بحيث يخلق الإنسان ويولد  
كامل العقل حسن الخلق ، وقد كفى ساطان الشهوة والغضب بل خالقنا  
معتدلين منقادتين للعقل والشرع ( والوجه الثانى ) اكتساب هذه الأخلاق  
بالمجاهدة والرياضة وأعنى به حمل النفس على الأعمال التى يقتضيتها الخلق المطلوب  
من أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خالق الجود فطريقه أن يتكاف تعاطى فعل الجود  
وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه به ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه حتى  
يصير ذلك طبعاً ويتيسر عليه فيصير به جواداً - وكذا من أراد لنفسه خالق  
التواضع وقد غاب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة  
مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خالقاً له وطبعاً فيتيسر  
عليه ، وجميع الأخلاق الحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق ، وغايته أن يصير الفعل  
الصادر منه لذيذاً . فالسخى هو الذى يستلذ بذل المال دون الذى يبذله عن كراهة ،  
المتواضع هو الذى يستلذ التواضع ، وإن ترسخ الأخلاق الدينية فى النفس  
لم تتعود جميع العادات الحسنة ، وما لم تترك جميع الأفعال السيئة ، وما لم يواظب  
بالمواظبة من يشاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ، ويكره الأفعال القبيحة

ويتألم بها - كما قال صلى الله عليه وسلم « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به ولذلك قال الله تعالى : ( وإنما لكبيرة إلا على الخاشعين ) ثم لا يكفي في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر ، ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرّة العين ومصير العبادات لذينة فإن العبادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك فإننا نرى المقامر الناس قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار ، مع أن القمار ربما سابه ماله وخرب بيته وتركه مفاساً ، ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به - وذلك لطول إقامته له وصرف نفسه إليه مدة .

وكذلك اللاعب بالجمام قد يقف طول النهار في حر الشمس قائماً على رجائه وهو لا يحس بثمها لفرحه بالظيور وحركاتها وطيرانها وتخلقها في جو السماء فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف ، وإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه - بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الميل إلى أكل الطين ، فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة . فَمَا مِيلَهُ إِلَى الْحِكْمَةِ وَحُبِّ اللَّهِ تَعَالَى وَمَعْرِفَتِهِ وَعِبَادَتِهِ فِيهِ كَمَا مِيلَ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّهُ مَقْتَضِي طَبْعِ الْقَلْبِ فَإِنَّهُ أَمْرٌ رَبَّانِيٌّ وَمِيلَهُ إِلَى مَقْتَضِيَّاتِ الشَّهْوَةِ غَرِيبٌ مِنْ ذَاتِهِ وَعَارِضٌ عَلَى طَبْعِهِ - وَإِنَّمَا غِذَاءُ الْقَلْبِ الْحِكْمَةُ وَالْمَعْرِفَةُ وَحُبُّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَكِنْ أَنْصَرَفَ عَنْ مَقْتَضِي طَبْعِهِ لِمَرَضٍ قَدْ حَلَّ بِهِ كَمَا قَدْ يَحُلُّ الرُّضُ بِالْمَعْدَةِ فَلَا تَشْتَبِي الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ وَهِيَ سَبِيحَانُ حَيَاتِهِمْ فَكُلُّ قَلْبٍ مَالٌ إِلَى شَيْءٍ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى فَلَا يَنْفَكُ عَنْ مَرَضٍ بِقَدْرِ مِيلِهِ إِلَى

إذا كان أحب ذلك الشيء لكونه معيناً له على حب الله تعالى وعلى دينه فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض . فإذا قد عرفت بهذا قطعاً أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة هي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء فتصير طبعاً وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح أعني النفس والبدن - فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا يتحرك إلا على وفقها لا محالة . كل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب الأمر فيه دور . وإذا تحققت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة ، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة ، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير إخوان الصلاح إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً فمن تظاهرت في حق الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً فهو غاية الفضيلة ومن كان رذلاً بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل ؛ وبين الرتبتين من اختلاف فيه هذه الجهات ، ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صمته وحالته ( فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ) ( وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ) .

### بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت من قبل أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس . والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها ، كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له . والميل عن الاعتدال مرض فيه فانتخذ البدن مثلاً فنقول : مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها ، وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها . مثال البدن في علاجه بمحو العال عنه وكسب الصحة له وجابها إليه كما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعترى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة وإنما أبواه

يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه أى بالاعتیاد والتعلیم تكتسب الرذائل ، وكما أن البدن فى الابتداء لا یخاق كاملاً وإنما يكمل ویقوى بالنشوء والتربية بالغذاء ، فكذلك النفس تخاق ناقصة قابلة للكمال ، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم .

وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطیب تمهید القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغى أن تسعى لحفظها وجلب مزيد القوة إليها واكتساب زيادة صفاتها » وإن كانت عديمة الكمال والصفاء ، فينبغى أن تسعى لجلب ذلك إليها ، كما أن العلة الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضعها ، فإن كانت من حرارة فبالبرودة وبالعكس فكذلك الرذيلة التى هى مرض القاب علاجها بضعها فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخى ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن الشهى تكلفاً ، وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء شدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة ، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى فإن مرض البدن يخاص منه بالموت . ومرض القاب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد .

وبالجملة فالطريق الكلى فى معالجة القلوب هو سلوك مساك المضادة لكل ما شهواه النفس وتميل إليه وقد جمع الله ذلك كله فى كتابه العزيز فى كلمة واحده فقال تعالى : ( وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ) والأصل الهم فى المجاهدة الوفاء بالعزم . فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ، ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختباراً . فينبغى أن يصبر ويستمر فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت . عافانا الله من فسادها .

بیان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه

اعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه . فمن كانت صيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه . فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن كثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم ، يرى أحدهم القذى في عين أخيه لا يرى الجذع في عين نفسه . فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق :  
( الطريق الأول ) أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطاع على ضايا الآفات ويتبع إشارته في مجاهدته — وهذا شأن التلميذ مع أستاذه فيعرفه ستاده عيوب نفسه ، ويعرفه طريق علاجه .

( الطريق الثاني ) أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً يلاحظ أحواله أفعاله فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه ينبهه عليه ، فهكذا كان يفعل الأكبر من أئمة الدين . كان عمر رضي الله عنه يقول رحم الله امرئاً أهدي إلى عيوبي وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم إن المنافقين فهل ترى على شيئاً من آثار النفاق . فهو على جلاله قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضي الله عنه ، فكل من كان أوفر عقلاً وأعلى منصباً كان أقل أعجاباً وأعظم اتهاماً وفرحاً بتبديده غيره على عيوبه ، وقد آل الأمر في زماننا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا ويكاد هذا أن يكون صحاً عن ضعف الإيمان . فإن الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة فلو نبهنا على أن تحت ثوبنا عقرباً لتقلدنا منه منة وفرحنا به ، واشتغلنا بإزالة العقرب منها ، وإنما نكاتها على البدن ولا يدوم ألمها يوماً فما دونه ، ونكاهة خلاق الرديئة على صميم القاب أخشى أن تدوم بعد الموت أبد الآباد — ثم لا تفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بإزالتها بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل ما فنقول له وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت وتشتغلنا العداوة معه عن الانتفاع

بنصحه ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب وأصل كل ذلك ضعف الإيمان — فנסأل الله تعالى أن يهتدنا ويبيصر بعيوننا ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكر من يطاعنا على مساوينا بمنه وفضله .

( الطريق الثالث ) أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من أسنة أعدائه فإن عيب السخط تبدى المساويا . ولعل انتفاع الإنسان بعبء مشاحن يذكر عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه إلا أن الطبيب مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقول على الحسد ، ولكن البصير لا ينجح عن الانتفاع بقول أعدائه فإن مساويه لا بد وأن تنتشر على ألسنتهم .

( الطريق الرابع ) أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه فإن المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غير عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى ، فما يتصف به غير فلا يفتك هو عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه ، فليتنفد نفسه ويظهرها عن كل ما يذمه من غيره ، وناهيك بهذا تأديباً فلو ترك الناس كل ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب ، وهذا كله من حيل من فقد شيء مريباً ناصحاً في الدين وإلا فمن وجدته فقد وجد الطبيب فليلازمه فإنه يخاطب من مرضه .

### بيان تمييز علامات حسن الخلق

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهد حتى ترك فواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه قد هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق فإن حسن الخلق الإيمان وسوء الخلق هو النفاق — وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه وهي بجماتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق . فانورد جملة من ذلك

بِه مَحْسَنِ الْخَلْقِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ( قَدْ أَفَاحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ  
الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ  
مُحَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ  
لِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ  
مِلَّةِهِمْ يُحَافِظُونَ ، أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ )  
قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ( التَّائِبُونَ ، الْعَابِدُونَ ، الْحَامِدُونَ ، السَّائِحُونَ ، الرَّكَعُونَ ،  
السَّاجِدُونَ ، الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ  
اللَّهِ وَبَشَرِ الْمُؤْمِنِينَ ) وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ( إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ  
لُجُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يَقِيمُونَ  
الصَّلَاةَ وَيُمَارِقُونَ رِزْقَهُمْ يَنْفِقُونَ أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ  
رِزْقٌ كَرِيمٌ ) وَقَالَ تَعَالَى : ( وَعِبَادِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا  
نَادَاهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ) إِلَى آخِرِ السُّورَةِ . فَمَنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ حَالُهُ فَلْيَعْرِضْ  
نَفْسَهُ عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ فَوْجُودَ جَمِيعِ الصِّفَاتِ عِلْمًا حَسَنَ الْخَلْقِ وَفَقَدْ جَمَعَهَا عِلْمًا  
سَمِيًّا الْخَلْقِ ، وَوُجُودَ بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ يَدُلُّ عَلَى الْبَعْضِ دُونَ الْبَعْضِ فَايْتَمَتَّلْ  
بِحَصِيلِ مَا فَقَدَهُ وَحَفِظْ مَا وَجَدَهُ ، وَقَدْ وَصَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
الْمُؤْمِنَ بِصِفَاتٍ كَثِيرَةٍ وَأَشَارَ بِجَمِيعِهَا إِلَى مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ ، فَقَالَ : « الْمُؤْمِنُ  
يُحِبُّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ » وَقَالَ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنِ خَيْرًا  
لِيَصْمِتَ » وَذَكَرَ أَنَّ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ هِيَ حَسَنُ الْخَلْقِ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :  
« كَمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا » وَقَالَ : « لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَشِيرَ إِلَى  
بِهِ بِنَظَرَةٍ تُوْذِيهِ » وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَرُوعَ مَسَلَمًا » وَقَالَ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّمَا يَتَجَالَسُ الْمُتَجَالِسَانُ بِأَمَانَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا يَحِلُّ  
بَيْنَهُمَا أَنْ يَفْشَى عَلَى أَخِيهِ مَا يَكْرَهُهُ » وَأَوَّلَى مَا يَمْتَحَنُ بِهِ حَسَنُ الْخَلْقِ الصَّبْرُ

على الأذى واحتمال الجفاء ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمشى ويمشي معه أنس فأدركه أعرابي فجذبه جذباً شديداً وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية ، قال أنس رضي الله عنه : حتى نظرت إلى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه ، فقال : يا محمد ، هب لي من ماله الذي عندك ؛ فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ، ثم أمر بإعطائه . ولما أكرت قريش إيذاه قال : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

حكى أن الأحنف بن قيس قيل له : ممن تعلمت الحلم ؟ فقال : من قيس ابن عاصم ، قيل له : وما بلغ من حلمه ؟ قال : بينما هو جالس في داره إذ أتته جار له بسفود عاينه شواء فسقط من يدها فوق علي ابن له صغير فمات فدهشت الجار فقال : لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى .

وروى أن علياً كرم الله وجهه : دعا غلاماً فلم يجبه فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه ، فقام إليه فرآه مضطجعاً . فقال أما سمعت يا غلام ؟ قال بلى ، قال : حملك على ترك إجابتي ؟ قال أمنت عقوبتك فتكاسلت . فقال : امض فأنت لوجه الله تعالى .

وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله : يا مرائى . فقال : يا هذه وجدت الذي أضله أهل البصرة .

فهذه نفوس قد ذلت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها ، ونقيت من الفس ووالحق بواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يغتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق ، درجة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصديقون .



بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوئهم

ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها ، والصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة غالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه ، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك ، وكان الوزر في رقبة القيم عايبه . وقد قال الله تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ) ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى وصيانتته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعود التمتع ولا يحب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضائته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال ، ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء فإنه إذا كان يحتمس ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه ، وهذه بشارة تدل على اعتدال الأخلاق ووصفاء القلب فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه ، وإن كان ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه ، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ، وأن يقول عليه بسم الله عنده . وأن يأكل مما يليه ، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدق النظر إليه لا إلى من يأكل ، وأن لا يسرع في الأكل ، وأن يجيد المضغ وأن لا يوالى من اللقم ، ولا يبلطخ يده ولا ثوبه ، وأن يعود الخبز القفار في بعض الأوقات لا يصير بحيث يرى الأدم حتماً وأن يقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه

كل من يكثر الأكل بالبهائم ، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل ، وأن يحب إليه الإيثار بالطعام وقله المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن ، أى طعام كان ، وأن يحب إليه من الثياب ما ليس بملون وحرير ، ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين ، وأن الرجال يستنكفون منه ويكرر ذلك عليه ، ومهما رأى على صبي ثوباً من الحرير أو ملوناً فينبغي أن يستنكره ويذمه ، وأن يحفظ عن الصبيان الذين عودوا التعمم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه فإن الصبي مهمهم أهمل في إبداء نشوئه خرج في الأغلب ردىء الأخلاق كذاباً حسوداً سروقاً تماماً لحوحاً ذا فضول وضحك وكيد ومجانة ، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بالتأديب ثم يشتغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينفوس في نفسه حب الصالحين ولا يحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله فإن ذلك يفرس في قلوب الصبيان بذر الفساد ، ثم مهما ظهر من الصبي خالق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه ، فإن أظهر ذلك عليه ربما يفيد حسارة حتى لا يبالي بالكاشفة فعند ذلك إن عاد ثانياً فينبغي أن يعاقب سراً ، ويعظم الأمر فيه ويقال له إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا ويطاع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس ، ولا يكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه ، وليكن الأب حافظاً هيئة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً والأم تخوفه بالأب وترجره عن القبائح . وينبغي أن يمنع عن النوم نهراً ، فإنه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلاً ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسخف بدنه فلا

يصبر عن التمتع بل يعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم ، وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح فإذا منع تعود ترك فعل القبيح ، ويعود بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل ، ويعود أن لا يكشف أطرافه ، ولا يسرع المشى ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء من مطامعه وملايسه بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره والتأطيف في الكلام معهم ، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له بل يعلم أن الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ ، وأن الأخذ لؤم وخسة ، ودناءة وإن ذلك من دأب الكلب فإنه يبصبص في انتظار لقمة والطمع فيها - وبالجملة يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ، ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب فإن آفة حب الذهب والفضة أضر من آفة السموم على الصبيان بل وعلى الكبار أيضاً ، وينبغي أن يعود أن لا يبصق في مجاسه ولا يتمخط بل ولا يتشاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل ، ويعلم كيفية الجلوس ، ويمنع كثرة الكلام ، ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللثام ، ويمنع اليمين رأساً صادقاً كان أو كاذباً حتى لا يعتاد ذلك في الصغر ، ويعود حسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سناً وأن يقوم لمن فوّه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ويمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك فإن ذلك يسرى لا محالة من القرناء السوء . وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء ، وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب ، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يميت قلبه ويبطل كاهه ، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً . وينبغي أن

يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي ، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم وأن يترك اللعب بين أيديهم ، ومهما بلغ سن التمييز فينبغي أن يسامح في ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ، ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع ، ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش . فإذا وقع نشوء كذلك في الصبا فهما قارب البوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور .

## كتاب آفات اللسان

### بيان خطر اللسان

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة منه إلا بالنطق بخير . فعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » ولا يدخل الجنة رجل لا يضمن جاره بوأثقه » وقال معاذ بن جبل قات يا رسول الله أتؤاخذ بما نقول ؟ فقال « يا ابن جبل وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : يا لسان قل خيراً نعم ، واسكت عن شر أسلم من قبل أن تندم . وعنه صلى الله عليه وسلم « من كذب لسانه ستر الله عورته ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ، ومن اعتذر إلى الله قبل عذره » وقال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت » وعنه عليه الصلاة والسلام « اخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغاب الشيطان » .

جمل من آفات اللسان — الأولى : الكلام فيما لا يعنى

اعلم أن رأس من العبد أوقاته : فهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر به ثواباً في الآخرة فقد ضيع رأس ماله — ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » وسببه الباعث عليه هو الحرص على معرف

ما لا حاجة إليه أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها . وعلاج ذلك كله أن أنفاسه رأس ماله وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الخيرات الحسان . فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين .

### الآفة الثانية : فضول الكلام

وهو أيضاً مذموم - وهذا يتناول الخوض فيما لا يعنى ، والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يجسمه ويكرره مهما تآدى مقصوده بكلمة واحدة فإن ذكر كلمتين فالثانية فضول - أى فضل عن الحاجة وهو أيضاً مذموم لما سبق وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر . واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور في كتاب الله تعالى : قال الله عز وجل : ( لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ) وقال صلى الله عليه وسلم : « طوبى لمن مسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله » فانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان . قال عطاء : إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول صلى الله عليه وسلم أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو تنطق لحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها . أتذكرون أن عليكم حافظين كراماً كاتبين . عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ؟ ! أما يستحى أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا ديناه . وقال ابن عمر : إن أحق ما طهر الرجل لسانه . وفي الأثر : ما أوتى رجل شراً من فضل لسانه .

### الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات السباق وتكبير الجبابرة ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة ، فإن ذلك

عما لا يحل الخوض فيه ، وأكثرت الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفككه بأعراض الناس أو الخوض في الباطل . وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفنيها فلذلك لا مخلص منها إلا بالاختصار على ما يعنى من مهمات الدين والدنيا . وفي الحديث : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل » وإليه الإشارة بقوله تعالى : ( وكنا نخوض مع الخائضين ) وبقوله تعالى : ( فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم ) وعنه صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة » .

#### الآفة الرابعة : المراء والجدال

وذلك منهي عنه قال صلى الله عليه وسلم : « لا تمار أخاك ولا تمارحه ولا تعده موعداً فتخلفه » وعنه صلى الله عليه وسلم : « ما ضل قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدل » وعنه : « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محقاً » .

وقال بلال بن سعيد : إذا رأيت الرجل لجوجاً مमारياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته ، وقال ابن أبي لبلى : لا أمارى صاحبي فيما أن أ كذبه وإما أن أغضبه . وما ورد في ذم المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد التكلم وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض فكل كلام سمعته ، فإن كان حقاً فصدق به ، وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه .

والواجب إن جرى الجدل في مسألة علمية السكوت - أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكادة - أو التاطف في التعريف لا في معرض

الطعن ، وأما قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه فهي المجادلة المحظورة التي لا نجاة من إثمها إلا بالسكوت ، وما الباعث عليها إلا الترفع بإظهار العلم والفضل والتهجم على الغير بإظهار نقصه وهما صفتان مهلكتان ، ولا تنفك الممارسة عن الإيذاء وتهيج الغضب وحمل المعارض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدم في قائله بكل ما يتصور له فيثور الشجار بين المتمازجين - وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله ، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره .

#### الآفة الخامسة : الخصومة

وهي أيضاً مذمومة وهي وراء الجدال والمراء : وحققتها لجأج في الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود . وفي الحديث : « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » ولا تكون الخصومة مذمومة إلا إن كانت بالباطل أو بغير علم كالذي يدافع قبل أن يعلم الحق في أي جانب - أو يمزج بخصومته كلمات مؤذية لا حاجة لها في نصرته الحجة وإظهار الحق - أو يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحق ذلك القدر من المال ، وفي الناس من يصرح به ويقول إنما قصدى عناده وكسر غرضه ، وإني إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجأج هو مذموم جداً . فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد أمراف وزيادة لجأج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس ذمياً ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً فإن ضبط اللسان في الخصومة على الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب ، وإذا هاج غضب نسي المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة غيره ويحزن بمسرتة ويطلق اللسان في عرضه . فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض

لهذه المحذورات . وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى إنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب ، فالخصومة مبدأ كل شر وكذا المراء والجدال فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جداً - نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام . وقد قال الله تعالى : ( وقولوا للناس حسناً ) وكان ابن عباس رضي الله عنهما « من سلم عليك من خاق الله فأردد عليه السلام وإن كان مجوسياً » إن الله تعالى يقول : ( وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ) وقال ابن عباس أيضاً : « لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه » وفي الحديث « الكأمة الطيبة صدقة » وقال عمر رضي الله عنه « البر شيء هين : وجه طابق وكلام لين » وقال بعض الحكماء : الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح . وقال آخر : كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضى به جايسك فلا تكن به عليه بخيلاً فاعله يعوضك من ثواب المحسنين .

#### الآفة السادسة : التقعر في الكلام

وهو التشدق وتكلف السجع والنصاحة والتصنع فيه ، فإنه من التكلف المقوت ، إذ ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ، ومقصود الكلام التفهيم للغرض ، وما وراء ذلك تصنع مذموم ، ولا يدخل في هذا تحسين ألفاظ التذكير والخطابة من غير إفراط ولا إغراب فلرشاقة اللفظ تأثير في ذلك .

#### الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهى عنه ، ومصدره الخبث واللؤم ، قال صلى الله عليه وسلم « إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش » ونهى رسول صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال : « لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء إلا إن البذاء لؤم »



عليه الصلاة والسلام : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء »  
وعنه : « إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصياح في الأسواق » وحد الفحش  
هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ  
الوقاع وما يتعلق به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ،  
وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكونون عنها ويدلون عايتها بالرموز والكنايا ،  
وقال ابن عباس : إن الله حيي كريم يعفو ويكنو ، كنى باللمس عن الجماع ،  
فالمس واللمس والدخول كنايةات عن الوقاع وليست بفاحشة . وهناك عبارات  
فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعبير ، وكل ما يستحى منه  
فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش .

والباعث على الفحش : إما قصد الإيذاء ، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة  
الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب .

روى أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني ، فقال : « عليك  
بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه يكن وباله  
عاهه وأجره لك ولا تسبن شيئاً » قال : فما سببت شيئاً بعده . وعنه صلى الله عليه  
وسلم : « سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر » وعنه صلى الله عليه وسلم : « ملعون من  
سب والديه » وفي رواية : « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه »  
قالوا : يا رسول الله ، كيف يسب الرجل والديه ؟ قال : « يسب أبا الرجل ،  
فيسب الآخر أباه » .

### الآفة النامنة : اللعن

اللعن إما لحيوان أو جماد أو إنسان ، وكل ذلك مذموم ، قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم : « المؤمن ليس بلعان » واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من  
الله تعالى ، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل ،  
وهو الكفر والظلم ، وفي لعن فاسق معين خطر فليجتنب ولو بعد موته ،

بل قد يكون أشد إن كان فيه أذى للحي ، وفي الحديث : « لا تسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء » ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر حتى الدعاء على الظالم فإنه مذموم ، وفي الخبر : « إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه » .

### الآفة التاسعة : الغناء والشعر

والمذموم منهما ما اشتمل على محرم أو دعاء إليه كتشبيب بمعين وهجاء وتشبه بالنساء وتهيبج لفاحشة ولحوق بأهل الخلاعة والمجون وصرف الوقت إليه ونحو ذلك وما خلا عن ذلك فهو مباح .

### الآفة العاشرة : المزاح

والمنهى عنه المذموم منه هو المداومة عليه والإفراط فيه ، فأما المداومة فلا أنه اشتغال باللعب والهزل — وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك والضعف في بعض الأحوال ، ويسقط المهابة والوقار — وأما ما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً » إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقاً — وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان ، وقد قال عمر : من مزح استخف به . وقال سعيد بن العاص لابنه : يا بني لا تمازح الشريف فيحقد عليك . ولا الدنيا ، فيجترى عليك . وقيل : لكل شيء بذر ، وبذر العداوة المزاح مسلبة للنهي مقطعة للأصدقاء ، ومن الغلط العظيم أن يتخذ المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ، ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد وهو خطأ . وبالجملة : فإن كنت تقدر على أن تمزح ولا تقول إلا حقاً ولا تؤذى قلباً ولا تفرط فيه وتقتصر عليه أحياناً على الندور فلا حرج عليك فيه . ومن مطايباته صلى الله عليه وسلم ما روى أن عجوزاً أتته ، فقال لها : « لا تدخل الجنة عجوز » فبكت

فقال لها : « إنك لست بعجوز يومئذ ، قال الله تعالى : ( إنا أنشأناهن إنشاءً فجعلناهن أبكاراً ) » وجاءت امرأة إليه صلى الله عليه وسلم فقالت : إن زوجي يدعوك . قال : « ومن هو أهو الذي بعينه بياض ؟ » قالت : والله ما بعينه بياض . فقال : « بلى إن بعينه بياضاً » فقالت لا والله . فقال صلى الله عليه وسلم : « ما من أحد إلا وبعينه بياض » وأراد بالبياض ذلك المحيط بالحدقة .

وجاءت امرأة أخرى فقالت : يا رسول الله ، احملى على بعير . فقال : « بل على ابن البعير » فقالت : ما أصنع به ، إنه لا يحملى . فقال صلى الله عليه وسلم : « ما من بعير إلا وهو ابن بعير » .

وقال أنس كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عميرة ، وكان رسول الله يأتيهم ويقول : « أبا عمير ما فعل النغير » النغير : كان يلعب به وهو فرخ العصفور . وقالت عائشة رضى الله عنها . خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فقال « تعالى حتى أسابقك » فشددت على درعى ثم خططنا خطأ فقمنا عليه واستبقنا فسبقنى وقال « هذه مكان ذى الجواز » وذلك أنه جاء يوماً ونحن بذى الجواز وأنا جارية قد بعثنى أبى بشيء فقال أعطينيهِ ، فأبيت وسعيت وسعى فى أثرى فلم يدركنى .

وقالت أيضاً : كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سودة بنت زمعة فصنعت خزيراً وجئت به فقلت لسودة : كلى ، فقالت : لا أحبه . فقلت : والله لئن كان أو لأطخن به وجهك ، فقالت : ما أنا بدائنته فأخذت بيدي من الصحيفة شيئاً منه فلطخت به وجهها ورسول الله جالس بينى وبينها فنحفض لها ركبته فاستقيد فتناولت من الصحيفة شيئاً فمسحت به وجهى وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ، وعن أبى سلمة أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن علي رضى الله عنهما فيرى الصبي لسانه فيميش له .

وقال عيينة الفرزاري : والله ليكونن لي الابن قد تزوج وبقل وجهه وما قبلته قط ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن من لا يرحم لا يرحم » .

فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان ، وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل .

وقال صلى الله عليه وسلم مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرأ « أتأكل التمر وأنت رمد ؟ » فقال : إنما آكل بالشق الآخر يا رسول الله ، فتبسم صلى الله عليه وسلم ، وقال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه .

وكان نعيان الأنصاري رجلاً مزاحاً لا يدخل المدينة طرفة إلا اشترى منها ثم أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : يا رسول الله هذا قد اشتريته لك وأهديته لك ، فإذا جاء صاحبها يتقاضاها بالثمن جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله أعطه ثمن متاعه ، فيقول له صلى الله عليه وسلم : أو لم تهدي لنا ؟ فيقول يا رسول الله ، إنه لم يكن عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه . فهذه مطايبات يباح مثا على الندور لا على الدوام .

### الآفة الحادية عشرة

( السخرية والاستهزاء ) وهو محرم ، قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ) ، ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في القول الفعل ويكون بالإشارة والإيماء ، ومرجع ذلك إلى استحقاق الغير والضحك والاستهانة به والاستصغار له ، وعليه قوله تعالى : ( عسى أن يكونوا خيراً منهم ) أي لا تستحقره استصغاراً فلعله خير منك ، وهذا إنما يحرم في حق من يتفكر به ، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح بمن يسخر به كانت السخرية في

من جملة المزاح ، وقد سبق ما يذم منه وما يمدح ، وإنما المحرم استصغار ما يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على حفظه وعلى صنعته ، أو على صورته وخلقه لعيب فيه ، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهى عنها .

### الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

وهو منهى لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فبهى أمانة » وعنه : « الحديث بينكم أمانة » إفشاء السر خيانة ، وهو حرام إذا كان فيه إضرار ، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار .

### الآفة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

فإن اللسان سباق إلى الوعد ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفاً وذلك من أمارات النفاق : قال الله تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ) وقال صلى الله عليه وسلم : « العدة عطية » وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال : ( إنه كان صادق الوعد ) ولما حضرت عبد الله ابن عمر الوفاة قال : إنه كان خطب إلى ابنتي رجل من قريش وقد كان منى إليه شبه الوعد ، فوالله لا ألقى الله بثلاث النفاق ، أشهدكم أنى قد زوجته ابنتي .

وعن عبد الله بن أبي الخنساء قال : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبقيت له بقية ، فواعدته أن آتية بها في مكانه ، فنسيت يومى والغد آتيته اليوم الثالث وهو في مكانه ، فقال يا فتى : لقد شققت على ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك

وكان ابن مسعود لا يعد وعداً إلا ويقول إن شاء الله وهو الأولى ، ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر ، فإن كان عند الوعد عازماً على أن لا يفي فهذا هو النفاق ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » وقال صلى الله عليه وسلم : « أربع من كن فيه كان منافقاً ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر » وهذا ينزل على من إذا وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر - فأما من عزم على الوفاء فعن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقاً وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق ، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضاً كما يحترز من حقيقته ، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وعد أبا الهيثم خادماً فأتى بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقى واحد فأتت فاطمة رضي الله عنها تطلب منه خادماً وتقول ألا ترى أثر الرحي بيدي فدكر موعده لأبي الهيثم فجعل يقول : « كيف بموعدي لأبي الهيثم » ؟ فأثره به على فاطمة لما كان قد سبق من موعده له مع أنها كانت تدير الرحي بيدها الضعيفة ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بخنين فوقف عليه رجل من الناس فقال إن لي عندك موعداً يا رسول الله ، قال : « صدقت فاحتكم ما شئت » فقال أحتكم ثمانين صائبة وراعيها ، قال : « هي لك » وقال : « احتكمت يسيراً » .

الآفة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين

وهي من قبائح الذنوب وفواحش العيوب ، قال صلى الله عليه وسلم : « إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار » وعنه « إن الكذب باب من أبواب النفاق » وعنه « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له

به كاذب» وصر صلى الله عليه وسلم برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان ، يقول أحدهما والله لا أنقصك من كذا وكذا ويقول الآخر والله لا أزيدك على كذا وكذا فمر بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال : « أوجب أحدهما بالإثم والكفارة » وعنه صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم المنان بعطيته والمنفق سلعته بالحلف الفاجر والمسبل إزاره » وعنه صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين يآثم ليقطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان » وقال عليه السلام لمعاذ : « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وبذل الطعام وخفض الجناح » .

بيان ما رخص فيه من الكذب

اعلم أن الكذب إنما حرم لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره وقد يتعلق به مصلحة فيكون مأذوناً فيه ، وربما كان واجباً كما إذا كان في الصدق سفك دم امرئ قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب ، وكما إذا كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجنى عليه أو تعاشر الزوجين إلا بالكذب فالكذب مباح ، إلا أنه يقتصر على حد الضرورة لئلا يتجاوز إلى ما يستغنى عنه ، وفي معنى ذلك وردت أحاديث كثيرة قال ثوبان : الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلماً أو دفع عنه ضرراً .

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب - وإنما أرادوا إذا خطر الإنسان إلى الكذب - فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً ، ولكن التعريض أهون ، ومثال التعريض ما روى أن مطرفاً دخل على زياد فاستبطأه فتعال بمرض وقال : مارفعت جنبي مارقت الأمير إلا ما رفعتني الله ، وكان معاذ بن جبل عاملاً لعمر رضى الله عنهما لما رجع قالت له امرأته ما جئت به مما يأتى به العمال إلى أهلهم -

أهلهم — وما كان قد أتاها بشيء — فقال كان عندي ضاغط ، قالت كنت أميناً عند رسول الله وأبي بكر فبعث عمر معك ضاغطاً ، وقامت بذلك بين نساءها واشتكت عمر ، فلما بلغه ذلك دعا معاذ وقال : بعثت معك ضاغطاً ؟ قال : ما أجد ما أعتذر به إليهما إلا ذلك فضحك عمر وأعطاه شيئاً فقال أرضها به ومعنى قوله ضاغطاً رقيباً . وأراد به الله تعالى . وكان النخعي إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قال للجارية قولي له اطأبه في المسجد ولا تقولي ليس ههنا كيلاً يكون كذبا — ومما تباح به المعاريض قصد تطيب قلب الغير بالمزاح كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تدخل الجنة عجوز » وقوله للأخرى « الذي في عين زوجك بياض » والأخرى « نحملك على ولد البعير » كما تقدم . . .

ومما يتسامح به ما جرت به العادة في المبالغة كقوله : قلت لك كذا مائة مرة فإنه لا يريد به تفهيم امرات بعددها بل تفهيم المبالغة إلا أنه إذا لم يكن قال ذلك إلا مرة واحدة كان كاذباً .

وأما ما يعتاد التساهل به في الكذب في مثل أن يقال كل الطعام فيقول لا أشتميه فذلك منهي عنه وهو حرام إن لم يكن فيه غرض صحيح ومثل ذلك أن يقول يعلم الله فيم لا يعلمه .

وأما الكذب في حكاية المنام فالإثم فيه عظيم . وفي الحديث « إن من أعظم الفرية أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم ير أو يقول على ما لم أقل » .

### الآفة الخامسة : عشرة الغيبة

قد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه الكريم وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة فقال تعالى : ( ولا يغتب بعضهم بعضاً أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ) وقال صلى الله عليه وسلم : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » والغيبة تتناول العرض وقال صلى الله عليه وسلم : « يا معشر من آمن



بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته « وعن مجاهد أنه قال في قوله تعالى : ( ويل لكل همزة لمزة ) الهمزة الطعان في الناس والهمزة الذي يأكل لحوم الناس وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولا في الكف عن أضرار الناس ، وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك .

بيان معنى الغيبة وحدودها

اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص في بدنه ونسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه حتى في ثوبه وداره ودابته — أما البدن فذكر كرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة ، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كينها كان وأما النسب فبأن تقول أبوه فاسق أو خسيس أو زبال أو نحوه مما يكرهه — وأما الخلق فبأن تقول سيء الخلق بخيل متكبر مرء شديد الغضب جبان متهور وما يجري مجراه . وأما في أفعاله فكتقولك هو سارق كذاب شارب خمر خائن ظالم متهاون بالصلاة أو الزكاة لا يحترز من النجاسات ليس باراً بوالديه ونحوه — وأما فعله فكتقوله إنه قليل الأدب متهاون بالناس كثير الكلام كثير الأكل نؤوم يجلس في غير موضعه — وأما في ثوبه فكتقولك إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب ونحوه .

والقول الجامع في الغيبة ما جاء من قوله صلى الله عليه وسلم : « الغيبة ذكر كرك أخاك بما يكرهه » وإنما حرم الذكر باللسان لما فيه من تفهيم الغير نقصان أخيه وتعريفه بما يكرهه — ولذا كان التعريض به كالتصريح والفعل فيه كالتقول ، الإشارة والإيحاء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو إخل في الغيبة — وهو حرام ، فمن أوما بيده إلى قصر أحد أو طوله أو حاكاه

في المشي كما يمشي فهو غيبة والكتابة عن شخص في عيب به غيبة لأن القلم أحد  
الاسانين وكذا قولك من قدم من السفر أو بعض من مر بنا اليوم إذا كان  
المخاطب يفهمه فهو غيبة — وكذا من يفهم عيب الغير بصيغة الدعاء كقوله الحمد  
لله الذي لم يبتانا بكذا — وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول ما أحسن  
أحوال فلان ولكنه ابتلى بما ابتلى به كنا وهو كذا فيذكر نفسه ومقصوده  
أن يذم غيره في ضمن ذلك . ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض  
الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتى يصغى إليه ويعلم ما يقول فيذكر  
الله تعالى ويستعمل اسمه آلة له في تحقيق خبئه ، وكذلك يقول ساءنى ماجرى  
على صديقنا من الاستخفاف به فيكون كاذباً في دعوى الاغتمام لأنه لو اغتم  
لاغتم بإظهار ما يكرهه — وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلى بأفة عظيمة تاب  
الله علينا وعليه وهو في كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره  
وخبث قصده ، وهو لجواه لا يدرى أنه قد تعرض لقت عظيم — ومن ذلك  
الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب  
في الغيبة فيندفع فيها ، وكان يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول عجيب  
ما عامت أنه كذلك كنت أحسب فيه غير هذا ، عافانا الله من بلائه فإنه كل  
ذلك تصديق المغتاب والتصديق بالغيبة غيبة ، بل الساكت شريك المغتاب  
إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف — وفي الحديث : « من أذل عند  
مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق  
وفي رواية « من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يرد عن عرض  
يوم القيامة » .

### الأسباب الباعثة على الغيبة

منها التشفى — وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه فإنه إذا هاج غضب  
فيشتفى بذكر مساوئه فسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وان

وقد يمتنع تشفى الغيظ عند الغضب ، فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقداً ثابتاً فيكون سبباً دائماً لذكر المساوىء ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة .

( ومنها ) موافقة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا كانوا يتفكحون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، وقد يغضب رفقائه فيضطر إلى أن يغضب لغضبهم إظهاراً للمساهمة في السراء والضراء فيحوض معهم في ذكر العيوب والمساوىء .

( ومنها ) إرادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيض غيره .

( ومنها ) الحسد وهو أن يحسد من يثنى الناس عليه ويحبونه ويكرمونه ، فيريد زوال تلك النعمة عنه ، فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه حتى يكفوا عن الثناء عليه وإكرامه لأنه يثقل عليه ذلك .

( ومنها ) اللعب والهزل وترجينة الوقت بالضحك ، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاماة والتعجب .

( ومنها ) السخرية والاستهزاء استحقاراً له ، ومنشؤه التكبر واستجهال المستهزأ به .

وثمة أسباب غامضة فيها دسائس للشيطان ، وهي أن يذكر اسم إنسان في حالة التعجب أو الرحمة والغضب لله تعالى ، فيقول مثلاً : تعجبت من فلان كيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل ، فيكون تعجبه من المنكر لصدقه ، أو يقول : مسكين لأن غنى أمره وما ابتلى به ، وهو صادق في الاغتمام ، وكذا قد يغضب على منكر قارفه إنسان ، فيظهر غضبه ويذكر اسمه ، والواجب في ذلك ستر اسمه ، ولم إظهاره على غيره ، ولا عذر في ذكر الاسم في ذلك .

بیان العلاج الذی به یمنع اللسان عن الغیبة

اعلم أن مساویء الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل ، وعلاج كف اللسان عن الغیبة إجمالاً أن یعلم أنه يتعرض لسخط الله تعالى إذا اغتاب لارتكابه ما نهى الله عنه ، فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار فی الغیبة لم یطاق لسانه بها خوفاً من ذلك ، وینفعه أيضاً أن یتدبر فی نفسه فإن وجد فیها عیباً اشتغل بعیب نفسه ، وذكر قوله صلی الله علیه وسلم : « طوبی لمن شغله عیبه عن عیوب الناس » ومهما وجد عیباً فینبغی أن یتحی من أن یترك ذم نفسه ویذم غیره ، بل ینبغی أن یتحقق أن عجز غیره عن نفسه فی التنزه عن ذلك العیب كمعجزه ، وهذا إن كان ذلك عیباً یتعلق بفعله واختیاره وإن كان أمراً خافياً ، فالذم له ذم للخالق فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها ، وإذا لم یجد العبد عیباً فی نفسه فلیشكر الله تعالى ولا یوشن نفسه بأعظم العیوب ، فإن تلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العیوب ، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه بریء من كل عیب جهل بنفسه وهو من أعظم الذنوب ، وینفعه أيضاً أن یعلم أن تألم غیره بعیبته كتألمه بعیبة غیره له فإذا كان لا یرضی لنفسه أن یغتاب فینبغی أن لا یرضی لغيره مالا یرضاه لنفسه ، وبالجملة فمن قوی إیمانه انكف عن الغیبة لسانه .

بیان تحريم الغیبة بالقلب وذلك بسوء الظن

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول ، فكما یحرم عليك أن تحدث غیرك بلسانك بمساویء الغير ، فایس لك أن تحدث نفسك وتسیء الظن بأخیک ولست أعنی به إلا عقد القلب وحكاه على غیره ظناً بأمر سئ . فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه ، ولكن المنهی عنه أن یظن والظن عبارة عن تركن إلیه النفس ویميل إلیه القلب ، فقد قال تعالى : ( یا أيها الذین آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ) وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا یعلم إلا بعلام الغیوب فلیس لك أن تعتقد فی غیرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعید

يقبل التأويل ، فإن لم ينكشف كذلك فإنما الشيطان ياقبه إليك فينبغي أن  
تكذبه فإنه أفسق الفسق ، وقد قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق  
بإفتينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ) وفي الحديث : « إن الله حرم من المسلم دمه  
ماله وأن يظن به ظن السوء » وحينئذ فإذا خطر لك وسواس سوء الظن فينبغي  
أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان وأن ما رأيت منه  
يحمل الخير والشر ( فإن قلت ) فماذا يعرف عقد الظن والشكوك تحتاج والنفس  
يحدث ( فنقول ) أمانة عقد الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفوراً  
ما ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاعتماد بسببه ، والمخرج منه أن  
يحققه أي لا يحقق في نفسه بعقد ولا فعل لا في القلب ولا في الجوارح ، وبما  
لقى الشيطان أن هذا من فطنتك وسرعة تنبهك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور  
الله تعالى — وهو على التحقيق ناظر بغيرور الشيطان وظلمته — ومهما عرفت  
نوة مسلم بحجة فانصحه في السر ولا يخذعك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه .

ومن ثمرات سوء الظن ( التجسس ) فإن القلب لا يقنع بالظن ، ويطلب  
لتحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضاً منهي عنه ، قال الله تعالى ( ولا تجسسوا )  
الغيبية وسوء الظن والتجسس منهي عنه في آية واحدة ، ومعنى التجسس أن  
يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوسل إلى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف  
اللو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه ، وقد مضى في كتاب الأمر بالمعروف  
التجسس وحقيقته .

### بيان الأعدار المرخصة في الغيبة

لم أنه إذا لم يمكن التوصل إلى غرض صحيح في الشرع إلا بذكر مساويء  
فانه يرخص فيه ولا إثم وذلك في أمور ( منها ) التظلم وذلك كظلوم يرفع  
على إنسان إلى أمير ليستوفى له حقه لا يمكنه استيفاء حقه إلا بنسبته إلى

الظلم ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن لصاحب الحق مقالا » وعنه « مظل الغنى ظلم » ومنها الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهي الصلاح .

( ومنها ) الاستفتاء كما يقول للمفتي ظاهري أبي أو زوجتي أو أخي إذا لم يقع الإبهام أو التعريض . وذلك لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي فأخذني من غير علمه ؟ فقال « خذي ما يكفيك وولدي بالمعروف » فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزرها عليه السلام إذ كان قصدها الاستفتاء .

( ومنها ) تحذير المسلم من الشر ، كما إذا علمت من إنسان ضرراً فحذرت شخصاً منه ، وكالمزكي يطعن في الشاهد إذا سئل عنه . وكذلك المستشار في الزواج وإيداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصيح للمستشير لا على قصد الوقعة .

( ومنها ) أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرف عن عيبه كالأعمى والأعمش فلا حرج في ذكره لضرورة التعريف ولأن ذلك قد صار بحسب لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهوراً به . نعم إن وجد عنه معصية وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى . ولذلك يقال للأعمش البصير عدو عن اسم النقص .

( ومنها ) أن يكون مجاهراً بالفسق متظاهراً به . ولا يكره أن يذكر به فلا له بما يتظاهر به .

### بيان كفارة الغيبة

إعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج من الله سبحانه ، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظالمته إن قدر عليه ولم يحدوا . وقال الحسن يكفي الاستغفار دون الاستحلال . وفي الحديث « أيعجز أم

أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال : اللهم إني قد تصدقت بعرضي على الناس . أى لا أطلب مظلمة فى القيامة من أحد ولا أخاصمة ، وليس المراد إباحة تناول عرضه بل العفو عن جريمته ، وقد قال تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرف عن الجاهلين » ، وفى الحديث أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من رحمك » .

### الآفة السادسة عشر النيمة

قال الله تعالى : ( هاز مشاء بنميم ) ، وقال الله تعالى : ( ويل لكل همزة لمزة ) قيل الهمزة : النمام ، وقال تعالى : ( حمالة الحطب ) قيل إنها نمامة حمالة الحديث ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة نمام » ، وعنه صلى الله عليه وسلم : « أحبكم إلى أحسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً<sup>(١)</sup> الذين يألفون يؤلفون وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنيمة المفرقون بين الإخوان الملتصمون لبراء العثرات » .

وحد النيمة هو كشف ما يكره - كشفه ، سواء كان كرهه المنقول إليه أو كرهه بالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان عيباً ونقصاً فى المنقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النيمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه ، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس فينبغى أن يسكت عنه إلا ما فى حكايته بقلة لمسلم أو دفع لمعصية كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به إمامة لحق المشهود عليه .

والباعت على النيمة إما إرادة السوء المحكى عنه ، أو إظهار الحب المحكى له ، وتفرج بالحديث والخوض فى الفضول والباطل .

(١) فلان موطأ الأكناف كمعظم الجوانب : كريم مضياف ا ه ناموس .

وكل من حملت إليه نميمة فيجب أن لا يسارع إلى ظن صدقه لقوله تعالى  
(إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) وأن ينهأ وينصح له ، وأن لا يظن بالغائب  
سوءاً ، وأن لا يحمله ذلك على التجسس .

وقال الحسن : من نم إليك — وهذا إشارة إلى أن التمام ينبغي أن يبغض  
ولا يوثق بقوله ولا بصداقته وكيف لا وهو لا ينفك عن الغدر والخيانة والإفساد  
بين الناس وهو ممن يسعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض  
وقال تعالى : (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق  
والتمام منهم ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن من شرار الناس من اتقاه الناس  
لشره » والتمام منهم : وقيل لمحمد بن كعب القرظي : أي خصال المؤمن أوض  
له ؟ فقال : كثرة الكلام وإفشاء السر وقبول قول كل أحد ، وقال بعضهم  
لو صح ما نقله التمام إليك لكان هو المجترى بالشتم عليك ، والمنقول عنه أو  
بجملتك لأنه لم يقابلك بشتمك .

### الآفة السابعة عشرة كلام ذي الوجهين

وهو ذو اللسانين الذي يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام  
يوافقه من الثناء عليه في معاداته وذمه الآخر ووعدته بأن ينصره على خصمه  
وهو من علامات النفاق ، نعم إذا دخل على متعادين وجامل كل واحد منهما  
وكان صادقاً فيه لم يكن ذا لسانين ولا منافقاً فإن الإنسان قد يصادق متعادين  
وأما لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من التمام  
لأن التمام ينقل من أحد الجانبين فقط وهذا يزيد النقل من الجانب الآخر  
أن يحسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه : نعم من  
بمراعاة أحد الجانبين في قول ما لضرورة وخاف من تركه فهو معذور ، فإن  
الشر جائز ، قال أبو الدرداء رضى الله عنه : إنا لنكشر في وجوه أقوام  
قلوبنا لتلعنهم : وقالت عائشة : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم



فقال : « ائذنوا له فبئس رجل العشيذة هو » ، ثم لما دخل ألان له القول فلما خرج قلت يا رسول الله قلت فيه ما قلت ثم ألتت له القول ، فقال « عائشة : إن شر الناس الذي يكرم اتقاء شره » ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكشر والتبسم ، وإلا فلا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل ، فإن فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغي أن ينكر ، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه ، وللضرورات حكمها .

### الآفة الثامنة عشرة المدح

وهو منهي عنه في بعض المواضع ، أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها ، والمدح يدخله ست آفات : أربع من المادح — واثنان في الممدوح فأما المادح ( فالأول ) أنه قد يفرط فيه فينتهي به إلى الكذب ( والثانية ) أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مرأياً منافقاً ( والثالث ) أنه يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه ( والرابعة ) أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق ، وذلك غير جائز قال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله في الأرض .

وأما الممدوح فيضره من وجهين ( أحدهما ) أنه يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما مهلكان ( الثاني ) هو أنه إذا أثنى عليه فرح وفترورضى عن نفسه وقل تشميره للعمل .

فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والممدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوباً إليه .

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ، ويتذكر أنه يعلم من نفسه ما لا يعلمه المادح ، وأنه لو انكشف له

جميع أسرارہ وما یجری علی خواطرہ لكف المادح عن مدحہ . وكان علیّ رضی اللہ عنہ إذا أثنی علیہ یقول : « اللهم اغفر لی ما لا یعلمون ، ولا تؤاخذنی بما یقولون ، واجعلنی خیراً مما یظنون » . وعلى المادح أن لا یجزم القول إلا بعد خبرة باطنه . سمع عمر رضی اللہ عنہ رجلاً یثنی علی رجل فقال : أسافرت معه ؟ قال لا ، قال أخالطته فی المبايعه والمعامله ؟ قال لا ، قال : أفأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال لا : فقال واللہ الذی لا إله إلا هو لا أراك تعرفه ، وفي الحدیث : « إن كان أحدکم لا بد مادحاً أخاه فلیقل أحسب فلاناً ولا أزکی علی اللہ أحداً » .

### الآفة التاسعة عشرة الخطأ فی دقائق لفظیة

ینبغی التنبیہ لدقائق الخطأ فی فحوى الكلام ، والحذر عن الغفلة عنها ، لاسیما فیما یتعاق باللہ وصفاته ، مثله ما جاء فی الحدیث عنہ صلی اللہ علیہ وسلم : « لا یقل أحدکم ما شاء اللہ وشئت ولكن لیقل ما شاء اللہ ثم شئت » وذلك لأن فی العطف المطلق تشریکاً وتسویة وهو علی خلاف الاحترام ، وكان إبراهیم یکره أن یقول الرجل : أعوذ باللہ وبک ، ولو لا اللہ وفلان ، ویجوز أن یقول أعوذ باللہ ثم بک ولو لا اللہ ثم فلان . وعن ابن عباس رضی اللہ عنہما : إن أحدکم لیشرك حتى یشرك ، بکلمه فیقول : لولاه لسرقنا اللیلة .

وقال عمر : قال رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم : « إن اللہ تعالیٰ ینہاکم أن تخلفوا بأبائکم » قال عمر : فواللہ ما حلفت بہا منذ سمعتها . وقال أبو ہریرة قال رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم : « لا یقولن أحدکم عبدی ولا امتی کلکم عبید اللہ وكل نساءکم إماء اللہ ولیقل غلامی وجاریتی . ولا یقل المؤمن ربی ولا ربتی ولیقل سیدی وسیدی ، فکلکم عبید اللہ والرب اللہ سبحانہ وتعالیٰ » .

وقال صلی اللہ علیہ وسلم : « لا تقولوا المنافق سیدی فإنه إن یکن سیدکم فقد أسخطکم ربکم » فعلى المتکلم أن یوافقہ ورع حافظ ومراقبة لازمة لیسلم عن الخطر .

من حق العوام الاشتغال بالعمل الصالح إلا أن الفضول خفيف على القلب  
العامى قد يفرح بانخوض في العلم ، إذ الشيطان يخيل إليه أنه من العلماء وأهل  
الفضل ولا يزال يحب إليه ذلك حتى قد يتكلم بما هو كفر ولا يدري ، وكل  
من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فإنه بالإضافة إليه  
نهي ، وفي الحديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال وإضاعة  
المال وكثرة السؤال . وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على  
المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال ( فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء  
حتى أحدث لك منه ذكراً ) فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال  
( لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمرى عسراً ) فلما لم يصبر حتى سأل  
ثلاثاً قال ( هذا فراق بيني وبينك ) وفارقه . فسؤال العوام عن غوامض الدين من  
أعظم الآفات فيجب منعهم من ذلك وزجرهم .

## كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

إن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ، وإنها  
لمستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد ، ويستخرجها الكبر الدفين  
في قلب كل جبار عنيد كاستخراج الحجر النار من الحديد - وقد انكشف  
للمنظرين بنور اليقين أن الإنسان يزرع منه عرق إلى الشيطان المعين فمن استفزته  
أر الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال : ( خاقتني من نار وخالقته  
الطين ) فإن شأن الطين السكون والوقار وشأن النار التلظى والاستعار والحركة  
الاضطراب - ومن نتأجج الغضب الحقد والحسد وبهما هلك من هلك وفسد من  
فسد - ومفيضهما مضغة إذا صلحت صالح الجسد ، وإذا كان الحقد والحسد والغضب  
يسوق العبد إلى مواطن العطب ، فما أحوجه إلى معرفة معاطبه ومساوئه

ليحذر ذلك ويتقيه ويميطه عن القاب إن كان وينفيه . وهاك بيان ذلك بعونه تعالى .

### بيان ذم الغضب

قال الله تعالى : ( إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ) الآية : ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ومدح المؤمنين بما أنزل عليهم من السكينة . وروى أن رجلاً قال يا رسول الله مرني بعمل وأقلل . قال : « لا تغضب » ثم أعاد عليه فقال : « لا تغضب » وقال صلى الله عليه وسلم : « ماتعدون الصرعة فيكم » قلنا الذي لا تصرعه الرجال قال : « ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب » .

وعن جعفر : « الغضب مفتاح كل شر » وقال بعض الأنصار : رأس الحق الحدة وقائده الغضب - ومن رضى بالجهل استغنى عن الحلم ، والحلم زين ومنفعة والجهل شين ومضرة ، والسكوت عن جواب الأحق جوابه . وقال الحسن من علامات المسلم قوة في دين ، وحزم في لين ، وإيمان في يقين ، وعلم في حلم وكيس في رفق وإعطاء في حق ، وقصد في غنى ، وتجميل في فاقة ، وإحسان في رفاقة ، وصبر في شدة ، لا يغايه الغضب ، ولا تجمع به الحمية ، ولا تغايه شهوة ولا تفضحه بطنه ، ولا يستخفه حرصه ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ، ويرحم الضعيف ، ولا يبخل ولا يبذر ، ولا يسرف ولا يقتر ، يغفر إذا ظلم ، ويعفو عن الجاهل ، نفسه منه في عناء ، والناس منه في رخاء .

### درجات الناس مع الغضب

اعلم أن قوة الغضب محاربا القلب ومعناها غليان دم القلب وانتشاره في العروق وارتفاعه إلى أعلى البدن كما ترتفع النار والماء الذي يغلي في القدر فإذلك ينصب

إلى الوجه فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لصفائها تحكى لون ما وراءها من حمرة الدم كما تحكى الزجاجة لون ما فيها .

ثم إن الناس في هذه القوة على درجات ثلاث من التفريط والإفراط والاعتدال ( أما التفريط ) فقد هذه القوة أضعفها — وذلك مذموم وهو الذى يقال فيه إنه لاجمية له ، وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمية فقال ( أشداء على الكفار ) وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ( جاهد الكفار والمنافقين واغظ عاينهم ) وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب .

( وأما الإفراط ) فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ولا يبقى للمرء معه بصيرة وفكرة ولا اختيار بل يصير في صورة المضطر — ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون ، وشدة الرعدة في الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الأشداق ، وتحمر الأحداق ، وتنقلب المناخر ، وتستحيل الخلق ، ولو رأى الغضبان في حال غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صوته ، واستحالة خلقته ، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره ، فإن الظاهر عنوان الباطن وإنما قبحت صورة الباطن أولاً ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانياً ، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن ، فقس المثمر بالثمرة — فهذا أثره في الجسد .

وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشم ، والفحش من الكلام الذى يستحى منه ذو العقل ، ويستحى منه قائله عند فتور الغضب ، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ .

وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن وقد يمزق ثوب نفسه ويلطم نفسه ، وقد يضرب بيده على الأرض ،

وربما يعتريه مثل الغشية ، وربما يضرب الجمادات والحيوانات أو يكسر القصعة أو يشتم البهيمة أو ترفسه دابة فيرفسها ويقابلها بذلك كالمجنون .

وأما أثره في القلب فالحقد والحسد وإضرار السوء ، والشتمات بالمساءات والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السر ، وهتك الستر والاستهزاء وغير ذلك من القبائح - فهذه ثمرة الغضب المفرط .

وأما ثمرة الحمية الضعيفة فقلة الأنفة مما يؤلف منه من التعرض للحرم والزوجة واحتمال من الأخساء وصغر النفس وهو أيضاً مذموم إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم وهو صونها ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن سعداً لغيور وأنا أغير من سعد والله أغير مني » وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب . ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب - ولذلك قيل : كل أمة وضعت الغيرة في رجالها ، وضعت الصيانة في نساؤها .

ومن ضعف الغضب الجور والسكوت عند مشاهدة المنكرات ، وقد قال تعالى : ( ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ) .

وفقد الغضب مذموم ، وإنما الحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية وينطفىء حيث يحسن الحلم ، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده . وهو الوسط الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « خير الأمور أوسطها » .

زوال الغضب بالرياضة وغيرها

اعلم أنه ما دام الإنسان يحب شيئاً ويكره شيئاً فلا يخلو من الغيظ والغضب لأنه من مقتضى الطبع إلا أنه قد تفيد الرياضة في محو قوته وذلك بالمجاهدة وتكليف الحلم والاحتمال مدة حتى يصير الحلم والاحتمال خلقاً راسخاً ، فالرياضة ليست لينة من غيظ القلب لأنه غير ممكن ، وإنما ليستعمله على حد يستحبه الشرع ويستحسنه العقل وذلك بكسر سوره وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان

الغيظ في الباطن وينتهي ضعفه إلى أن لا يظهر أثره في الوجه ، وقد يتصور فقد الغيظ بغلبة نظر التوحيد أو بأن يعلم أن الله يحب منه أن لا يفتناظ فتطفيء شدة حبه لله تعالى غيظه ، أو بأن يشتغل القلب بضروري أهم من الغضب فلا يكون في القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره ، فإن استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الإحساس بما عداه .

### بيان الأسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة بحسم مادتها وإزالة أسبابها فلا بد من معرفة أسباب الغضب ، وأسبابه المهيجة له هي : الزهو ، والعجب ، والمزاح ، والهزل والهزاء ، والتعير ، والمهارة ، والمضادة ، والقدر ، وشدة الحرص على حصول المال والجاه ، وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً ، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب ، فلا بد من إزالتها بأضدادها . فينبغي أن تمت الزهو بالتواضع ، وتمت العجب بمعرفتك بنفسك ، وتزيل الفخر بأنك من جنس أقل مخلوق إذ الناس يجمعهم في الانتساب أب واحد ، وإنما الفخر بالفضائل والفخر والعجب أكبر الرذائل - وأما المزاح فتزيلة بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه - وأما الهزال فتزيله بالجدي طاب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التي تبلغك إلى سعادة الآخرة - وأما الهزاء فالتكريم عن إيذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك - وأما التعير فبالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مر الجواب - وأما شدة الحرص فبالصبر على مر العيش بالقناعة بقدر الضرورة طلباً لعز الاستغناء وترفعاً عن ذل الحاجة ، وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر في علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة وحاصل رياضتها الرجوع إلى معرفة غوائها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبورها ثم المواظبة على مواظبة أضعافها مدة مديدة حتى تصير بالعادة هينة مألوفة على النفس فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه

الرزائل وتخلصت أيضاً من الغضب الذي يتولد منها . وأشد البواعث للغضب عن أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة وعزة نفس حتى تميل النفس إليه وتستحسنه وهذا من الجهل بل هو مرض قلب ونقصان عقل . ويعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعمو وما استحسن منهم من كظم الغيظ فإن ذلك منقول عن الأنبياء والعلماء .

### بيان علاج الغضب بعد هيجانه

ما تقدم هو حسم لمواد الغضب حتى لا يهيج فإذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم ، وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل - أما العلم فهو أمور :

( الأول ) أن يتفكر فيما ورد في فضل كظم الغيظ والعمو والحلم والاحتمال ، فيرغب في ثوابه ، ويمتنع الرغبة في الأجر عن الانتقام ، وينتفيء عنه غيظه .

( الثاني ) أن يخوف نفسه بعقاب الله لو أمضى غضبه ، وهل يأمن من غضب الله عليه يوم القيامة وهو أحوج ما يكون إلى العفو .

( الثالث ) أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعي في هدم أغراضه والشماتة بمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة .

( الرابع ) أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضاري ، والسبع العادي ، ومشابهة الخليم الهادي التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء ، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء في عاداتهم ، لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مسكة من عقل .



( الخامس ) أن يتفكر في السبب الذي يدعو إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ مثل قول الشيطان له إن هذا يحمل منك على العجز والذلة وتصير حقيراً في أعين الناس ، فيقول لنفسه ما أعجبتك تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزي يوم القيامة ، ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله والملائكة والنبين ، فهما كظم الغيظ فينبغي أن يكظمه الله وذلك يعظمه عند الله ، فماله وللناس ، وأما العمل فإن تقول باسانك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وإن كنت قائماً فاجلس وإن كنت جالساً فاضطجع ، ويستحب أن يتوضأ بالماء البارد فإن للغضب من النار والنار لا يطفئها إلا الماء .

#### فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى : ( وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ) دلت الآية على أن الكاظمين من المتقين ، وأن مغفرة ربهم تنالهم وجنته أعدت لهم فما أفضل هذا الجزاء ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن اعتذر إلى ربه قبل الله عذره ومن خزن لسانه ستر الله عورته » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة » وروى أن رجلاً من جفاة الأعراب قال لعمر رضى الله عنه : والله ما تقضى بالعدل ولا تعطى الجزل ، فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه ، فقال له رجل يا أمير المؤمنين ألم تسمع قول الله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وإن هذا من الجاهلين ، فسكن عمر رضى الله عنه وعفا عنه .

#### فضيلة الحلم

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أى تكلف الحلم ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة

شديدة ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ ؛ وإن  
 هاج فلا يكون في كظمه تعب وهو الحلم الطبيعي وهو دلالة كمال العقل واستيلائه  
 وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداءؤه التحلم وكظم الغيظ  
 تكلفاً ، وفي الحديث « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم » إشارة إلى أن اكتساب  
 الحلم طريقه التحلم أولاً وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم ، وعنه  
 صلى الله عليه وسلم « إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم » وعن  
 الحسن في قوله تعالى : ( وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ) قال : علماء إن جهل  
 عليهم لم يجبهوا ، وعن مجاهد في آية ( وإذا مروا باللغو مروا كراماً ) أي إذا  
 أودوا صفحوا ، وعن علي رضي الله عنه « ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ،  
 ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك ، وأن لا تباهى الناس بعبادة الله ،  
 وإذا أحسنت حمدت الله تعالى ، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى » وقال أكثر  
 دعامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر ، وقال معاوية ، لا يباغ العبد مبلغ الرأي  
 حتى يغاب حلمه جهله وصبره شهوته ، ولا يباغ ذلك إلا بقوة العلم ، وقال معاوية  
 لعمر بن الأهتم أي الرجال أشجع ؟ قال : من رد جهله بحلمه ، وقال : أي  
 الرجال أسخى ؟ قال : من بذل دنياه لصالح دينه ، وقال معاوية لعرابة : بم سدت  
 قومك ؟ قال : كنت أحلم عن جاهلهم ، وأعطى سائئهم ، وأسعى في حوائجهم ،  
 فمن فعل مثل فعلى فهو مثلى ، ومن جاوزنى فهو أفضل منى ، ومن قصر عنى  
 فأنا خير منه ، وقال أنس بن مالك في قوله تعالى : ( ادفع بالتي هي أحسن فإذا  
 الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما ياقهاها إلا الذين صبروا وما يلقاها  
 إلا ذو حظ عظيم ) هو الرجل يشتمه أخوه فيقول إن كنت كاذباً فغفر الله لك ،  
 فإن كنت صادقاً فغفر الله لى ، وعن على بن الحسين رضى الله عنهما أنه سب  
 رجل فرمى إليه بخصية كانت عليه وأمر له بألف درهم ، فقال بعضهم : جمع له  
 خمس خصال محمودة : الحلم ، وإسقاط الأذى ، وتخليص الرجل مما يبعده من الله

عز وجل ، وحمله على الندم والتوبة ، ورجوعه إلى المدح بعد الذم ، اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير .

بيان القدر الذي يجوز به الانتصار من الكلام

اعلم أن كل ظالم صدر من شخص فلا يجوز مقابله بمثله ، فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا السب بالسب وكذلك سائر المعاصي ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقابلة التعيير ، فقال : « إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه » ، وقال قوم تجوز المقابلة بما لا كذب فيه ، قالوا : والنهي النبوي عن مقابلة التعيير بمثله نهى تنزيهه والأفضل تركه ولكنه لا يعطى به ، قالوا : والذي يرخص فيه أن تقول من أنت - ويا أحق - ويا جاهل ، إذ ما من أحد إلا وفيه حمق وجهل فقد آذاه بما ليس بكذب وكذلك قوله ياسيء الخلق يائلاً للأعراض وكان ذلك فيه ، وكذلك قوله لو كان فيك حياء لما تكلمت ، وما أحقرك في عيني بما فعلت ، واستدلوا بالحديث : « الاستبان ما قالوا فعلى البادىء منهما حتى يعتدى المظلوم » فأثبت المظلوم انتصاراً إلى أن يعتدى .

فهذا القدر الذي أباحه هؤلاء وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق ، قال الغزالي : ولا تبعد الرخصة في هذا القدر ولكن الأفضل تركه فإنه يجره إلى ما وراءه ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه والسكوت عن أصل الجواب له أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع ، ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب ولكن يعود سريعاً ، وفي الحديث : خير بني آدم البطيء الغضب السريع الفيء وشرهم السريع الغضب البطيء الفيء .

معنى الحقد وتناجحه الوخيمة وفضيلة الرفق

اعلم أن الغضب إذا لزم كظامه لعجز عن التشفى في الحال رجع إلى الباطن

واحتقن فيه فصار حقداً ، ومعنى الحقد أن يلزم قابله استثقاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن ليس بحقود » والحقد ثمرة الغضب والحقد يثمر أموراً منكراً ( الأول ) الحسد وهو أن يحملك الحقد على أن تمنى زوال النعمة عنه فتتعم بنعمة إن أصابها وتسربصية إن نزلت به وهذا من فعل المنافقين ( الثاني ) أن يزيد على إضمار الحسد في الباطن فيشمت بما أصابه من البلاء ( الثالث ) أن تهجوه وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك ( الرابع ) وهو دونه أن تعرض عنه استصغاراً له ( الخامس ) أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة ، وإفشاء سر وهتك ستر وعورة ( السادس ) أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه ( السابع ) إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه ( الثامن ) أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة وكل ذلك حرام ، وأقل درجات الحقدلو احترز عن هذه الآفات الثمانية أن يترك البشاشة أو الرفق ، والعناية والقيام بحاجاته ، أو المعاونة على المنفعة له ، وكله مما ينقص الدرجة في الدين ، ويفوت الثواب الجزيل .

وما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح وكان قريبه ، لأمر ما نزل قوله تعالى : ( ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى ) إلى قوله ( ألا تحبون أن يغفر الله لكم ) فقال أبو بكر نعم نحب ذلك ، وعاد إلى الإنفاق عليه والأولى أن يبقى على ما كان عليه فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهداً للنفس وإرغاماً للشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال المقربين .

### فضيلة العفو والإحسان

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقاً فيسقطه ويبرئ عنه من قصاص أو غرام قال الله تعالى : ( خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) ، وقال تعالى ( وأن تعفوا أقرب للتقوى ) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « التواضع لا يزيد

عبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله والعفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك » وروى عن الحسن البصرى رحمه الله : أنه دخل على أمير يعرض له بالعفو فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته من بيعهم إياه وطرحهم فى الجب ، فقال : « باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم » وذكر ما لقي من كيد النساء ومن الحبس ، ثم قال أيها الأمير ماذا صنع الله به داله منهم ورفع ذكره وأعلى كلمته وجعله على خزائن الأرض فماذا صنع حين كمل له أمره وجمع له أهله قال : ( لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ) فعفا ذلك الأمير ، وروى أن ابن مسعود سرقت له دراهم فجعلوا يدعون على من أخذها فقال لهم : « اللهم إن كان حملته على أخذها حاجة فبارك له فيها وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه » ، وقال معاوية : عليكم الحلم والاحتمال فإذا أمكنتكم الفرصة فعليكم بالصفح والإفضال .

### فضيلة الرفق

اعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحدة ، والعنف نتيجة الغضب والفظاظة ، الرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة ، ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب حفظها على حد الاعتدال ، ولأجل هذا أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق وبالغ فيه فقال : « من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة » وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة « عليك بالرفق فإنه لا يدخل فى شيء إلا ولا ينزع من شيء إلا شانه » .

وسر الترغيب في الرفق والثناء عليه وهو كون الطباع إلى العنف الحدة أميل ،  
وإن كان العنف في محله حسناً فإن الحاجة قد تدعو إليه ولسكن على الندرة ،  
والكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطى كل أمر حقه .

### ذم الحسد

اعلم أن الحسد أيضاً من نتائج الحقد الذميم ، وللحسد من الفروع الذميمة  
ملايكاد يحصى ، وقد ورد في ذمه أخبار كثيرة ، منها قوله صلى الله عليه وسلم :  
« الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » وقوله : « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا  
ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله » ومن الآثار  
قول بعض الساف : إن أول خطيئة كانت هي الحسد — حسد إبليس آدم عليه  
السلام على رتبته فأبى أن يسجد له ، فحماه الحسد على المعصية . وعن ابن شيرين  
رحمه الله : « ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل  
الجنة فكيف أحسده على أمر الدنيا وهي حقيرة في الجنة ، وإن كان من أهل النار  
فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار » وقال بعضهم : الحاسد لا ينال  
من المجلس إلا مذمة وذلاً ، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضاً ، ولا ينال  
من الخلق إلا جزعاً وغماً ، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالا .

### حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه

الحسد نوعان : ( أحدهما ) كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه .

( وثانيهما ) عدم محبة زوالها وتمنى مثاها وهذا يسمى غبطة .

فالأول حرام بكل حال إلا نعمة أصابها فاجر وهو يستعين بهما على محرم كإفساد  
وإيذاء فلا يضر محبة زوالها عنه من حيث هي آلة الفساد . ويدل على تحريم الحسد  
الأخبار التي نقلناها ، وأن هذه الكرامة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده عن  
بعض ، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة — وأي معصية تزيد على كراحتك لراحم

مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة وإلى هذا أشار القرآن بقوله : ( إن تمسكم حسنة تسؤم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ) وهذا الفرح شماتة ، والحسد والشماتة يتلازمان . وقال تعالى : ( ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ) أى لا تضيق صدورهم ولا يفتنون ، فأثنى عليهم بعدم الحسد — وأما المنافسة فايست بحرام بل قد تكون مطلوبة . قال تعالى : ( وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ) وقال تعالى : ( سابقوا إلى مغفرة من ربكم ) وقال صلى الله عليه وسلم : « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فساطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس » فلا حرج من يغبط غيره في نعمة ويشتهي لنفسه مثاها مهما لم يجب زوالها عنه ولم يكره دوامها له — وأما تمنى عين نعمة الغير بانتقالها إليه لرغبته فيها بحيث يكون مطلوبه تلك النعمة لازوالها فهو مذموم لقوله تعالى : ( ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ) وأما تمنيه لمثل ذلك فليس مذموماً فاعرف الفرق .

### أسباب الحسد

للحسد المذموم مداخل كثيرة وأسباب عديدة ( فمنها ) العداوة والبغضاء وهذا أشد أسباب الحسد ، فإن آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قابه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد ، والحقد يقتضى منه التشفى والانتقام ، فإن عجز المتغصص عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى فهما أصابت عدوه بآية فرح بها وظننها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله .

ومهما أصابته نعمة ساء ذلك لأنه ضد مراده وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذى آذاه بل أنعم عليه . وبالجملة فالحسد يلزم الحقد والعداوة ولا يفارقهما ، وإنما غاية التقى أن يبغى وأن يكره ذلك من نفسه .

(ومنها) التعزز وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره .

(ومنها) حب الرياسة وطلب الجاه بأن يكون منفرداً عديم النظر غير مشارك في المنزلة يسوءه وجود مناظر له في المنزلة .

(ومنها) خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله بحيث يشق عليه أن يوصف عنده حسن حال عبد فيما أنعم عليه ويفرح بذكر فوات مقاصد أحد واضطراب أموره وتنقص عيشه فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه ، وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس ورذالة في الطبع . ومعالجته شديدة لأنه خبث في الجبلة لا عن عارض حتى يتصور زواله ؛ وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة بل ينتهك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة أعاذنا المولى من ذلك باطفه وكرمه .

بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب

إعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل . والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقاً أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما . ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة — أما كونه ضرراً عليك في الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته فاستنكرت ذلك واستبشعته — وهذه جناية في حدق التوحيد وقذى في عين الإيمان وناهيك بهما جناية على الدين ، وقد انضاف إلى ذلك أنك فارقت أولياء وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى وشاركت إبليس والكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم . وهذه خبائث في القلب تأكل



حسنت القلب كما تأكل النار الحطب ، وأما كونه ضرراً في الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا أو تتعذب به ولا تزال في كمد وغم إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها ، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم فتبقى مغموماً ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهي الأعداء لك وتشتهي لأعدائك فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجرت في الحال محنتك وغمك نقداً ولا تزول النعمة عن المحسود بحسده ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة فما أعجب ممن يتعرض لسخط الله من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة . وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك . وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح . أما منفعته في الدين فهو أنه مظلوم من جهتك لاسيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره ، وذكر مساوئه . فهذه هدايا تهديها إليه إذ تهدي إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلساً محروماً كما حرمت في الدنيا من النعمة فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك وصديق عدوك إذ تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة وصرت مذموماً عند الخالق والخلائق شقياً في الحال والمآل ، ونعمة المحسود — شئت أم أبيت — دائمة باقية ، ومن تفكر في هذا بذهن صاف وقلب حاضر انطلقت نار الحسد من قلبه .

وأما العمل النافع فيه فهو أن يكلف نفسه تقيض ما يتقاضاه الحسد وذلك بالتواضع للمحسود والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة فتعود القلوب إلى التألف والتحاب وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض فهذه هي أدوية الحسد من نافعة جداً إلا أنها مرة على القلوب جداً ولكن النفع في الدواء المر ، فمن لم

یصبر علی مرارة الدواء لم ینل حلاوة الشفاء ، وإنما تهون مرارة هذا الدواء أعنی التواضع للأعداء والتقرب إلیهم بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعانی التي ذكرناها ، وقوة الرغبة فی ثواب الرضا بقضاء الله تعالى .

## کتاب ذم الدنيا

الآیات الواردة فی ذم الدنيا وأمثالها كثيرة : وأكثر القرآن مشتمل علی ذم الدنيا وعسرف الخلق عنها ودعوتهم إلی الآخرة بل هو مقصد الأنبياء علیهم الصلاة والسلام . ولم یبعثوا إلا لذلك . فلا حاجة إلی الاستشهاد بآیات القرآن لظهورها . إنما نورد بعض الأخبار الواردة فیها : وقد روى أن رسول الله صلى الله علیه وسلم مر علی شاة میتة ، فقال : « أترون هذه الشاة هینة علی أهلها » قالوا : من هو أهلها ؟ قال : « والذی نفسی بیده للدنيا أهون علی الله من هذه الشاة علی أهلها » ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقی کافراً منها شربة ماء » وقال صلى الله علیه وسلم : « حب الدنيا رأس کل خطیئة » وقال صلى الله علیه وسلم « إن الدنيا حیوة خضرة وإن الله مستخافکم فیها فناظر کیف تعملون » .

### بیان الدنيا المذمومة

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تکفیک ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هی وما الذی ینبغی أن یجتنب منها ، وما الذی لا یجتنب ، فلا بد وأن نبین الذم المذمومة المأمور باجتنابها لکونها عدوة قاطعة لطریق الله ما هی ، فنقول :  
دنیاء وأخرتک عبارة عن حالتین من أحوال قلبک ، فالقرب الدانی یسمی دنیا وهو کل ما قبل الموت ، والمترأخی المتأخر یسمى آخرة وهو ما بعد الموت فکل مالک فیہ حظ ونصیب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فالدنيا فی حقیقہ إلا أن جمیع مالک إلیه میل وفیه نصیب وحظ فلیس بمذموم هو ثلاثة أقسام :

(القسم الأول) ما يصحبك في الآخرة ويبقى معك ثمرته بعد الموت وهو العلم النافع والعمل الصالح .

(القسم الثاني) وهو المقابل له على الطرف الأقصى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلاً كالتلذذ بالمعاصي كلها ، والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات والضرورات الداخلة في جملة الرفاهية والرعونات أى في السرف ، فحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة .

(القسم الثالث) وهو متوسط بين الطرفين كل حظ عاجل معين على أعمال الآخرة وهو ما لا بد منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة التي بها يصل إلى العلم والعمل — وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول ووسيلة إليه — فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولاً للدنيا ولم يصر به من أبناء الدنيا وكانت الدنيا في حقه مزرعة للآخرة ، وإن أخذ ذلك بقصد حظ النفس فهو من الدنيا ، فإذا الدنيا حظ نفسك العاجل الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة ويعبر عنه بالهوى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ( ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ) ومجامع الهوى خمسة أمور وهي ما جمعه الله تعالى في قوله : ( إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ) . والأعيان التي تحصل منها هذه الخمسة سبعة يجمعها قوله تعالى : ( زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ) وبالجملة فكل ما ليس لله فهو من الدنيا ، وما هو لله فذلك ليس من الدنيا .

بيان حقيقة الدنيا في نفسها

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان فيها حظ وله في إصلاحها وإتمام الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها فهي الأرض وما عليها قال تعالى : ( إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ) فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقر ، وما عليها لهم ما يلبس ومطعم

ومشرب ومنكح ، ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام : المعادن ، والنبات والحيوان . ( أما النبات ) فيطابه الآدمي للاقتيات والتداوى . ( وأما المعادن فيطابها للآلات والأواني كالنحاس والرصاص ، وللنقد كالذهب والفضة ولغير ذلك من المقاصد . ( وأما الحيوان ) فينقسم إلى : الإنسان والبهائم وأما البهائم فيطاب منها لحومها للمأكّل ، وظهورها للمركب والزينة وأما الإنسان فقد يطلب الآدمي ليستخدم كالعاهان أو ليتمتع به كالجوارى والنسوان ، ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام وهو الذي يعبر عنه بالجاه ، إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين . فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا ، وقد جمعها الله تعالى في قوله : ( زين للناس حب الشهوان من النساء والبنين ) وهذا من الإنس ( والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة وهذا من الجواهر والمعادن ، وفيه تنبيه على غيرها من الآلىء واليوافيت وغير ( وانخيل المسومة والأنعام ) وهي البهائم والحيوانات ( والحراث ) وهو النباه والزرع . فهذه هي أعيان الدنيا إلا أن لها مع العبد علاقتين : علاقة مع القلب وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه إليها حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بالدنيا ، ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلق بالدنيا كالغفلة والغفلة والخسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكبر والتناخر - وهذه هي الدنيا الباطنة - وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها العلاقة الثانية مع البدن ، وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظ وحظوظ غيره ، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها ، وإنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقابهم بالدنيا لهاتين العلاقتين : علاقة القلب بالحب وعلاقة البدن بالشغل : ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسبل علم أن هذه الأعيان التي سميناها دنيا لم تخلق إلا لقوامه ليتقوى بها على إصلاح دينه حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته ،

لازماً لسياسة الشهوات ومراقباً لها حتى لا يتجاوز حدود الورع والتقوى ولا يعلم  
فصائل ذلك إلا بالاعتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فقد كانوا على المنهج القصد  
وعلى السبيل الواضح ، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين ،  
وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية ، وما كان لهم في الأمور تفريط  
ولا إفراط بل كان أمرهم بين ذلك قواماً ، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين  
وهو أحب الأمور إلى الله تعالى .

## كتاب ذم البخل و ذم المال

ما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا لم يكن نظراً في المال خاصة بل الدنيا عامة ،  
والمال بعض أجزائها الجدير بإفراذ البحث عنه ، إذ فيه آفات وغوائل ،  
وللإنسان من فقده صفة النقر ، ومن وجوده وصف الغنى ، وهما حالتان يحصل  
فيهما الاختبار والامتحان ، ثم للفاقد حالتان : القناعة والحرص . وإحداها مذمومة  
الأخرى محمودة ، وللحريص حالتان : طمع فيما في أيدي الناس ، وتشمر للحرف  
والصناعات مع اليأس عن الخلق والطمع شر الحالتين . والمواجد إمساك بحكم البخل  
والشح ، وإنفاق . وإحداها مذمومة والأخرى محمودة . والمنفق حالتان : تبذير  
واققتصاد ، والمحمود هو الاقتصاد . وهذه أمور متشابهة ، وكشف الغطاء عن  
الغموض فيها مهم ، ونحن نشرحه بعونه تعالى .

### بيان ذم المال وكراهة حبه

قال الله تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا تاهمكم أموالكم ولا أولادكم عن  
تذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ) وقال تعالى : ( إنما أموالكم  
لادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ) فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد  
وغبن خسراناً مبيناً ، وقال تعالى : ( إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى )

فلا حول ولا قوة إلا بالله العلی العظيم ، وقال تعالی : ( أهاکم التکاثر ) ، وقال صلی الله علیه وسلم : « تعس عبد الدینار وتعس عبد الدرهم ، تعس ولا انتعش ، وإذا شیک فلا انتقش » بین أن محبهما عابد لهما ، ومن عبد حجراً فهو عابد صنم ، أی من قطعته ذلك عن الله تعالی وعن أداء حقه فهو کعابد صنم ، وهو شرک إلا أن الشرک خفی وجلی نعوذ بالله منهما ، وقال صلی الله علیه وسلم : « يقول ابن آدم مالی مالی وهل لك من مالک إلا ما أکلت فأفینت ، أو لبست فأبلیت ، أو تصدقت فأمضیت ؟ » وقال صلی الله علیه وسلم : « ما ذئبان ضاریان أرسلا فی غنم بأكثر إفساداً فیها من حب الشرف والمال والجاه فی دین الرجل المسلم » وقال صلی الله علیه وسلم : « هلك المکثرون إلا من قال به فی عباد الله هكذا وهكذا وقلیل ما هم » وعن یحیی بن معاذ قال : الدرهم عقرب فإن لم تحسن رقیته فلا تأخذه فإنه إن لدغک قتلك سمه ، وقیل : وما رقیته ؟ قال : أخذه من حلقه ووضعته فی حقه . وعنه رحمه الله : مصیبتان لم یسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد فی ماله عند موته ، قیل : وما هما ؟ قال : یؤخذ منه کله ویسأل عنه کله .

### بیان مدح المال والجمع بینہ وبين الذم

اعلم أن الله تعالی قد سمی المال خیراً فی مواضع من کتابه العزیز ، فقال عز وجل : ( إن ترک خیراً ) وقال تعالی ممتناً علی عباده : ( ویمددکم بأموال وبنین ویجعل لکم جنات ویجعل لکم أنهاراً ) وقال صلی الله علیه وسلم : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ولا تقف علی وجه الجمع بین الذم والمدح إلا بأن تعرف حکمة المال ومقصوده وآفاته حتی ینکشف لك أنه خیر من وجه وشر من وجه ، وأنه محمود من حیث هو خیر ، ومذموم من حیث هو شر ، فإنه لیس بخیر محض ولا هو شر محض ، بل هو سبب الأمرین جمعاً ، وما هذا وصفه فیمد تارة ویذم أخرى .

## بیان تفصیل المال وفوائده

قدمنا أن المال فيه خير وشر ، فمن عرف فوائده وغوائله أمكنه أن يحتجز من شره ويستدر من خيره ، أما الفوائد دنيوية ودينية ، وأما الدنيوية فمعروفة ، وأما الدينية فتتخصر في ثلاثة أنواع :

(النوع الأول) أن ينفقه على نفسه : إما في عبادة كالسفر للحج والعلم ، وإما فيما يقويه على العبادة من مطعم وملبس ومسكن ومنكح وضرورات المعيشة ، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة .

(النوع الثاني) ما يصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أقسام : الصدقة ، والمروءة ، ووقاية العرض ، وأجرة الاستخدام .  
(أما الصدقة) فلا يخفى ثوابها .

(وأما المروءة) فنعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة وما يجري مجراها ، فإن هذه لا تسمى صدقة ، بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج إلا أن هذا من الفوائد الدينية ، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء ، وبه يكتسب صفة السخاء ويأتحق بزمرة الأسخياء ، فلا يوصف بالجود إلا من يصطنع المعروف ، ويسلك سبيل المروءة والفتوة . وهذا أيضاً مما يعظم الثواب فيه ، فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط التقرب والفاقة في مصارفها .

(وأما وقاية العرض) فنعني به بذل المال لدفع هجو الشعراء ، وثاب السفهاء ودفع شرهم ، وهو أيضاً - مع تنجز فائدته في العاجلة من الحفظ الديني : في الحديث : « ما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة » وكيف لا وفيه منع لانتاب عن معصية الغيبة واحتراز عما يشور من كلامه من العداوة التي تحمل الكفاة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة .

(وأما الاستخدام) فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان كثيرة ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته .

(النوع الثالث) ما يصرفه إلى إنسان معين ، ولكن يحصل به خير عام ، كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى وغير ذلك من الأوقات المرصدة للخيرات وهي من الخيرات المؤبدة الدارة بعد الموت المستجابة بركة أدعية الصالحين وناهيك بها خيراً . فهذه جملة فوائد المال في الدين .

(وأما الآفات) فدينية ودنيوية ؛ أما الدينية فثلاث :

(الأولى) أن يجر إلى المعاصي فإن المال يحرك داعية المعاصي وارتكاب الفجور .  
(الثانية) أنه يجر إلى التمتع في المباحات والتمرن عليه حتى يصير مألوفاً عند محبوباً لا يصبر عنه . وإذا اشتد أنسه به ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض في الكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه وذلك من شؤم المال .

(الثالثة) أنه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران . وأما الآفات الدنيوية فكثيرة كالخوف والحزن والغم والهوان والتعب في دفع الحساب وتجشم المصاعب في حفظ المال وكسبه والفكر في حفظ المال وكسبه والكر في خصومة الشركاء ومنازعتهم وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها فإذا تريق المال أخذه من حله وصرفه في الخيرات وما عدا ذلك سمو وآفات . نسأله تعالى السلامة والعون بلطفه وكرمه .

بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة والاقتصاد

ينبغي للفقير أن يكون قانعاً منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما أيديهم ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان لئلا يتدنس بذل الحرص فيجره إلى مساوىء الأخلاق وارتكاب المنكرات ، وقد جبل آدمي



الحرص والطمع وقلة القناعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان لابن آدم اديان من ذهب لا بتغى لها ثالثاً » وعلاج ذلك لا يكون إلا بأمور :  
 ( الأول ) الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق ، وهو الأصل في القناعة ، ان من كثر خرجه واتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة . وفي الحديث : « ما عال من تصد » ، وعنه صلى الله عليه وسلم : « ثلاث منجيات : خشية الله في السر العلانية ، والقصد في الغنى والفقر ، والعدل في الرضا والغضب » وعنه صلى الله عليه وسلم : « الاقتصاد وحسن الصمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة » .

( الثاني ) أن يتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه ، وإن يشتد حرصه .

( الثالث ) أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء ، وما في الحرص والطمع من الذل والمداهنة .

( الرابع ) أن يكثر تأمله في تنعم الكفرة والحمقى ، ثم ينظر أحوال الأنبياء الأولياء ويستمتع أحاديثهم ويطالع أحوالهم ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة تجار أو الأبرار فيهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير .

( الخامس ) أن يفهم ما في جمع المال من الخطر كما ذكرنا في آفات المال ، ثم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه ، فبهذه الأمور يدبر على اكتساب خالق القناعة ، وعماد الأمر الصبر .

#### بيان فضيلة السخاء

اعلم أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف بعد عن الشح والبخل فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو

أصل من أصول النجاة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه أحاديث كثيرة منها « خُلقان يحبهما الله تعالى حسن الخلق والسخاء ، وخُلقان يبغضهما الله سوء الخلق والبخل وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله في قضاء حوائج الناس » وعنه صلى الله عليه وسلم : « إن موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام » وقال أنس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسأل شيئاً على الإسلام إلا أعطاه . وأتاه رجل فسأله فأمره بشيء كثير بين جبليين من شاء الصدقة فرجع إلى قومه ، فقال يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخاف الفاقة وقال صلى الله عليه وسلم : « إن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار وإن البخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار . وجاهل سخي أحب إلى الله من عالم بخيل وأدوأ الداء البخل » ، وقال صلى الله عليه وسلم « كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كنت له صدقة ، وما وقى به الرجل عرضه فهو له صدقة وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها » وقال صلى الله عليه وسلم : « كل معروف صدقة والذال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهيان » وعن الحسن بن علي « الكرم هو التبر بالمعروف قبل السؤال والإطعام في الحبل والرافة بالسائل مع بذل النائل » وعن عبد الله بن جعفر : أمطر المعروف مطراً فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً وأصاب اللئام كنت له أهلاً - ومن سخاء السلف ما حكى أن ابن عامر اشتد دأراً بتسعين ألف درهم - فلما كان الليل سمع بكاء أهله فسأل فقيل بيكم لدارهم . فقال يا غلام اتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعاً . وكان الليل ابن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثمانمائة وستين مسكيناً . وعن ابن خارجة أن عبد الملك سأله عن خصال حدث بها عنه فأجابته أسماء ما مدت رجلى بين يدي جالس لي قط ، ولا صنعت طعاماً قط فدعوت قوماً إلا كانوا أمنّ عليّ مني عليهم ، ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألني

فاستكرت شيئاً أعطيته إياه . وعن الشافعي أن حماد بن أبي سليمان انقطع زره وهو راكب فمر على خياط وأراد النزول فبادره الخياط ، وحلف عليه أن لا ينزل وأصلح له زره وهو راكب فأخرج له صرة فيها عشرة دنانير وسلمها له واعتذر إليه من قلتها . قال الشافعي : لا أزال أحب حماداً لما بلغني عنه ، وأنشد الشافعي لنفسه :

يا لهف قلمي على مال أجود به      على المقامين من أهل المروءات  
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني      ماليس عندي من إحدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان : قال أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله ، فقال : أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عنى . وقام رجل إلى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكى ، فقال له سعيد : ما يبكيك ؟ قال : أبكى على الأرض أن تأكل مثلك . فأمر له بمائة ألف أخرى . وروى أن علياً كرم الله وجهه بكى فقيل ما يبكيك . فقال لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام وأخاف أن يكون الله قد أهانتني . وروى أن رجلاً أتى صديقاً له فدق عليه الباب فقال ما جاء بك . قال على أربع مائة درهم دين فوزن أربع مائة درهم وأخرجها إليه وعاد يبكى فسألتها امرأته فقال أبكى لأنني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتيحي ، فرحم الله من هذه أخلاقهم وغفر لهم .

### بيان ذم البخل

قال الله تعالى : ( ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ) وقال تعالى ( ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم يبطونون ما بخلوا به يوم القيامة ) وقال صلى الله عليه وسلم : « إياكم والشح فإنه يملك من كان قبلكم ، حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم » وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة بخيل » وعنه صلى الله عليه وسلم : « إن الله ين البخيل في حياته السخى عنه موته » وقال صلى الله عليه وسلم : « خصلتان

لا یجتمعان فی مؤمن البخل وسوء الخلق « وعن علی کرم الله وجهه : « سیأتی علی الناس زمان عضو بعض الموسر [فیه] علی ما فی یدہ ولم یؤمر بذلك قال الله تعالی : ( ولا تنسوا الفضل بینکم ) » وقال الشعبي : لا أدری أیہما أبعد غوراً فی نار جهنم البخل أو الکذب . وقال بشر بن الحارث : البخیل لاغیبة له ، قال النبی صلی الله علیه وسلم : « إنک إذا لبخیل » وقال صلی الله علیه وسلم لو فد بنی لحیان : « من سیدکم » قالوا جد بن قیس إلا أنه رجل فیه یخل فقال صلی الله علیه وسلم : « ای داء أدوا من البخل ولكن سیدکم عمرو بن الجموح » وكان عمرو یوم علی رسول الله صلی الله علیه وسلم إذا تزوج . وعن علی رضی الله عنه قال : والله ما استقصی کریم قط حقه . قال الله تعالی : ( فلما نبأت به وأظهره الله علیه عرف بعضه وأعرض عن بعض ) وقال بشر : النظر إلى البخیل یقسی القلب ولقاء البخلاء کرب علی قلوب المؤمنین . وقال ابن المعتز : أبخل الناس بالنال أجودهم بعرضه .

### بیان الإیثار وفضله

اعلم أن السخاء والبخل کل منهما ینقسم إلى درجات ، فأرفع درجات السخا الإیثار وهو أن یجود بالنال مع الحاجة إلیه ، وإنما السخاء عبارة عن بذل ما لا یحتاج إلیه لمحتاج أو لغير محتاج ، والبذل مع الحاجة أشد ، وكما أن السخاوة قد تنتهی إلى أن یسخو الإنسان علی غیره مع الحاجة ، فالبخل قد ینتهی إلى یبخل علی نفسه مع الحاجة - فکم من بخیل یمسک المال ویمرض یتداوی ، ویشتبهی الشهوة فلا یمنعه منها إلا البخل بالثمن . ولو وجدها لآکلها ، فهذا بخیل علی نفسه مع الحاجة وذلك یؤثر علی نفسه غیره مع محتاج إلیه ، فانظر ما بین الرجلین فإن الأخلاق عطايا یضعها الله حیث یشاء وليس بعد الإیثار درجة فی السخاء ، وقد أثنی الله علی الصحابة رضی الله عنهم به فقال : ( ویؤثرون علی أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) فقد روى أنه

برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً ، فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته بإطفاء السراج ، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام . فلما أصبح قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد عجب الله من صنيعكم الليلة إلى ضيفكم » ونزلت : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى ، والإيثار أعلى درجات السخاء ، وكان ذلك من دأب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سماه الله تعالى [خُلُقًا] عظيماً . فقال تعالى : (وإنك لعلی خلق عظیم) .

قيل خرج عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه إذ أتى الغلام بقوته فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ثم رمى إليه الثانى والثالث فأكلها وعبد الله ينظر إليه ، فقال يا غلام كم قوتك كل يوم ؟ قال ما رأيت . قال : فلم آثرت به هذا الكلب ؟ قال ما هى بأرض كلاب إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت أن أشبع وهو جائع . قال فما أنت صانع اليوم ؟ قال أطوى يومى هذا . فقال عبد الله ابن جعفر ألام على السخاء وإن هذا الغلام لأسخى منى ، فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات فأعتق الغلام ووهبه منه .

وقال عمر رضى الله عنه أهدي لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال إن أخى كان أحوج منى إليه فبعث به إليه فلم يزل كل واحد يبعث به إلى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع إلى الأول .

وقال حذيفة العدوى : انطلقت يوم اليرموك — من أيام فتوح الشام — أطلب من عملى ومعى شىء من ماء وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه أنا به فقلت أسقيك فأشار إلى أن نعم فإذا رجل يقول آه فأشار ابن عمى إلى يلق به إليه ، قال جثته فإذا هو هشام بن العاص ، فقات أسقيك فسمع به آخر

فقال آه ، فأشار هشام أن انطلق به إليه فحجته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين .

بيان حد السخاء والبخل وحققتهما

اعلم أن المال خلق لحكمة وهو صلاحه لحاجات الخلق — فيمكن إمساكه عن صرفه إلى ما خاق الصرف إليه ، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه ، ويمكن التصرف فيه بالعدل ، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ، ويبدل حيث يجب البذل ، فالإمساك حيث يجب البذل بخل ، والبذل حيث يجب الإمساك تمييز . وبينهما وسط وهو الحمود ، وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه إذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالسخاء وقد قيل له ( ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ) وقال تعالى : ( والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ) فالجود وسط بين الإسراف والإقتار ، وبين البسط والقبض ، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ، ولا بد أن يكون قابه طيباً به غير منازع له فيه — ثم إن الواجب بذله قسماً : واجب بالشرع ، وواجب بالمروءة والعادة ، والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة ، فإن منع واحد منهما فهو بخيل ، ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل كالذي يمنع أداء الزكاة ، ويمنع عياله وأهله النفقة — أو يؤديها ولكنه يشق عليه فإنه بخيل بالطبع — أو الذي يتيمم الخبيث من ماله ولا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله أو من وسطه فهذا كله بخيل .

ومن واجب المروءة ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات فإن ذلك مستقبح واستقبح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص ، فمن كثر ماله استقبح ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة ، ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ما لا يستقبح مع الأجانب ، ويستقبح مع الجار ما لا يستقبح مع البعيد ، ويستقبح في المضايقة من المضايقة ما لا يستقبح في المعاملة . وبالجملة ، فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أ

لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة ، ومن أدى واجب الشرع وواجب المروءة اللاتقة به فقد تبرأ من البخل . نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات ، فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة هو الجود ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون عن طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فإن من طمع في الشكر والثناء فهو بياع وليس بجواد فإنه يشتري المدح بماله ، ومثله من يبعثه عليه الخوف من الهجاء أو ملامة الخلق فإنه ليس من الجود لأنه مضطر إليه بهذه البواعث وهي أعراض معجلة له عليه فهو معتاض لاجواد .

### بيان علاج البخل

اعلم أن البخل سببه حب المال ، وحب المال سببان :

( أحدهما ) حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل .

( الثاني ) أن يحب عين المال ويتلذذ بوجوده وإن علم أنه زائد عن حاجاته بقية عمره ، وقد منّا أن علاج كل علة بمضادة سببها . فيعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر ، ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم ، ويعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه ، وكم من ولد لم يرث من أبيه مالا وحاله أحسن ممن ورث ، وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير ، وينقلب هو إلى شر ، ويعالج قلبه أيضاً بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم ، ومن الأدوية النافعة كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له فإنه لا من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره ويستثقل البخيل من أصحابه فيعلم مستثقل ومستقدر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه . ويعالج قلبه

أيضاً بأن يتفكر في مقاصد المال وأنه لماذا خلق فلا يحفظ منه إلا قدر حاجته والباقي يدخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بذله — فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم — فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلاً، فإذا تحركت الشهوة فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه [البذل] ويصده عنه .

## كتاب ذم الجاه والرياء

اعلم أصاحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار ، وهو مذموم بل الحمود المحمول إلا من شهره الله لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه قال الله تعالى ( تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً جمع بين إرادة الفساد والعلو في الأرض وبين أن الدار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعاً ، وقال عز وجل : ( من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ) وهذا أيضاً متناول بعمومه لحب الجاه فإنه أعظم لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها . وفي الحديث : « حسب امرئ من الشر أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه إلا من عصمه الله ، إن لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وروى في فضيلة المحمول صلى الله عليه وسلم : « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » وعنه صلى الله عليه وسلم : « ألا أدلكم على أهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره وأهل النار كل متكبر متكبر جواظ » والأخبار في مذمة الشر وفضيلة المحمول كثيرة . ومعلوم أن المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القاب وحب الجاه منشأ كل فساد . ثم إن المذموم هو طلب الشهرة والحرص عايتها ، فأما وجودها من الله تعالى من غير تكلف من العبد فليس بمذموم



بيان الحد الذي يباح فيه الجاه

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا . ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها أى القدرة على التصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها فى أعراضه — فحكم الجاه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وينقطع بالموت ، والدنيا مزرعة الآخرة . فكل ما خلق فى الدنيا يمكن أن يتزود منه للآخرة ؛ فحب الجاه والمال لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم ، وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمله الحب على مباشرة معصية وما لم يتوصل إلى اكتسابه بكذب وخداع وارتكاب محظور ، وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام . والقول الفصل فى طلب المنزلة والجاه فى قلوب الناس أن يقال يطلب ذلك على ثلاثة أوجه : وجهان مباحان ، ووجه محظور .

(أما الوجه المحظور) فهو أن يطلب قيام المنزلة فى قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منك عنها مثل العلم والورع والنسب ، فيظهر لهم أنه علوى ، أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك ، فهذا حرام لأنه كذب وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة .

(وأما أحد المباحين) فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى : ( اجعاني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ) فإنه طلب المنزلة فى قلبه بكونه حفيظاً عليماً ، وكان محتاجاً إليه وكان صادقاً فيه .

(والثانى) أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم إلا نزول منزلته به ، فهذا أيضاً مباح لأن حفظ الستر على القبائح جائز ولا يجوز لك الستر كالذى يخفى عن يريده استتجاره أنه يشرب الخمر ولا يلقي إليه أنه

ورع ، فإن قوله إني ورع تلبيس وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب .

ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده فإن ذلك رياء وهو ما بس إذ يخيل له أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مرء بما يفعله فكيف يكون مخلصاً . فطلب الجاه بهذا الطريق حرام — وكذا بكل معصية وذلك يجرى مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق ، وكما لا يجوز له أن يملك مال غيره بتلبيس في عوض أو غيره فلا يجوز له أن يملك قلبه بتزوير وخداع ، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال .

سبب حب المدح وبغض الذم

لا يعرف طريق العلاج لذلك ما لم يعرف سببه ، لأن ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته ، إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض .

لحب المدح والنذاذ القلب به أسباب : ( الأول ) وهو الأقوى : شعور النفس بالكمال ، ومهما شعرت بكمالها وارتاحت اهتزت وتلذذت والمدح يشعر نفس المدوح بكمالها ( والسبب الثاني ) أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للمدوح وأنه مرید له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته ، وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيد ( الثالث ) أن ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه لاسيما إن كان ممن يعتقد بثنائه في ملاً فيكون المدح ألد ، والذم أشد على النفس . فأما العلة الأولى وهي استشعار الكمال — فتندفع بأن يعلم المدوح أنه غير صادق في قوله كما إذا مدح بأنه نسيب أو سخي أو عالم بعلم أو متورع عن المحظورات ، وهو يعلم من نفسه ضد ذلك فتزول اللذة التي سببها استشعار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه ، وما بعدها فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة بطلت اللذة الثانية وهم استيلاؤه على قلبه فبطلت اللذات كلها .

بيان علاج حب الجاه

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغولاً بالتودد إليهم والمراءاة لأجلهم ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم — وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب فإذا حب الجاه من المهلكات فيجب علاجه وإزالته عن القلب ، وعلاجه مركب من علم وعمل . أما العلم فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه — وهو كمال القدرة على قلوب الناس — وإن صفا وسلم فأخره الموت ، فليس هو من الباقيات الصالحات ، فلا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها ، وأما العمل فبأن يأنس بالخمول ليستقط من نفوسهم ، ويستعين عليه بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول وبنظره في أحوال السلف وإيثارهم ثواب الآخرة على زخرف الحياة الدنيا .

بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم

إعلم أن أكثر الخلق إنما هاكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء المدح وخوفاً من الذم وذلك من المهلكات فيجب معالجته ، وطريقه ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم . فمن الأسباب استشعار الكمال بسبب قول المادح فطريقتك أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بها أم لا ؟ فإن كنت متصفاً بها فإن كانت كالثروة والجاه فهذه لا تستحق المدح كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب حينما تدرره الرياح . وهذا من قلة العقل ، وإن كانت كالعلم والورع ، فهذه لا تستحق المدح إلا أنه لا ينبغي الفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة ،

وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون .  
ومن الأسباب الخشية التي اضطرت المادح إلى المدح ، وهو أيضاً يرجع إلى قدرة  
عارضة لا ثبات لها ولا تستحق الفرح ، بل ينبغي أن يفهمك مدح المادح وتكرهه  
وتغضب به ، كما نقل عن الساف لأن آفات المدح على المدوح عظيمة كما تقدم في  
آفات اللسان ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم مرة للمادح « ويحك  
قصمت ظهره » .

### بيان علاج كراهية الذم

يفهم ذلك مما تقدم والقول الوجيز فيه أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال  
إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصيح والشفقة ، وإما أن يكون صادراً  
ولكن قصده الإيذاء والتعنت . وإما أن يكون كاذباً . فإن كان صادقاً وقصد  
النصح فلا ينبغي أن تدمه وتغضب عليه وتحقد بسببه بل ينبغي أن تتقلد منته . فإن  
من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تنقيه ، فينبغي أن تفرح  
وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها . فأما اغتنامك بسبب  
وكراهتك له وذمك إياه فإنه غاية الجهل ، وإن كان قصده التعنت فأنت قد انتفعت  
بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به لتقلع عنه ، وذلك من أسباب  
سعادتك فينبغي أن تفرح به لأن تنبهك بقوله غنيمة ، وجميع مساوىء الأخيار  
مهلكة في الآخرة ، والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه ، فينبغي أن تغتنم  
وأما قصد العدو التعنت فجنابة منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك ، فلم تغضب  
عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به ؟ !

( الحالة الثالثة ) أن يفترى عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى ، فينبغي

لاتكره ذلك ولا تشتغل بدمه بل تتفكر في ثلاثة أمور :

(أحدها) إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه . وما يستره الله من عيوبك أكثر فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعك على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت برىء عنه (والثاني) إن ذلك كفارة لبقية مساوئك وذنوبك ، وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته ، وكل من مدحك فقد قطع ظهرك فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التي تقربك إلى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله ( وأما الثالث ) فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله ، وأهلك نفسه بافترائه وتعرض لعقابه الأليم . فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول : اللهم أهلكه بل ينبغي أن تقول : اللهم أصلحه ، اللهم تب عليه ، اللهم ارحمه كما قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر لقومي ، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » لما أن كسروا ثنيتته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد .

ومما يهون عليك كراهية المذمة قطع الطمع — فإن من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبك ، وأصل الدين القناعة ، وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه ومادام الطمع قائماً كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالباً وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة ، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين فلا ينبغي أن يطمع طالب الجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه فإن ذلك بعيد جداً .

### بيان ذم الرياء

وهو طلب الجاه والمنزلة بالعبادات : اعلم أن الرياء حرام والمرأى عند الله ممقوت ، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار ( أما الآيات ) فقوله تعالى ( فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ) وقوله عز وجل : ( والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ) قال مجاهد أهل الرياء . وقال تعالى : ( إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء

ولا شكوراً) فمدح المخلصين بنفى كل إرادة سوى وجه الله والرياء ضده وقال تعالى: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) نزل ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعبادته وأعماله (ومن الأحاديث) قوله صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل من عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا [منه] بريء وأنا أغني الأغنياء عن الشرك» وقال صلى الله عليه وسلم «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال «الرياء» يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء» وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يقبل الله عز وجل عملاً فيه مثقال ذرة من رياء» وقال صلى الله عليه وسلم: «إن أدنى الرياء شرك» وقال صلى الله عليه وسلم: «إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجالا تصدق بيمينه فكان يخفيها عن شماله» ولذلك ورد «أن فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفاً».

وروى أن المسيح عليه السلام كان يقول: «إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ورحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم، وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله، وإذا صلى فليرخ ستر يابه».

ومن الآثار ما روى أن عمر بن الخطاب رضی الله عنه رأى رجلاً يطأ طيء رقبتة فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب ورأى أبو أمامة الباهلي رجلاً في المسجد يبكي في سجوده فقال: أنت أنت لو كان هذا بيتك. وقال الضحاک: لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولو جهك. ولا يقولن هذا لله وللرحم فإن الله تعالى لا شريك له.

بيان حقيقة الرياء وجوامع ما يراعى له

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإراعاة خصال الخير، والمراد به كثير ويجمعه خمسة أقسام، وهي مجامع ما يتزين

العبد للناس وهو: البدن، والزي، والقول، والعمل، والأتباع، والأشياء الخارجة. فأما الرياء في الدين بالبدن فكأظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد، وعظم الحزن على أمر الدين غلبة خوف الآخرة، وكتشيعت الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر، ومثله خفض الصوت وإغارة العينين، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم أو متوقر للدين أو ضعيف القوة من الجوع. وعن هذا روى «إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه لما يخاف عليه من نزع الشيطان بالرياء».

وأما الرياء بالهيئة والزي فمثل تشيعت الشعر وحلق الشارب وإطراق الرأس في المشي والهدوء في الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب، ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب من الساق، وتقصير الأكام، كل ذلك يرأى به ليظهر أنه متبع للسنة ومقتد بالصالحين، ومن ذلك لبس المرقعة، والصلاة على السجاد ولبس الثياب الزرق تشبهاً بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف في الباطن، ومنه التقنع فوق العمامة وإسبال الرداء على العينين. ومنه الطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوهم أنه من أهل العلم. والمرءون بالزي على طبقات كل طبقة منهم يرى منزلته في زي مخصوص فيثقل عليه الانتقال إلى ما دونه وإلى ما فوقه وإن كان مباحاً بل هو عنده بمنزلة الذبح، وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بداله من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا.

وأما الرياء بالقول فرياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار لإظهار شدة العناية بأحوال الصالحين، وتحريك الشفتين بالذكر محض الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق، وإظهار الضيق للمنكرات وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي وتضعيف الصوت الكلام، والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه، ودولة على قصد إخماد الخصم.

وأما الرياء في العمل فكراهة المصلي بطول القيام وطول السجود والركوع وإطراق الرأس وترك الالتفات .

وأما المراءاة بالأصحاب والزائرين والمحافظين كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ، ليقال إن فلاناً قدزار فلاناً ، أو عابداً من العباد ، ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون عليه ، أو أميراً من الأمراء ليقال إنهم يتبركون به ، وكالذي يكثر ذكر الشيوخ وطواف البلاد ليتباهى عند خصمه — فهذه مجامع ما يرأى به المراءون ، وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد لا اعتقادهم أنه نوع قدرة وكمال في الحال ، وإن كان سريع الزوال ولا يفتر به إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال .

ومن المرائين من لا يقتنع بقيام منزلته بل يلتمس مع ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد — ومنهم من يريد انتشار الصيت — ومنهم من يريد الاستهارة عند الأمرام لتقبل شفاعته فيقوم له جاه عند العامة — ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام الدنيا وكسب مال ولو كان من الحرام — وهؤلاء شر طبقات المرائين .

### حكم الرياء

اعلم أن الرياء إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات — فأما المراءاة بما ليس في العبادات فقد تكون مباحة كتسوية العمامة والشعر وتحسين الثوب لئلا تزدرية أعين الناس واحترازاً من ألم المذمة وطلباً لراحة الأنس بالإخوان وقد تكون طاعة كما إذا كان متبوعاً وعمله المذكور يرغب في اتباعه واستماله القلوب إليه ، وقد تكون مذمومة كما إذا حملت على ما لا يجوز أو دعت إلى أمور محظورات — وبالجملة فحكمها تابع للغرض المطلوب بها — وأما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فالمرأى فيها يبطل عبادته ويعصى ويأثم والمعنى فيه أمران :



(أحدهما) يتعلق بالعبادة وهو التلبيس والمكر لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك .

(الثاني) يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزئ بالله كما ورد — ومثاله أن يمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم ، وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جواريه أو غلام من غلمانه فإن هذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقرب إليه بخدمته بل قصد بذلك عبداً من عبيده ، فأى استحقاق يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مرءاة عبد ضعيف لا يملك ضرراً ولا نفعاً ، وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنه أولى بالتقرب إليه من الله إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته ، وأى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى — فهذا من كبار المهلكات ، ولذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشرك الأصغر » ولو لم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله فقد قصد غير الله وعن هذا كان شركاً خفياً وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان وأوهم عنده أن العباد يملكون من مصالح حاله أكثر مما يملكه الله تعالى ، مع أن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لها ضرراً ولا نفعاً فكيف يملكون لغيرهم ؟ هذا في الدنيا فكيف في يوم ( لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ) بل تقول الأنبياء فيه نفسى نفسى ؟ فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس ، فلا ينبغي أن نشك في أن المرأى بطاعة الله من سخط الله تعالى .

### درجات الرياء

اعلم أن أغلظ أنواع الرياء هو الرياء بأصل الإيمان ، وصاحبه مخلد في النار هو الذى يظهر كلمتى الشهادة وباطنه مشحون بالكذب — وهذا هو النفاق

المذكور في القرآن الكريم في مواضع شتى وذلك مما يقل في زماننا ويلحق به من يجحد الجنة والنار والدار الآخرة أو يعتقد طي بساط الشرع والأحكام ميلا إلى أهل الإباحة أو يعتقد كفراً وهو يظهر خلافه ، فهؤلاء من المنافقين المرأين المخلدين في النار .

وقسم من الرياء دون الأول بكثير كمن يحضر الجمعة أو الصلاة ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها ، أو يصل رحمه أو يبر والديه لا عن رغبة لكن خوفاً من الناس ، أو يركى أو يحج كذلك ، فيكون خوفه [من] مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ، وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالقت .

وقسم يرأى بالنوافل يكسل عنها في الخلوة ، ثم يبعثه الرياء على فعلها كحضور الجماعة ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وصوم عرفة وعاشوراء خوفاً من المذمة وطلباً للمحمدة ، ويعلم الله تعالى أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض وهذا عظيم ولكن دون ما قبله .

وقسم يرأى بفعل ما في تركه نقصان العبادة كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة ، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترى الالتفات وتم القعود بين السجدين ، وكذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرديء ، فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيب خوفاً من مذمته ، وكذلك الصائم يصوم صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا إكمالاً لعبادة الصوم خوفاً من المذمة . فهذا أيضاً من الرياء المحذور لأن تقديماً للمخلوقين على الخالق ، فإن قال المرأى إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة فيقال له هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس ، وليس الأمر كذلك في ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمة منك لمولايك أعظم من ضررك بغير غيرك ، فلو كان باعثك الدين لكانت شفقتك على نفسك أكثر .

وقسم يرأى بفعل ما لا نقصان في تركه ولكن فعله في حكم التكلمة والتكلمة

لعبادته كالتطويل في الركوع والسجود ومد القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبير الأولى وتحسين الاعتدال والزيادة في القراءة على الصورة المعتادة ، وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه .

وقسم يرأى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضاً كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول وتوجهه إلى يمين الإمام وما يجري مجراه ، وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ومتى يحرم بالصلاة ، هذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرأى به ، وبعضه أشد من بعض الكل مذموم .

### بيان المرأى لأجله

اعلم أن للمرأى مقصوداً لا محالة وإنما يرأى لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض وله درجات (أحدها) أن يكون مقصوده التمكن من معصية كالذي يرأى بعبادته ويظهر التقوى والورع وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولى منصباً أو يسلم إليه تفرقة مال ليستأثر بما قدر عليه منه أو يودع الودائع فيأخذها أو يتوصل إلى التحجب بامرأة لفجور ونحوه أو يحضر مجالس العلم والتذكير وقصده النظر لأمرد ، هؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلباً إلى معصيته ، ويقرب منهم من يقترف جريمة وهو مصر عليها فيظهر التقوى لينفي التهمة عن نفسه .

(ثانيها) أن يكون غرضه نيل حظ من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح أو جميلة أو شريفة ، كالذي يظهر العلم والعبادة ليرغب في تزويجه إعطائه — فهذا رياء محذور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه الأول .

( الثالثة ) أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ولكن يظهر عبادته خوفاً من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والزهاد ، ويعتقد أنه من جملة العامة كالذى يمشى مستعجلاً فيطلع عليه الناس فيحسن المشى ويترك العجلة كيلاً يقال إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار .

وكذلك [من] يسبق إلى الضحك أو يبدو منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار ، فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء ، وإظهار الحزن ويقول ما أعظم غفلة آدمي عن نفسه والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير ( وكالذى يرى جماعة يصلون التراويح ويتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويالحق بالعوام ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئاً من ذلك (وكالذى) يعطش يوم عرفة أو عاشوراء فلا يشرب خوفاً من أن يعلم الناس أنه غير صائم أو يدعى إلى الطعام فيمتنع ليظن أنه صائم، وقد لا يبصر بأنه صائم ولكن يقول لى عذر وهو جمع بين خبيثين، فإنه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء ، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مراء فيريد أن يقال إنه سائر لعبادته ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر على أن يذم لنفسه فيه عذراً تصريحاً أو تعريضاً بأن يتعلل بمرض يقتضى فرط العطش ومن الصوم أو يقول أفطرت تطيباً لقلب فلان لأنه محب للإخوان شديد الرحمة في أن يأكل الإنسان من طعامه ، وقد ألع على اليوم ولم أجد بداً من تطيب قلبه ، ومثل أن يقول إن أبوى أو أحدهما يشفقان على يظنان أنى لو صمت لم يظن فلا يدعانى أصوم ، فهذا وما يجرى مجراه من آفات الرياء ، فلا يسبق إلى الإمساك إلا لرسوخ عرق الرياء فى الباطن .

( أما المخلص ) فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه ، فإن لم يكن له رغبة فى الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيه .

ملياً ، وإن كان له رغبة في الصوم لله قنع بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره ، وقد يحظر له أن في إظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه ، وفيه مكيدة وغرور . فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرأئين ، وجميعهم تحت مقت الله وغضبه وهو من أشد المهلكات .

بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من ديب النمل

اعلم أن الرياء جلي وخفي ، فالجلي هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه لو قصد الثواب ، وهو أجلاه ، وأخفى منه قليلاً وهو ما لا يحمل على العمل مجردة إلا أن يخف العمل الذي يريد به وجه الله كالذي يعناد التهجيد كل ليلة ، يثقل عليه ، فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه ، وأخفى من ذلك إلا يؤثر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب ، وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته قرب عبد يخلص عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتمم العمل كذلك ، ولكن إذا طلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له ، وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة ، وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور ، ولولا التفات القلب إلى الناس ما ظهر سروره عند اطلاع الناس ، فلقد كان الرياء مستكناً في القلب استكنان النار في الحجر ، فأظهر منه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور ؛ ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية صار ذلك قوتاً وغذاء للعرق الخفي من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلف شيئاً يطلع عليه بالتعريض أو بالشمائل كخفض الصوت وآثار الدموع ، وأخفى بذلك أن يخفى بحيث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه وأن يروا في قضاء حوائجهم وأن يسامحوه في البيع والشراء وأن يوسعوا له المكان يتر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعاداً في نفسه كأنه يتقضى

الاحترام مع الطاعة التي أخفاها ، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء أخفى من ديب النمل ، وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون .

ولم ينزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي يجتهدون في إخفائه أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم ، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في يوم القيامة بإخلاصهم ، إذ علموا أن الله لا يقبل في القيامة إلا الخالص ، وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة ، وأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا يجزي والد عن ولده .

فإذا شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر ، ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطالع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء ، فلو كان مخلصاً لما بالى الناس لعلمه أنهم لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ولا نقصان عقاب ، فإن قلت فما نرى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم ، فنقول السرور منقسم إلى محمود ومذموم فالمحمود مثل أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله به وألطافه به إذ لالطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل فيكون فرحاً بجميل نظر الله له لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم ، وقد قال الله تعالى : ( قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ) .

ومثل أن يظن رغبة المظلمين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العلانية بما أظهر وأجر السر بما قصده أولاً ، ومن اقتدى في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينتمص من أجورهم شيء وتوهم ذلك جدير بأن يكون سبب السرور .

ومثل أن يحمده المظلمون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم وبمحب

للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة ، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله ، وعلامة الإخلاص في هذا الورع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إياه .  
وأما السرور المذموم فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجهم ويقابلوه بالإكرام فهذا مكروه .

بيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط

إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه وارء الرياء فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ ، فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار ، فهذا لا يفسد العمل إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص سالماً عن الرياء إلا إذا ظهرت له بعده رغبة في الإظهار فتحدث به وأظهره ، فهذا مخوف ، وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه محبط ، وأما إذا ورد وارء الرياء قبل الفراغ من العمل وكان عقد على الإخلاص فإن كان مجرد سرور فلا يؤثر في العمل ، وإن كان رياء باعثاً على العمل وختم العبادة به حبط أجره لأن الواجب عليه أداء عمل خالص لوجه الله ، والخالص ما لا يشوبه شيء فلا يكون مؤدياً للواجب مع هذا الشوب ، وأما الرياء الذي يقارن حال العقد كأن يبتدىء الصلاة على قصد الرياء فإن استقر عليه حتى سلم فلا خلاف في أنه يقضى ولا يعتد بصلاته ، وإن ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام فالأرجح أنه لا تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليتأنف لأن باعثه الرياء في ابتداء العقد دون الاعتناء بالأمر فلم ينعقد افتتاحه فلم يصح ما بعده .

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال وسبب للمقت عند الله تعالى ، وأنه كباأر المهلكات ، وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته .  
وفي علاجه مقامان : ( أحدهما ) قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه .  
( والثاني ) دفع ما يخطر منه في الحال .

## المقام الأول في قلع عروقه وأصوله

وأصله حب المنزلة والجاه . وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول وهي : حب المنزلة المحمدة ، والفرار من ألم الدم ، والطمع فيما في أيدي الناس . فهذه الثلاثة هي التي تحرك المرأى إلى الرياء ، وعلاجه أن يعلم مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله تعالى ، وما يتعمد له من العقاب والمقت الشديد والخزى الظاهر . فهما تفكر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وبما يحرم عليه من ثواب الأعمال فإنه يسهل عليه قطع الرغبة عنه كمن يعلم أن العسل له رائحة ولكن إذا بان له أن فيه سمّاً أعرض عنه . ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار الله لأجل حمدهم ، ولا يزيدهم رزقاً ولا أجلاً ولا ينفعه يوم فقره وقاقته يوم القيامة ، وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله ، ومن طمع الخلق لم يخل من الذل والخيبة . وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والكره فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد ، وقد يصيب وقد يخطئ وإذا أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومدلته ، وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا ذمهم شيئاً ما لم يكتبه الله عليه ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ولا يجعله من النار إن كان من أهل الجنة ، ولا يبغضه إلى الله إن كان محموداً عند الله . وكلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ؛ فإذا قرر في قلبه آفة من الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على قلبه ، والعاقل لا يرغب فيما يضره ويقل نفعه — فهذا من الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء ، وأما العمل فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش فلا تنازعه نفسه إلى طلب غير الله بها .



المقام الثاني في دفع العارض منه أثناء العبادة

وذلك لا بد أيضاً من تعلمه ، فإن من جاهد نفسه بقلع مغارس الرياء وقطع الطمع واستحقار مدح المخلوقين ودمهم فقد لا يتركه الشيطان في أثناء العبادة بل يعارضه بمخاطر الرياء ، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق ، دفع ذلك بأن قال [لنفسه] مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك ، فأى فائدة في علم غيره ، فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد ذكر ما رسخ في قلبه من قبل آفة الرياء ، وتعرضه للمقت الإلهي وخسرانه الأخرى .

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

اعلم أن في إسرار الأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء ، وفي الإظهار فائدة الاقتداء وترغب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء . قال الحسن : إن السر أحرز العاملين ، ولكن في الإظهار أيضاً فائدة — ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية . فقال : ( إن تبدو الصدقات فنعمها هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ) والإظهار قسمان :

( أحدهما ) في نفس العمل . ( والآخر ) بالتحدث بما عمل .

( القسم الأول ) إظهار نفس العمل كالصدقة في الملاء لترغب الناس فيها ، كما روى عن الأنصاري الذي جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من سن سنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه » وتجرى سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيره . ولكن الاقتداء في الصدقة على الطباع أغلب فالسر أفضل من علانية لاقدوة فيها — أما العلانية للقدوة فأفضل من السر ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء . وقوله عليه السلام : « له أجرها وأجر من عمل بها » ولكن على من يظهر العمل وظيفتان :

( إحداهما ) أن يظهره حيث يعلم أن يقتدى به أو يظن ظناً ، ورب رجل يقتدى به أهله دون جيرانه . وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق . وربما يقتدى به أهل محلته . وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدى به الناس كافة . فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة ، وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به .

( الثانية ) أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء . وإنما شهوته التجمل بالعمل وبكونه مقتدى به . فليحذر العبد خدع النفس . فإن النفس خدوع ، والشيطان مترصد ، وحب الجاه على القلب غالب ، وقلماً تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات ، فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئاً . والسلامة في الإخفاء . وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا . فالحذر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء .

( القسم الثاني ) أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه ، والخطر في هذا أشد لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان ، وقد تجرى في الحكاية زيادة ومبالغة ، وللنفس لذة في إظهار الدعاوى عظيمة إلا أنه لو تطرق إليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها ، فهو من هذا الوجه أهون ، والحكم فيه أن من قوى قلبه ، وتم إخلاصه ، وصغر الناس في عينه ، واستوى عنده مدحهم وذمهم ، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به ، والرغبة في الخير بسببه ، فهو جائز بل مندوب إليه وإن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات لأنه ترغيب في الخير ، والترغيب في الخير خير ، وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء .

بيان الخطأ في ترك الطاعات خوفاً من الرياء

من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرأثياً به وذلك غلط وموافق

للسيطان وجر إلى البطالة وترك للخير ؛ فمادمت تجد باعثاً دينياً على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين وهو مطلع على قلبك بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل ، فإن قال لك الشيطان أنت مرء فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهية الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى ، وإن لم يبق باعث ديني بل مجرد باعث الرياء فترك العمل عند ذلك .

بيان ما على المرید قبل العمل وبعده وفيه

اعلم أن أولى ما يلزم المرید قلبه في سائر أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته ولا يقنع بعلم الله إلا من لا يخاف إلا الله ، ولا يرجو إلا الله ، فأما من خاف غيره وارتجأه واشتغى اطلاعه على محاسن أحواله فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قابه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان لما فيه من خطر التعرض للمقت وإحباط العمل ، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة فإن النفس تكاد تغلى حرصاً على الإفشاء ، فينبغي أن يثبت قدمه ويتذكر في مقابلة عظم عمله ملك الآخرة ونعيم الجنة أبد الآباد وعظم غضب الله على من طاب بطاعته ثواباً من عباده . ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به — وإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلاً من عمله خائفاً أنه ربما داخله من الرياء الخفي ما لم يقف عليه فيكون شاكاً في قبوله ورده مجوراً أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية ما مقتته بها ورد عمله بسببها ، ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعده — وأما الابتداء فيكون متيقناً أنه مخلص ما يريد بعمله إلا الله حتى يصح عمله وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه .

والذي يتقرب إلى الله بالسعي في حوائج الناس وإفادة العلم ينبغى أن يلزمه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ورجاء

الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه فإن ذلك يحبط الأجر . فهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة أو مرافقة في المشى في الطريق ليستكثر باستتباعه أو تردداً منه في حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره . نعم إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ليكون مثل أجره ولكن خدمه التاميد بنفسه فقيل خدمته فخرجوا أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا يريد ولا يستبعده منه لو قطعه ، ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله ويتعلم الله ويعبد الله ويخدم المعلم الله ، لا ليكون له في قلبه منزلة ولا في قلب الخلق ، فإن العباد ما أمروا إلا أن يعبدوا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره .

وأما المعتزل عن الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله فإن ذلك يغرس الرياء في صدره حتى تتيسر عليه العبادات في خلوته به ، وإنما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لا يدري أنه الخفيف للعمل عليه فاستشعار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثاً في الخلوقة . فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه . وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلو تغيروا عن اعتقادهم به لم يجزع ولم يضق بذرعا إلا كراهة ضعيفة إن وجدها في قلبه فيردّها في الحال بعقله وإيمانه ، ولو كان في عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزد ذلك خشوعاً ولم يدخله سرور بسبب اطلاعهم عليه ، ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غني والآخر فقير فلا يجد من إقبال الغني زيادة هزة في نفسه لإكرامه إلا إذا كان في الغني زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرماً له بذلك الوصف لا بالغني . فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مرء أو طماع .

ومكابد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر ، ولا ينجيك منها إلا أ

تخرج ما سوى الله من قلبك وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة في أيام متقاربة .

## كتاب ذم الكبر والعجب

ما ورد في ذم الكبر

قال تعالى : ( سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق )  
وقال تعالى : ( كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ) وقال تعالى :  
( واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ) وقال تعالى : ( إنه لا يحب المتكبرين )  
وقال : ( إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » وقال عليه السلام : « يقول الله تعالى الكبرياء ردأى والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منها ألقيته في جهنم ولا أبالي » وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار » وقال صلى الله عليه وسلم : « لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطراً » وجاء في فضل التواضع قوله صلى الله عليه وسلم : « ما زاد الله عبداً يعنو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » وعنه صلى الله عليه وسلم : « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة وأنفق مالا جمعه في غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة » وعنه عليه السلام : « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ، ومن اقتصد أغناه الله ، ومن بذر أفقره الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله » وقال الفضيل — وقد سئل عن التواضع — أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته ولو سمعته من جهال الناس قبلته .

بيان حقيقة الكبر وآفته

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر ، فالباطن هو خلق في النفس والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح — وتلك الأعمال أكثر من أن تحصى وآفته

عظيمة وغائلته هائلة ، وكيف لا تعظم آفته . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » وإنما صار حجاً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها . وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة ، والكبر وعزة النفس يفلق تلك الأبواب كلها ، لأن المتكبر لا يقدر على أن يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين ولا يقدر على ترك الحقد ولا يقدر أن يدوم على الصدق ولا يقدر على ترك الغضب ، ولا يقدر على كظم الغيظ ، ولا يقدر على ترك الحسد ، ولا يقدر على النصح اللطيف ، ولا يقدر على قبول النصح ، ولا يسلم من الإضرار بالناس ومن اغتياهم ، وبالجملة فما من خلق ذميمة إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ به عزه . وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه . فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه . وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم ، وقبول الحق ، والانقياد له . وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والتكبرين .

ومنشؤه استحقار الغير وازدراؤه واستصغاره — ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآيتين بقوله : « الكبر بظن الحق وغمط الخلق » أى ازدراؤهم واستحقارهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه . وهذه الآفة الأولى ، وبظن الحق هو رده وهى الآفة الثانية ، فيكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراء ونظر إليه بعين الاستصغار أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر ونازع الله حقه .

ووجه الآفة الأولى أن الكبر والعز والعظمة لا يليق إلا بالملك القادر فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذى لا يقدر على شىء فمن أين يليق بحاله الكبر واستعظام النفس واستحقار الغير ، فهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى فى صفة لا تليق إلا بجلاله ، ومثاله أن يأخذ الغلام تاج الملك فيضعه على رأسه ويجلس على سريره فما أعظم استحقاقه للمقت ، وما أعظم تهديفه للخزى

والذكال ، وما أشد استجراؤه على مولاه ، وما أقبح ما تعاطاه ، فاخلق كلهم عباد الله ، وله العظمة والكبرياء عليهم ، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه .

ووجه الآفة الثانية : أن من سمع الحق من عبد من عباد الله واستنكف عن قبوله وتشمر لجحده ، فما ذاك إلا للترفع والتعظيم واستحقار غيره حتى يأبى أن ينقاد له ، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين ، إذ وصفهم الله تعالى فقال : ( وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ) فكل من يتضح له الحق على لسان أحد ويأنف من قبوله أو يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به ، فقد شاركهم في هذا الخلق ، وكذلك من تحمله الأنفة على عدم قبول الوعظ ، كما قال تعالى : ( وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ) .

### بيان ما به التكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه ، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال ، وجماع ذلك إلى كمال ديني أو دنيوي ، فالديني هو العلم والعمل ، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار ؛ فهذه سبعة أسباب :

( الأول العلم ) وما أسرع الكبر إلى بعض العلماء ، فلا يلبث أن يستشعر في نفسه كمال العلم فيستعظم نفسه ويستحققر الناس ، ويستجهرهم ، ويستخدم من خالطه منهم ، وقد يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم ، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ، وسبب كبره بالعلم أمران :

( أحدهما ) أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً ، وليس علماً في الحقيقة ، فإن العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه ، وخطر أمره في لقاء الله

والحجاب منه ، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر ، قال تعالى : ( إنما يخشى الله من عباده العلماء ) .

( ثانيهما ) أن يخوض في العلم وهو خبيث الدخيلة ردىء النفس سيء الأخلاق ، فإنه لم يشتغل أولاً بتهديب نفسه وتركية قلبه بأنواع المجاهدات ، فبقى خبيث الجوهر ، فإذا خاص في العلم صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً ، فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره . وقد ضرب وهب لهذا مثلاً ، فقال : العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة . فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها فيزيد المتكبر كبيراً والمتواضع تواضعاً ، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل ، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبيراً ، وإذا كان الرجل خائفاً مع علمه فازداد علماً علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً .

( الثاني العمل والعبادة ) وليس يخلو عن رذيلة الكبر ، واستمالة قلوب الناس كحال العباد فترشح منهم الكبر في الدين والدنيا ، أما في الدنيا فهو أنهم يتوقعون ذكركم بالورع والتقوى ، وتقويمهم على سائر الناس ، وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق . وأما في الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجياً وهو الهالك تحقيقاً مهما رأى ذلك ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم » وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدرج بخلق الله ، مغتر بالله آمن من مكره غير خائف من سطوته ، وكيف لا يخاف ويكفيه شراً احتقاره لغيره وقال صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء شراً أن يحقر أخاه المسلم » وكثير من العباد إذا استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ولا يشك في أنه صار ممقوتاً عند الله ، وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب والاعتزاز بالله ، وقد ينتهي الحق



والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدى ويقول سترون ما يجرى عليه ، وإذا أصيب  
بنكبة زعم أن ذلك من كراماته ، وأن الله ما أراد إلا الانتقام له مع أنه يرى  
طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله ، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله  
عليهم ، فمنهم من قتلهم ، ومنهم من ضربهم ، ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم  
في الدنيا ، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة ، أفيظن  
هذا الجاهل المغرور أنه أكرم على الله من أنبيائه ، وأنه قد انتقم له بما لم ينتقم  
لأنبيائه به ، ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل هلاك نفسه ؛ فهذه  
عقيدة المغترين . وأما الأكياس من العباد فيقول ما كان يقوله الساف بعد  
انصرافه من عرفات « كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم » فانظر إلى  
الفرق بين الرجلين ، هذا يتقى الله ظاهراً وباطناً وهو وجل على نفسه مزدر  
لعمله ، وذاك يضم من الرياء والكبر والغل ما هو ضحكة للشيطان به ، ثم إنه  
يمتن على الله بعمله ، ومن آثار الكبر في العابد أن يعبس وجهه كأنه متنزه عن  
الناس مستقدر لهم ، وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ،  
ولا في الرقبة حتى تطأطأ ، ولا في الذيل حتى يضم ، إنما الورع في القلوب ، قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التقوى ههنا » وأشار إلى صدره ، فقد كان  
صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق وأتقاهم ، وكان أوسعهم خلقاً وأكثرهم بشراً  
وتبسمًا وبساطًا كما قال تعالى : ( واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ) .

( الثالث ) الكبر بالحسب والنسب : فالذي له نسب شريف يستحقر من  
ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً ، وقد يتكبر بعضهم فيأنف  
من مخالطة الناس ومجالستهم ، وقد يجرى على لسانه التفاخر به فيقول لغيره من  
أنت ومن أبوك؟ فأنا فلان ابن فلان ، ومع مثلى تتكلم ، وقد روى أن أبا ذر  
رضي الله عنه قال : قاوت رجلاً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت له :  
يا ابن السوداء ، فغضب صلى الله عليه وسلم وقال : « يا أبا ذر ليس لابن البيضاء

على ابن السوداء فضل « فقال أبو ذر فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدى، فانظر كيف نبهه صلى الله عليه وسلم على أن ذلك جهل ، وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر إذ عرف أن العز لا يجمع إلا الذل .

( الرابع ) التفاخر بالجمال : وذلك أكثر ما يجرى بين النساء ويدعو ذلك إلى

التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس .

( الخامس ) الكبر بالمال : وذلك يجرى بين الأمراء والتجار في لباسهم

وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغنى الفقير ويتكبر عليه ، وعلى كل جهل بفضيلة الفقر وآفة الغنى .

( السادس ) الكبر بالقوة وشدة البطش والكبر به على أهل الضعف .

( السابع ) التكبر بالأتباع والأنصار والعشيرة والأقارب — فهذه مجامع

ما يتكبر به بعضهم على بعض — نسأله تعالى العون بلطفه ورحمة .

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه

أثر التواضع والتكبر

اعلم أن الكبر يظهر في شمائل الرجل كصعر في وجهه ونظيره شزراً وإطراقه

رأسه وجلوسه متربعاً أو متكئاً ، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في

الإيراد ، ويظهر في مشيته وتبخره وقيامه وجلوسه وحر كاته وسكناته ، فمن المتكبرين

من يجمع ذلك كله — ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض . فمنها التكبر

بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه — ومنها أن لا يمشى إلا ومعه غيره يمشى

خلفه — ومنها أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو

ضد التواضع ، ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين

يديه والتواضع خلافه — ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلا في بيته والتواضع خلافه . روى

أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ فقال الضيف

أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه. قال أفأنبه الغلام؟ فقال هي أول نومة نامها، فقام وملاً الصباح زيتاً، فقال للضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء، وخير الناس من كان عند الله متواضعاً. ومنها أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته وهو خلاف عادة المتواضعين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك، وقال علي: لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله — ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وعلامة المتكبر فيه حرصه على التزين للناس للشهرة والمخيلة — وأما طلب التجميل لذاته في غير سرف ولا مخيلة فليس من الكبر، والمحبوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة، وقد قال صلى الله عليه وسلم «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». ومنها أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذى وأخذ حقه، فذلك هو الأصل. وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيبغى أن يقتدى به، ومنه ينبغى أن يتعلم، وقد قال ابن أبي سامة قات لأبي سعيد الخدري ما ترى فيما أحدث الناس من الملابس والمشرب والمركب والمطعم فقال: يا ابن أخي كل لله، واشرب لله، والبس لله، وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف، وعالج في بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته كان يحلب الشاة ويخفف النعل ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويشترى الشيء من السوق، ولا يمنع الحياء أن يعلقه بيده، ويصافح الغني والفقير، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير، يجبب إذا دعى، ولا يحقر مادعى إليه، لين الخلق، جميل العاشرة. طليق الوجه، شديد في غير عنف؛ متواضع في غير مذلة، جواد من غير سرف؛ رقيق القلب — زادت عائشة رضي الله عنها، وأنه صلى الله عليه وسلم لم

یمتلیء قط شبعاً ، ولم یدث إلى أحد شکوی وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى ، فمن طلب التواضع فایقتد به صلی الله علیه وسلم ، ومن لم یرض لنفسه بذلك فما أشد جهله ، فلقد كان أعظم خلق الله منصباً فی الدنيا والدين ، فلا عز ولا رفعة إلا فی الاقتداء به .

### بیان الطریق فی معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلم أن الكبر من المهلكات ، وإزالته فرض عین ، ولا یزول بمجرد التمنی بل بالمعالجة ، وفي معالجته مقامان ( أحدهما ) قلع شجرته من مفرسها فی القلب . ( الثاني ) دفع العارض منه بالأسباب التي قد یتكبر فیها .

### المقام الأول فی استئصال أصله

علاجه علمی وعملی ، ولا یتیم الشفاء إلا بمجموعهما (أما العلمی) فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى ، ويكفيه ذلك فی إزالة الكبر فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه لا یلیق به إلا التواضع ، وإذا عرف ربه علم أنه لا تلیق العظمة والكبرياء إلا بالله ، أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول . وأما معرفته نفسه فهو أيضاً يطول ولكننا نذكر من ذلك ما ینفع فی إثارة التواضع ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة فی كتاب الله ؛ فإن فی القرآن علم الأولین والآخین لمن فتحت بصيرته قال الله تعالى : ( قتل الإنسان ما أکفره ، ومن أى شیء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبیل یسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ) فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه ، فلینظر الإنسان ذلك لیفهم معنى هذه الآية . أما أول الإنسان فهو أنه لم یکن شيئاً مذکوراً وقد كان فی حین العدم دهوراً ، وأى شیء أخس من العدم ، ثم خلقه الله من أقدر الأشياء ، إذ خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم جعل عظاماً ثم كسا العظم لحماً . فهذه بداية وجوده فما صار شيئاً مذکوراً إلا وهم

على أحسن الأوصاف والنعوت إذ لم يخلق في ابتدائه كاملاً ، بل خلقه جماداً ميتاً لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطنش ولا يدرك ولا يعلم ، فبدأ بموته قبل حياته ، وبضعفه قبل قوته ، وبجهله قبل علمه ، وبعماه قبل بصره ، وبصممه قبل سماعه ، وببكمه قبل نطقه ، وبضلاله قبل هدايه ، وبفقره قبل غناه ، وبعجزه قبل قدرته . فهذا معنى قوله تعالى : ( من أى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ) ثم امتن عليه فقال : ( ثم السبيل يسره ) وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت ، وإنما خلقه من التراب الدليل الذى يوطأ بالإقدام والنطفة القدرة بعد عدمها ليعرف خسة ذاته فيعرف بها نفسه ، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله ، وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا ، فمن كان هذا بدئه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أضعف؟! ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمع بأنفه وتعظم ، وذلك لدلالة خسة أوله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . نعم لو أكمله وفوض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى اللبأ والمنتحى ، ولكنه سلط عليه في دوام وجوده الأمراض والآفات يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى فيجوع كرهاً ويعطش كرهاً ويمرض كرهاً ويموت كرهاً لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ولا خيراً ولا شراً ، يريد أن يعلم الشيء فيجهله ، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ، ويريد أن ينسى الشيء ويفعل عنه ، ولا يفعل عنه ولا يأمن في لحظة من أيله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفاج أعضاؤه ويختلس عقاه ويختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه ، فهو مضطر ذليل ، إن ترك بقى وإن اختطف فنى ، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه إلا شيء من غيره ، فأى شيء أذل منه لو عرف نفسه وأنى يليق الكبر به لولا أنه ، فهذا وسط أحواله فإيتأمله . وإما آخره فهو الموت المشار إليه بقوله : ( ثم أماته فأقبره ثم إن شاء أنشره ) ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه

وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته فيعود جماداً كما كان أول مرة لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة ، ثم يوضع في التراب جيفة مندنة قدرة ، ثم تبلى أعضاؤه ، وتفتت أجزاءه ، وتنخر عظامه ، ويأكل الدود أجزاءه فيصير روثاً في أجواف الديدان ، ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ، ويستقدره كل إنسان ، ويهرب منه لشدة الإنتان ، وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك لا بل يحيمه بعد طول البلى ليقاسى شديد البلاء ، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ، ويخرج إلى أهوال القيامة ، فينظر إلى قيامة قائمة ، وسما مشتمة ممزقة ، وأرض مبدلة ، وجبال مسيرة ، ونجوم منكدره ، وشمس منكسفة ، وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد ، وجهنم تزفر ، وجنة ينظر إليها المجرم فيتنحسر ، ويرى صحائف منشورة فيقال له : اقرأ كتابك ، فيتقول : وما هو ؟ فيقال : كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تتكبر بنعيمها ، وتفتخر بأسبابها : ملكان رقيبان يكتبان عليك ما تنطق به أو تعمله من قليل أو كثير وصغير وكبير ، وقد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك ، فهلم إلى الحساب ، واستعد للجواب ، أو تساق إلى دار العذاب فينقطع قلبه فزعاً من هول هذا الخطاب قبل أن تنشر الصحيفة ، ويشاهد ما فيها من مخازيه ، فإذا شاهده قال : (يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) فهذا آخر أمره ، وهو معنى قوله تعالى (ثم إذا شاء أنشره) فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظيم ؟ بل ما له وللفرح فضاها عن البطر؟! فقد ظهر له أول حاله ووسطه ، ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربنا اختار أن يصير مع البهائم تراباً ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً أو يلقي عذاباً فمن هذا حاله في العاقبة إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو فكيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر — حقاً يكفيه ذلك حزناً وخوفاً وإشفاقاً ومهاً وذلاً — فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر .

(وأما العلاج العملي) فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين كما وصفناه من شمائل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أحوال الصالحين ، ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل — ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان والصلاة جميعاً ، وقيل الصلاة عماد الدين ، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً ، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمشول قائماً ، وبالركوع وبالسجود . وقد كان العرب قديماً يأنفون من الانحناء فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه ، وينقطع شرك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه ، فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعفة أمروا به لتتكسر بذلك خيالاتهم ويذول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم ، وبه أمر سائر الخلق .

المقام الثاني فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المتقدمة

ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل ، فأما ما عداه مما يفنى بالوت فكمال وهمي ، ونحن نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع أسبابه السبعة (الأول النسب) فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره ومن كان خسيساً فمن أين تجبر خسته بكمال غيره وبمعرفة نسبه الحقيقي أعنى أباه وجداه فإن أباه القريب نطفة قدره وجداه البعيد تراب ، وقد عرف الله تعالى نسبه فقال : ( وبدأ خالق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ) فإذا كان أصله من التراب وفصله من النطفة فمن أين تأتيه الرفعة ، فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان ، ومن عرفه لا يتكبر بالنسب .

(الثاني الكبر بالجمال) ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ، ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم ، ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه عززه بالجمال إذ خلق من أقدار ووكل به في جميع أجزائه الأقدار ، وسيموت بصير جيفة أقدر من سائر الأقدار ، وجماله لا بقاء له بل هو في كل حين يتصور

أن يزول بمرض أو سبب من الأسباب ، فكم من وجوه جميلة قد سمحت بهذه الأسباب ، فمعرفة ذلك تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها .  
(الثالث الكبر بالقوة) ويمنعه من ذلك أن يعلم ماساط عليه من العلل والأمراض وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز ، أو أن شوكة لودخلت في رجله لأعجزته وأن حتى يوم تحلل من قوته ما لا ينجبر في مدة ، فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة فلا ينبغي لأحد أن يفتخر بقوته ، ثم إن قوى الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل ، وأي افتخار في صفة يسبقك بها البهائم ؟!

(السبب الرابع والخامس) الغنى وكثرة المال وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار والتكبر بالمناصب والولايات ، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان ، وهذا أقبح أنواع الكبر ، فلو ذهب ماله أو احترقت داره لعاد ذليلاً ، وكم في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل ، فأف لشرف يسبقه به يهودى أو يأخذه سارق في لحظة فيعود ذليلاً مفلساً .

(السادس الكبر بالعلم) وهو أعظم الآفات وعلاجه بأمرين (أحدهما) أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشره من العالم ، فإن عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنابته أفحش وخطره أعظم (ثانيهما) أن يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده ، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً ، فهذا مما يزيل التكبر ويبعث على التواضع وإذا دعت نفسه للتكبر على فاسق أو مبتدع فليتذكر ما سبق من ذنوبه وخطايا لتصغر نفسه في عينه وليلاحظ إبهام عاقبته وعاقبة الآخر فلعله يحتم له بالسوء ولذلك بالحسنى حتى يشغله الخوف عن التكبر عليه ولا يمنعه ترك التكبر عليه أن يكرهه ويفضبه لنفسه بل يبغضه ويفضبه لربه إذ أمره أن يغضب عليه من غير تكبر عليه (السابع) التكبر بالروع والعبادة وذلك فتنة عظيمة على العباد وسبيله أن



يلزم قلبه التواضع لسائر العباد ، قال وهب بن منبه : ما تم عقل عبد حتى يكون فيه خصال وعد منها خصلة التواضع ، قال : بها ساد مجده وبها علا ذكره أن يرى الناس كلهم خير منه ، وإنما الناس عنده فرقتان ، فرقة هي أفضل منه وأرفع وفرقة هي شر منه وأدنى ، فهو يتواضع للفرقتين جميعاً بقلبه ، وإن رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به وإن رأى من هو شر منه قال : لعل هذا ينجو وأهلك أنا ، فلا تراه خائفاً من العاقبة ، ويقول : لعل بر هذا باطن فذلك خير له ولا أدري لعل فيه خلقاً كريماً بينه وبين الله ، فيرحمه الله ويتوب عليه ، ويحتم له بأحسن الأعمال ويرى ظاهر عمله فيقول ذلك شر لي فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطها ، قال : فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه .

والذي يدل على فضيلة هذا الإشفاق قوله تعالى : ( يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ) أي أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها ، وقال تعالى : ( إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ) وقال تعالى : ( إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ) وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقديسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات بالدءوب على الإشفاق فقال تعالى مخبراً عنهم : ( يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وهم من خشيته مشفقون ) فمتى زال الإشفاق والحذر ، غلب الأمن من مكر الله ، وذلك يوجب الكبر وهو الهلاك ، فالكبر دليل الأمن ، والأمن مهلك ، والتواضع دليل الخوف وهو مسعد .

فاذاً ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق ، أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال ، فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضرر التواضع ، وتدعى البراءة من الكبر وهي كاذبة فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبيعتها ، فمن هذا لا ينبغي أن يكتفى في المداواة بمجرد المعرفة ،

بل ينبغي أن تكمل بالعمل ، وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس .

وبيانه أن يمتحن النفس بالامتحانات الدالة على استخراج ما في الباطن ، والامتحانات كثيرة ، فمنها وهو أولها : أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه ، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانتقاد له والشكر له على تنبيهه ، فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً ، فليتق الله فيه ويستغل بعلاجه ، أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه حسة نفسه وخطر عاقبته ، وأن الكبر لا يابق إلا بالله تعالى ، وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطاق اللسان بالحمد والثناء ، ويقر على نفسه بالعجز ، ويشكره على الاستفادة ويقول ما أحسن ما فطنت له ، وقد كنت غافلاً عنه فجزاك الله خيراً كما نهتني له ، فالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها ، فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار تلك له طبعاً ، وسقط ثقل الحق عن قلبه ، وطاب له قبوله ومهما ثقل عيه الثناء على أقرانه بما فيهم فقيه كبر .

( الامتحان الثاني ) أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ، ويقدمهم على نفسه ، ويمشي خلفهم ، ويجلس في الصدور تحتهم . فإن ثقل ذلك عليه فهو متكبر ، فايواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله ، فبذلك يزيله الكبر .

وهيئنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس في صف النعال أو يجلس بينه وبين الأقران بعض الأراذل فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر فإن ذلك يخفف على نفوس التكبرين ، إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضيل فيكون قد تكبر بإظهار التواضع أيضاً ، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بجانبهم ، ولا ينحط عنهم إلى صف النعال ، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن .

( الامتحان الثالث ) أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر ، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل ، فنفور النفس عنها ليس إلا نخبث في الباطن ، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر .

( الامتحان الرابع ) أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء . وكل ذلك من أمراض القلوب وعلاها المهلكة له إن لم تتدارك ، وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة ، والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها . إذ قال تعالى ( إلا من أتى الله بقلب سليم ) .

### بيان غاية الرياضة في خلق التواضع

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط ، فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبراً ، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة ، والوسط يسمى تواضعاً ، والحمود أن يتواضع في غير مذلة وتخاسس ، فإن كلا طرفي قصد الأمور ذميم ، وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها ، فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع ، أي وضع شيئاً من قدره الذي يستحقه . والعالم إذا دخل عليه دنيء فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوى له نعله ، وغداً إلى باب الدار خلفه ، فقد تخاسس وتذلل ، وهو أيضاً غير محمود ، بل الحمود عند الله العدل وهو أن يعطى كل ذي حق حقه . فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته ، فأما تواضعه في السوق فيالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعي

في حاجته وأمثال ذلك ، وأن لا يرى نفسه خيراً منه فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره .

### بيان ذم العجب وآفاته

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : ( ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيركم فلم تغن عنكم شيئاً ) ذكر ذلك في معرض الإنكار ، وقال عز وجل : ( وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ) فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم ، وقال تعالى : ( وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ) وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل ، وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطيء فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » وقال ابن مسعود : الهلاك في اثنتين : القنوط والعجب ، وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعى والطلب والجد والتشمير ، والقانط لا يسعى ولا يطالب ، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وظفر بمراده فلا يسعى ، وقد قال الله تعالى : ( فلا تزكوا أنفسكم ) أي لا تعتقدوا أنها بارة ، وقال تعالى : ( لا تبطلوا صدقاتكم بالبن والأذى ) والبن نتيجة استعظام الصدقة ، واستعظام العمل هو العجب .

### بيان آفة العجب

اعلم أن آفات العجب كثيرة ، فإن العجب يدعو إلى الكبر ، لأنه أحد أسبابه فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تحصى هذا مع العباد . وأما مع الله تعالى ؛ فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها لظنه أنه مستغنى عن تفقدها وما يتذكره منها فيستصغر فلا يجتهد في إزالتها ، بل يظن أنه يغفر له . وأما العبادات والأعمال فإن استعظامها ويمن على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكن منها

ثم إذا أعجب بها عى عن آفاتهما ، وذلك أن المعجب يفتقر بنفسه وبرأيه ويأمن  
مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان ، وأن له عند الله منة وحقاً بأعماله  
التي هي نعمة من نعمه ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها ،  
وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال ،  
فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه ، وربما يعجب  
بالرأى الخطأ الذى خطر له ، فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يفرح بخواطر  
غيره فيصر عليه ، ولا يسمع نصيح ناصح ولا وعظ واعظ ، بل ينظر إلى غيره  
بعين الاستهجان ويصر على خطاياها .

فهذا وأمثاله من آفات العجب ، فذلك كان من المهلكات ، ومن أعظم  
آفاته أن يفتقر فى السعى لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح .  
نسأل الله العظيم حسن التوفيق لطاعته .

### بيان علاج العجب على الجملة

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده ، وعلة العجب الجهل المحض ،  
فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل ، وذلك أن المعجب بجمله أو قوته أو نسبه  
ومالا يدخل تحت اختياره إنما يعجب بما ليس له ، لأن كل ذلك من  
فضل الله ، وإنما هو محل لفيضان جوده تعالى ، فله الشكر والمنة إذ أفاض  
على عبده مالا يستحق ، وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة ، فإذا منشأ  
العجب بذلك هو الجهل ، وإزالة ذلك بالعلم المحقق بأن العبد وعمله وأوصافه  
كلها من عند الله تعالى نعمة ابتداء بها قبل الاستحقاق . وهذا ينفي العجب  
والإدلال ، ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة . قال الله  
تعالى : ( ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً ) ، قال  
النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس : « ما منكم من أحد ينجيهِ  
الله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله

برحمته « ومهما غلب الخوف على القلب شغله خشية سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها ، وأنى لدى بصيرة أن يعجب بعمله ولا يخاف على نفسه ؟ فإذا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب .

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

اعلم أن مجموع ما به العجب ثمانية أقسام : ( الأول ) أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحته وقوته وحسن صوته ، وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو عرضة للزوال في كل حال ، وعلاجه التفكير في أقدار باطنه في أول أمره وفي آخره ، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة كيف تمزقت في التراب وأنقنت في القبور حتى استقدرتها الطباع .

( الثاني ) البطش والقوة كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم ( من أشد منا قوة ) وعلاجه أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته ، وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليها .

( الثالث ) العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا ، وثمرته الاستبداد بالرأى ، وترك المشورة ، واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضاً عنهم بالاستغناء بالرأى والعقل ، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ، ولم يقم بشكره ويستقصر علمه وعقله ، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً وإن اتسع علمه ، وإن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى ، وأن يتهم عقله وينظر إلى الحقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم ، فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري ، فإن القاصد العقل لا يعلم قصور عقله ، فينبغى أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من

نفسه ومن أعدائه لا من أصدقائه فإن من بداهته يثنى عليه فيزيده عجباً وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد به عجباً .

( الرابع ) العجب بالنسب الشريف حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له ، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل ، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف ومذمة النفس . ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والحصل الحميدة لا بالنسب فليشرف بما شرفوا به — ولذلك قال تعالى : ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ) أى لا تفاوت في أنسابكم لا اجتماعكم في أصل واحد . ثم ذكر فائدة النسب فقال : ( وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ) ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال : ( إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله أذهب عنكم حمية الجاهلية » أى كبرها « كلكم بنو آدم و آدم من تراب » ولما نزل قوله تعالى : ( وأندر عشيرتك الأقربين ) ناداهم بطناً بعد بطن حتى قال « يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب عمه رسول الله اعملا لأنفسكما فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئاً » فبين أنهم إذا مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش . فمن عرف هذه الأمور علم أن شرفه بقدر تقواه ، وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم في التقوى والتواضع وإلا كان طاعناً في نسب نفسه بلسان حاله مهما اتعنى إليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق .

( الخامس ) العجب بنسب الأمراء وأعوانهم دون نسب العلم والدين وهذا غاية الجهل ، وعلاجه أن يتفكر في منكراتهم وما جروا على الناس من المحظورات فيشكر الله أن عصمه من تبعاتهم .

( السادس ) العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والعشيرة والأقارب كما قال الكفار « نحن أكثر أموالاً وأولاداً » وكما قال المؤمنون يوم حنين : لا يقلب اليوم من قلة . وعلاجه ما ذكرناه في الكبر ، وهو أن يتفكر في ضعفه

وضعفهم وأن كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ثم كيف يعجب وهم سيفارقونه إذا مات ودفن وحده ذليلاً مهاناً ، ويسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب ولا يغنون عنه شيئاً ، ويهربون منه يوم القيامة ( يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ) فكيف يعجب بمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك ، وكيف تتكل على من لا ينفعك وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك .

( السابع ) العجب بالمال : كما أخبر تعالى عن ذلك الكافر إذ قال : ( أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً ) وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه ، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال ، وينظر إلى فضيلة الفقراء وخفة حسابهم ، وكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بماله ولا يخلو من تقصير في القيام بحقوق المال من أخذه من حله ووضع في حقه ، وأن مآل المتهور في الجمع والمنع إلى الخزي والبوار .

( الثامن ) العجب بالرأى الخطأ . قال تعالى : ( أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ) وقال تعالى : ( وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ) وقد أخبر رسول الله صلوات الله عليه أن بذلك هلكت الأمم السالفة ، إذ افتقرت فرقا وكل معجب برأيه ، وكل حزب بما لديهم فرحون . وعلاجه أن يتهم رأيه أبداً فلا يفتر به إلا أن يشهد له شاهد قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة وإن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكان الغلط فيها إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجد وتشمير في الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب بل يشتغل بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات والشفقة على المسامين . نسأله تعالى العصم من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال .



## كتاب ذم الغرور

إن مفتاح السعادة التيقظ والفتنة ، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة ، والمغرور هو الذي لم تتفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلاً ، وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائداً والشيطان دليلاً . ولما كان الغرور أبو الشقاوات ، ومنبع المهلكات لزم شرح مداخله ومجاريه ، وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره المرید بعد معرفته فينتقيه . فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فأخذ منها حذره ، وبني على الحزم والبصيرة أمره .

### بيان ذم الغرور وحقيقته

اعلم أن قوله تعالى : ( فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ) وقوله تعالى : ( ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني ) كاف في ذم الغرور . وقال صلى الله عليه وسلم : « السكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخذعة من الشيطان . فمن اعتقد أنه على خبر إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور ، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه ، فأكثر الناس إذاً مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم .

وأشد الغرور غرور الكفار ، وغرور العصاة والفساق . فأما غرور الكفار (١) أشير إليه في قوله تعالى : ( أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف لهم العذاب ولا هم ينصرون ) وعلاج هذا الغرور — إما التصديق بالإيمان —

(١) يدخل في الكفار الدهرية الطبيعية — فهذا البحث والاحتجاج ينفعان في إقامتهم ، فليكن على بال منك فإن مهم جداً مختصره .

وإما بالبرهان — أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله :  
 ( ما عندكم ينفد وما عند الله باق ) وفي قوله عز وجل : ( وما عند الله خير ) وقوله :  
 ( والآخرة خير وأبقى ) وقوله ( فلا تغرنكم الحياة الدنيا ) وقد أخبر رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار فصدقوه وآمنوا به ، ولم يطالبوه  
 بالبرهان ومنهم من قال : نشدتك الله أبعثك الله رسولا ، فكان يقول نعم فيصدق  
 لهذا إيمان العامة ، وهو يخرج من الغرور .

وأما المعرفة بالبيان والبرهان ، فإن تعرف فساد ما وسوس به الشيطان من الغرور  
 بالتبصر في دعوى الأنبياء والعلماء وتصديقهم فإنه أيضاً يزيل الغرور وهو مدرك  
 يقين العوام وأكثر الخواص ، ومثلهم مريض لا يعرف دواء علمته ، وقد اتفق  
 الأطباء وأهل الصناعة عن آخرهم على أن دواءه النبات الفلاني ، فإنه تطمئن نفس  
 المريض إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية بل يثق بقولهم  
 ويعمل به ، ولو بقي معتوه يكذبهم في ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم  
 أكثر منه عدداً وأغزر منه فضلاً وأعلم منه بالطب بل لا علم له بالطب فيعلم كذبه  
 بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله ، ولا يغتر في علمه بسببه ، ولو اعتمد قوله وترك قول  
 الأطباء كان معتوهاً مغروراً — فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة والمخبرين عنهم  
 والقائلين بأن التقوى هي الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها ، وجدهم خير خلق الله  
 وأعلامهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل وهم الأنبياء والحكماء والعلماء واتباعهم عليهم  
 الخلق على أصنافهم ، وشذ منهم آحاد من غلبت عليهم الشهوة ، ومالت نفوسهم  
 إلى التمتع فعظم عليهم ترك الشهوات ، وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار  
 فجدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء ، فكما أن قول الصبي والمعتوه لا يزيل طمأنينة  
 القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء — فكذلك قول هذا النبي الذي استرقته الشهوات  
 لا يشك في صحة أقوال الأنبياء والعلماء — وهذا القدر من الإيمان كاف للجم  
 الخلق ، وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة والغرور يزول به .

وأما غرور العصاة من المسلمين فبقولهم : إن الله كريم وإنا نرجو عفوهُ ،  
واتكالمهم على ذلك وإهمالمهم الأعمال ، وتحسين ذلك بتسمية تمنيتهم واغترارهم  
برجاء ، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين ، وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة  
وكرمه عميم ، وأين معاصي العباد في بحار كرمه ، وإنا موحدون ! فترجوه بوسيلة  
الإيمان ، وربما كان مستدرجاتهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبهم كأغترار  
العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع وظنهم أنهم  
أكرم على الله من آبائهم ، إذ آبائهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين وهم مع  
غاية الفسق والفجور آمنون — وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى . أينسى المغرور  
أن نوحاً عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة فلم يرد الله فسكان  
من المفرقين ( قال رب إن ابني من أهلي ) فقال تعالى ( يا نوح إنه ليس من أهلك  
إنه عمل غير صالح ) وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه ، ودين ظن  
أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ، ويروى بشرب أبيه .  
وبصير عالماً بعلم أبيه ، ويصل الكعبة ويرأها بمشي أبيه . فالتقوى فرض عين  
فلا يجزى فيه والد عن ولده شيئاً ؛ وكذا العكس .

بيان الغاظ في تسمية التمني والغرور رجاء

( فإن قات ) فأين الغاظ في قول العصاة والفجار إن الله كريم وإنا نرجو رحمته  
ومغفرته ؛ وقد قال « أنا عند ظن عبدى بى » ( فالجواب ) أن النبي صلى الله عليه  
وسلم كشف عن ذلك فقال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق  
من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » وهذا هو التمني على الله تعالى غير  
الشیطان اسمه فسماه رجاء حتى خدع به الجهال ؛ وقد شرح الله الرجاء فقال :  
( إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله )  
يعنى أن الرجاء بهم أليق . وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على

( ٨ - موعظة المؤمنين ٢ )

الأعمال قال الله تعالى ( جزاء بما كانوا يعملون ) وقال تعالى ( وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ) أفترى أن من استوَجِرَ على إصلاح أوان وشرط له أجرٌ عليها وكان الشارط كريماً يفي بالوعد مهما وعد ولا يخلف بل يزيد ، فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجر ، ويزعم أن المستاجر كريم أفيراه العقلاء في انتظاره متمنياً مغروراً أو راجياً؟! وهذا الفرق بين الرجاء والقول قيل للحسن : قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل ، فقال : هيهات هيهات تلك أمانتهم يترجحون فيها . من رجا شيئاً طابه ومن خاف شيئاً هرب منه .

وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً ، وهو بعد لم ينكح ، فهو معتوه . فكذلك من رجا رحمة الله ولم يعمل صالحاً ولم يترك المعاصي فهو مغرور . فكما أنه إذا نكح حتى متردداً في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس — فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات ، وبقى متردداً بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل منه ، ويرجو أن يثبتته حتى يموت على التوحيد ، ويحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمر حتى لا يتميل إلى المعاصي فهو كيس ، ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله ( وسوف يعنون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً ) .

### موضع الرجاء المحمود

فإن قلت : فأين موضع الرجاء المحمود ؟ فاعلم أنه محمود في موضعين :

( أحدهما ) في حق العاصي المنهك إذا خطرت له التوبة فتعال له الشيطان وأنى نقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى ، فيجب عند هذا أن يجمع القنول بالرجاء ، ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعاً ، وأن الله كريم يقبل التوبة عباده ، وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب . قال تعالى : ( وإني لغفار لمن تاب وآم وعمل صالحاً ثم اهتدى ) فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج ، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور .

( الثاني ) أن تفتقر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجى نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين ، حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ، ويتذكر قوله تعالى : ( قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ) الآيات .

فالرجاء الأول يجمع القنوط المانع من التوبة ؛ والرجاء الثاني يجمع الفتور المانع من النشاط والتشمير ؛ فكل توقع حث على توبة أو على تشمير في العبادة فهو رجاء ؛ وكل رجاء أوجب فتوراً في العبادة وركوناً إلى البطالة فهو غرة — كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل ففتره الشيطان عن التوبة والعبادة وقال له لك رب كريم — فهذا غرة ، وعند هذا يجب أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ، ويقول إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب ، وإنه مع أنه كريم خلد الكفار في النار أبد الآباد : وقد خوفني عقابه ، فكيف لا أخافه وكيف أغتر به .

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل ، فما لا يبعث على العمل فهو تمن وغرور ؛ ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا ، وسبب إعراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعي للآخرة . فذلك غرور ؛ وقد كان السلف يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ، ويبكون على أنفسهم في الخلوات ؛ وأما الآن فتري الخلق آمنين مسرورين غير خائفين مع إكبابهم على المعاصي ، وانهماكهم في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى . زاعمين أنهم واثقون بكرم الله وعفوه كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون ، فإن كان هذا الأمر يدرك بالمتى وينال بالهوين ، فعلام كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم ، وقد قال تعالى : ( ولمن خاف مقام ربه جنتان . . . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ) والقرآن

من أوله إلى آخره تحذير وتخويف لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه .

بيان بعض أصناف المغترين

فمنهم فرقة أحكوا العلوم الشرعية والعقلية ، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي واغترتوا بعلمهم ، وظنوا أنهم عند الله بمكان لا يعذب مثلهم ، ولو نظروا بعين البصيرة لعلموا أن العلم إنما يراد لمعرفة الحلال والحرام ، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها — فهي علوم لا تراد إلا للعمل ، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل ، وقد ورد فيمن لا يعمل بعلمه ما فيه أشد الترهيب كقوله تعالى : ( مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ) ، فأى خزي أعظم من التمثيل بالحمار !

وفرقة أخرى أحكوا العلم والعمل ، فواظبوا على الطاعات الظاهرة ، وتركوا المعاصي ، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات الذميمة من الكبر والحسد والرياء ، وطلب العلم وإرادة السوء للأقران والنظر في طلب الشهرة في البلاد والعباد — فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ، ونسوا قول صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » فتعهدوا الأعمال ، وما تعهدوا القلوب ، والقلب الأصل ، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، ومثال هؤلاء قبور المظاهر مزينة وباطنها جيفة .

وفرقة اقتصروا على علم الفصل في الحكومات والخصومات وتفادوا المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد ، وخصصوا اسم الفقه بها ، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة ، فلم يتفقدوا الجوارح كاللذات

عن الغيبة ، ولا البطن عن الحرام ، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات هؤلاء مغرورون من وجهين من حيث العمل ومن حيث العلم ، أما من حيث العمل فقد قدمنا أولاً وجه الغرور فيه ومثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء ، واشتغل بتكرارها وتعليمها للمرضى ، ولم يشتغل بشربها واستعمالها أفترى أن ذلك يعنى عنه من مرضه شيئاً ؟ هيئات هيئات ، فلا بد من شربه وصبر على مرارته ، على أنه بعد على خطر من شفاؤه .

وأما غروره من حيث العلم : فحيث اقتصر على علم المعاملات وظن أنه علم الدين وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما طعن في الحديثين وقال : إنهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون ، وترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق ، وترك الفقه عن الله تعالى ، بإدراك جلاله وعظمته ، وهو الذى يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى ، فإن الفقه هو النقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ، ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى إذ قال تعالى : ( فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليها لعلهم يحذرون ) وما الذى يحصل به الإنذار غير هذا العلم ؟

وفرقة اشتغلوا بالوعظ والتذكير والتكلم فى أخلاق النفس والزهد والإخلاص وهم مغرورون ، يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بها وهم منفكون عنها عند الله ، لحرسهم على السمعة وحسد من يتقدمهم من أقرانهم ، وغيتهم على من يثنى على معاصريهم ، وجمعهم لحطام الدنيا فهؤلاء أعظم الناس غرة .

وفرقة منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم فى ذم الدنيا فهم يحفظون الكلمات ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها ولو فى الأسواق مع الجاساء ، وكل من يظن أنه إذا حفظ كلام الزهاد فقد أفصح ونال الغرض وصار مغفوراً له من أن يحفظ باطنه عن الآثام ، وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم .

وفرقه اشتغلوا بعلم النحو واللغة ، والشعر وغريب اللغة ، واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم ، وأنهم من علماء الأمة ، فأفنوا أعمارهم في ذلك وأعرضوا عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها ، كمن ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه ، وهو في غرور ، إذ المتصود من الحروف المعاني ، وإنما الحروف أدوات ، فاللب هو العمل والذي فوقه كالمقشر للعمل ، فالتقانون به مغترون إلا من اتخذ منزلاً فلم يعرج عليه إلا بقدر حاجته فتجاوزته حتى وصل إلى لباب العمل ، فحمل نفسه عليه ، فصنفاها من الشوائب والآفات .

غرور أرباب العبادة وهم فرق عديدة

منهم فرقة تعمثوا حتى خرجوا إلى العدوان والسرف ، كالذي يغلب عليه الوسوسة في الوضوء ، فيبالغ فيه ، ولا يرضى المحكوم بطهارته في الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة ، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة ، إذ توضعاً عمر رضى الله عنه بماء في جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة ، وكان مع هذا يدع أبواباً من الحلال مخافة من الوقوع في الحرام .

ومنهم فرقة غاب عليها الوسوسة في نية الصلاة . فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة — على زعمه — وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه — على زعمهم — يفعلون ذلك في أول الصلاة ، ثم يفتنون في جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ويفترون بذلك ويظنون أنهم على خير عند ربهم .

وفرقه تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والطاء وتصحيح المخارج في جميع صلواته لا يهتمه غيره ذاهلاً عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم إلى أسرارها — وهذا هو أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن



من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عاداتهم في الكلام ، ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان ، وأمر أن يؤديها على وجهها ، فأخذ يؤدي الرسالة ويتأنق في مخارج الحروف ، ويكررها ويعيدها ، مرة بعد أخرى وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ، ومراعاة حرمة المجلس ، فما أحرأه بأن يقام عليه التأديب ويحكم عليه بفقد العقل .

وفرقه اغتروا بقراءة القرآن : فيهدرمونه هذرمة ، وربما يهتمونه في اليوم والليلة مرة ، ولسان أحدهم يجري وقلبه يتردى في أودية الأمانى ، إذ لا يتفكر في معانى القرآن ، لينزجر بزواجره ، ويتعظ بمواعظه ، ويقف عند أوامره ونواهيها ، ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه ، فهو مغرور ، يظن أن المقصود من إنزال القرآن المهمة به مع الغفلة عنه ، ومثاله مثال عبد كتب إليه مولاة كتاباً وأشار عليه بالأوامر والنواهي فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاة إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونعمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة ، ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور ، نعم تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى بل لحفظه ، وحفظه يراد لمعناه ، ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه ، وقد يكون له صوت طيب ، فهو يقرؤه ويلتذ به ، ويفتر باستلذاده ، ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه ، وإنما هي لذته في صوته ، فليتنفد قلبه وليخش ربه .

وفرقه اغتروا بالصوم : وربما صاموا الدهر أو الأيام الشريفة ، وهم فيها لا يحفظون أسنتهم عن الغيبة وخواطهم عن الرياء ، وبواطتهم عن الحرام عند الإفطار وأسنتهم عن الهديان بأنواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن أنه الخير ، فيهمل الفرائض ويطلب النفل ، ثم لا يقوم بحقه — وذلك

ذم العرور .

وفرقه اغتروا بالحج : فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال ، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة لإسلام ، ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ولا يحذرون من الرفث والخصام ، ثم يحضر البيت بقلب ملوث بدميم الأخلاق ، لم يقدم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه ، فهو مغرور .

وفرقه جاؤروا بمكة والمدينة ، واغتروا بذلك ، ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهريهم وباطنيهم ، فقلوبهم معلقة ببلادهم ملتزمة إلى قول من يعرفه أن فلاناً مجاور بمكة وتراء يقول : قد جاورت بمكة كذا وكذا سنة ، ثم إنه قد يجاور ويمد عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس ويظهر فيه الرياء ، وجملته من المهلكات كان عنها بمنزلة لو ترك الحجارة ولكن حب الحمدة ، وأن يقال إنه من المجاورين ألزمه الحجارة مع التضمخ بهذه الرذائل ، فهو أيضاً مغرور .

وفرقه زهدت في المال ، وقنعت من اللباس والطعام بالدون ، ومن المسكر بالمسجد أو المدارس وظننت أنها أدركت رتبة الزهاد ، وهو مع ذلك راغب بالرياسة ، والجاه إما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد ، فقد ترك أهون الأمور وباء بعظم المهلكين ، فهذا مغرور إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ولم يدرك أن منتهى لذاتها الرياسة وأن الراغب فيها لا بد وأن يكون منافقاً وحسوداً ومتكبراً ومرئياً ، ومتصفاً بجميع خبائث الأخلاق ، وقد يؤاخذ بالخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور ، إذ يتناول بذلك على الناس وينظر إليهم بعين الاستحقار ، ويعجب بعماله ويتصف بجملته من خبائث القلوب ، ور يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال بطل زهده ، فهو راغب في حمد الناس وهو من الذئاب الدنيا ، ويرى نفسه أنه زاهد في الدنيا وهو مغرور — وذلك فر بما لا يخلو عن توقير الأغنياء ، وتقديمهم على الفقراء والميل إلى المرئيين والمنشئين عاياه ، والنفرة على المسائلين إلى غيره ، وكل ذلك خدعة وغرور

الشیطان نعوذ بالله منه ، وفي العباد من يشدد على نفسه في أعمال الجوارح ، ولا يخطر له مراعاة القلب وتفقدته ، وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات ، ويتوهم أنه مغفور له لعمله الظاهر وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب ، وقد يظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته ، وهيهات !! ذرة من ذی تقوی وخلق واحد من أخلاق الأکیاس ، أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح ، ثم لا يخلو هذا المغرور من سوء خلقه مع الناس وخشونته وتلوث باطنه بالرياء وحب الثناء ؛ فإذا قيل له أنت من أوتاد الأرض وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور بذلك وصدق به ، وظن أن تركية الناس له دليل على كونه مرضياً عند الله ، ولا يدري أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه

وفرقه حرصت على النوافل ، ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ، ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ، ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في أول الوقت ، وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : « ما تقرب المتقربون إلى بمثل أداء ما افترضت عليهم » .

غرور المتصوفة وهم فرق كثيرة

ففرقة منهم اغتروا بالزى والهيئة والمنطق ، فيجاسون على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمفكر ، وفي تنفس الصعداء ، وفي خفض الصوت في الحديث ، ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية ، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف مع أنهم لم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئاً منها .

وفرقه ادعت علم المعرفة ، ومشاهدة الحق ، ومجاورة المقامات والأحوال ، والملازمة في عين الشهود ، والوصول إلى القلب ، ولا يعرف هذه الأمور إلا الأسامي والألفاظ ، لأنه تلقف من ألفاظ الطاعات كلمات فهو يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والحدثين

وأصناف العلماء بعين الازدراء ، فضلا عن العوام حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحاتك يترك حيا كته ويلازمهم ، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيردها كأنه يتكلم عن الوحي ، ويخبر عن سر الأسرار ، ويستحققر بذلك جميع العباد والعلماء ، ويقول إنهم عن الله محجوبون ، ويدعى لنفسه الوصول إلى الحق ، وأنه من المقربين ، وهو عند الله من المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين ، لم يحكم قط علماً ، ولم يهذب خلقاً ، ولم يرتب عملاً ولم يراقب قلباً ، سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه .

وفرقه وقعت في الإباحة ، وطوروا بساط الشرع . ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام : فبعضهم يقول إن الله مستغن عن عمل فلم أتعب نفسي ، وبعضهم يقول . الأعمال بالجوارح لا وزن لها ، وإنما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله ، وواصله إلى معرفة الله ، وإنما نخوض في الدنيا بأيدينا ، وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية ، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ، ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية ، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها ، وكل هذا من وساوس يخدعهم الشيطان بها ، والإباحية من الكفار المارقين ، نعوذ بالله أن نكون من الجاهلين .

وفرقه ادعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة . فتصدوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوماً وتكفلوا بخدمتهم ، واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال ، فيجمعون من الحرام والشبهات ، وينفقون عليهم لتكثير أتباعهم ، وينتشر بالخدمة اسمهم ، وما باعهم إلا الرياء والسمعة .

وثمة فرق آخر لا يحصى غرورها ، والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإن ذلك يطول .

غرور أرباب الأموال

والمغترون منهم فرق : ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد ، وما يظهر للناس ليتخذ ذكرهم أو يذيع صيتهم ، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك ، وقد يكون بناؤها من جهات محظورة ، تعرضوا لسخط الله في كسبها ، وكان الواجب ردها إلى ملاكها — إما بأعيانها — وإما رد بدلها عند العجز ، وقد يكون الأهم التوسعة على المساكين ، وهم لا يفعلون ذلك خيفة أن لا يظهر ذلك للناس ، فيكون غرضهم في البناء الرياء و جلب الثناء ، مع أن صرف المال إلى من في جواره أو بلده من فقراء وأيتام أهم وأفضل ، وأولى من الصرف إلى المساجد وزينتها ، فما خف عليهم الصرف إلى المساجد إلا ليظهر ذلك بين الناس ، وهناك محذور آخر وهو أنه قد يصرف المال إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش المنهى عنها ، لشغلها قلوب المصلين والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب وذلك يفسد قلوب المصلين ، فوبال ذلك كله يرجع إليه ، وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات مع أنه تعرض لما لا يرضى الله تعالى .

وفرقه ينفقون الأموال في الصدقات على المساكين ويطالبون به المحافل الجامعة ومن الفقراء من عادته الشكر وإفشاء المعروف ويكرهون التصدق في السر ، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذه منهم جنابة عليهم وكفرانا ، وربما تركوا جيرانهم جياعاً ، ولذلك قال ابن مسعود : في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب ، يهون عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق ، ويرجعون محرومين مسلوبين ، يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه ، وقال أبو نصر التمار : إن رجلاً جاء يودع بشر بن الحارث وقال عزمتم على الحج فتأمرني بشيء ؟ فقال له كم أعددت للنفقة؟ فقال ألفي درهم ، قال بشر : لأى شيء تنفق لحجتك ؟ تزهداً أو اشتياقاً إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله ؟ قال ابتغاء مرضاة الله ، قال : لأن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي

درہم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك؟ قال نعم ، قال اذهب فأعطها لعشرة أنفس : مديون يقضى دينه ، وفقير يلم شعثه ، ومعييل يحيى عياله ، ومربي يقيم يفرحه ، وإن قوى قلبك تعطيها واحداً فافعل ، فإن إدخالك السرور على قلب مسلم ، وإغاثة اللهيان ، وكشف الضر ، وإعانة الضعيف ، أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام ، قم فأخرجها كما أمرناك ، وإلا فقل لنا ما في قلبك؟ فقال : يا أبا نصر ، سفرى أقوى فى قلبى ، فتبسم بشر رحمه الله تعالى ، وأقبل عليه وقال له : المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات ، اقتضت النفس أن تقضى به وطراً ، فأظهرت الأعمال الصالحات ، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين .

وفرقه من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن ، وهم مغرورون ، لأن البخل المهلك قد استولى على بطونهم فهو يحتاج إلى قومه بإخراج المال ، فقد اشتغل بطلب فضائل وهو مستغنى عنها ، ومثاله مثال من دخل فى ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ دواء يسكن به الصفراء ، ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى دواء؟! ولذلك قيل لبشر : إن فلاناً الغنى كثير الصوم والصلاة، فقال: المسكين ترك حاله ودخل فى حال غيره وإنما حال هذا إطعام الطعام للجوع والإتيان على المساكين فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء .

وفرقه غلبهم البخل ، فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط ، ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الردى الذى يرغبون عنه ، ويطلبون من الثراء من يخدمهم ويتردد فى حاجاتهم ، أو من يحتاجون إليه فى المستقبل للاستسخر فى خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض . أو يسلمون إلى من يعينه واحد من الأكارم ممن يستظهر بحشمة لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته ، وكل ذلك

مفسدات لثنية ومحطات للعمل ، وصاحبه مغرور ، ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر ، إذ طاب بعبادة الله عوضاً عن غيره . وغرور أصحاب الأموال لا يحصى ، وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبية على أجناس الغرور .

وفرقه أخرى من عوام أرباب الأموال اغتروا بحصور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم ، واتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل والاتعاظ أجراً . وهم مغرورون لأن فضل مجالس الذكر لكونه مرغباً في الخير ، فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه ، والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها وما يراه لغيره ، فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له . وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ وتدخله رقة كرقعة النساء فيبكي ولا عزم ، وربما يسمع كلاماً مخوفاً فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول ياسلام سلم !! أو نعوذ بالله أو سبحان الله . ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور ، وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجري ، أو الجائع الذي يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ، وذلك لا يغني عنه من مرضه وجوعه شيئاً ، فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغني من الله شيئاً ، فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييراً يغير أفعالك حتى تقبل على الله تعالى إقبالا قوياً أو ضعيفاً وتعرض عن الدنيا ، فذلك الوعظ زيادة حجة عليك ، فإذا رأيتك وسيلة لك كنت مغروراً .

(فإن قلت) ما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يمكن الاحتراز منه ، إذ يقوى أحد على الحذر من خفايا هذه الآفات .

(قلت) الإنسان إذا فترت همته في شيء أظهر اليأس منه ، واستعظم الأمر استوعر الطريق ، وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الخيل ، واستنبط بدقيق الخيل خفايا الطريق في الوصول إلى الغرض ، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستنزل المخلوق في جو السماء مع بعده منه استنزله ، وإذا أراد أن يستسخر السباع

والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها ، إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي كل ذلك لأنه همه أمر دنياه ، فلو أهمه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد ، وهو تقويم قلبه ، ولما تخاذل عن تقويم قلبه ظنه محالا ، وليس ذلك محال ، لأنه شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ، ومن اتبعهم بإحسان ، فلا يعجز عنه أيضا من صدقت إرادته وقويت همته ، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها .

( فإن قلت ) قد قربت الأمر فيه مع أنك أكثر في ذكر مداخل الغرور ثم ينجو العبد من الغرور ؟ فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور : بالعقل ، والعلم والمعرفة ، فهذه ثلاثة أمور لا بد منها — أما العقل فأعنى به الفطرة الغريزية والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء ، لأن أساس السعادات كل العقل والكياسة — وأما المعرفة فن يعرف نفسه وربيه ، ويعرف الدنيا والآخرة فإذا عرف ذلك ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ، ويصير أهم أمره ما يوصله إلى الله تعالى وينفقه في الآخرة ، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه ، صحت نيته في الأمور كلها واندفع عن كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة ، وهوى نفسه أحب إليه من رضا تعالى ، فلا يمكنه الخلاص من الغرور ، فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى المعنى الثالث وهو العلم ، أعنى العلم يقربه من الله وما يبغده عنه ، فيعرف من العبادات شروطها فيراعيها ، وآفئ فينقيها . ومن العادات أسرار المعاش وما هو مضطر إليه فيأخذ بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه . ومن المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة طريق الله ، فإن المانع من حب الله الصفات المذمومة في الخلق فيعلم المذموم وطريق علاجه ويعرف من المنجيات الصفات الحمودة التي لا بد وأن توضع



عن المذمومة بعد محوها ، فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور ، وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصح به النية ، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها ، نسأل الله العون والنوفيق وحسن الخاتمة ، آمين .

## كتاب التوبة

### حقيقة التوبة

اعلم أن التوبة معنى ينتظم من ثلاثة أمور : علم ، وحال ، وفعل . والأول موجب للثاني ، والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضته سنة الله في الملك والملكوت أما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها سموماً مهلكة ، وحجاباً بين العبد وبين كل محبوب . فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم ، فإن كان فواته بفعله ، تأسف على الفعل المفوت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً ، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى ، انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق باخال وبالماضي وبالاستقبال ، أما تعلقه باخال فبالترك للذنب الذي كان ملائماً وأما بالاستقبال فالعزم على ترك الذنب المفوت المحبوب إلى آخر العمر ، وأما بالماضي فببتلافى ما فات بالخير والقضاء إن كان قابلاً للخير ، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك يطلق اسم التوبة على مجموعها . وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالمقدمة والترك كالثمره — وبهذا الاعتبار جاء في الأثر : «الندم توبة» إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره ، وعن عزم يتبعه ويتلوه .

بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة

عند من شرح الله بنور الإيمان صدره . فإن من عرف أن لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى وإن كل محجوب عنه يشقى لامحالة محول بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم ، وعلم أن لا مبعث عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات ولا مقرب من لقائه إلا الإقبال على الله بدوام ذكره ، وعلم أن الذنوب سبب كونه محجوباً مبعثاً عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب الوصول إلى القرب ، وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم . وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن البصيرة ومن لم يترشح لهذا المقام فيلاحظ ما ورد من الآيات والآثار ، فقد قال تعالى : ( وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ) وهذا أمر على العموم ، وقال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ) ومعنى النصوح : الخالص لله تعالى خالياً عن الشوائب وبدل على فضل التوبة قوله تعالى : ( إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ) وقال عليه الصلاة والسلام : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » والأخبار في ذلك كثيرة .

وجوب التوبة على الفور وعلى الدوام

لا يخفى أن وجوبها على الفور أمر لا يستراب فيه ، إذ معرفة كون المعاصيات من نفس الإيمان وهو واجب على الفور ، والعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً على تركها . فمن لم يتركها فهو فاقده لهذا الجزء من الإيمان ، وهو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » وذلك لكون الزنا مبعثاً عن الله تعالى ، موجباً للهقت كس المعاصي لأنها للإيمان كالأكولات المضرّة للأبدان . فكما أنها تغير مزاج الإنسان ولا تزال تجتمع حتى تفسده فيموت دفعة كذلك تعمل سموم الذنوب برفق الإيمان عملاً بحق الكرامة عليه بأنه من الهالكين .

وأما وجوب التوبة على الدوام وفي كل حال ، فهو أن كل بشر لا يخلو من معصية بجوارحه ، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو

الهمم بالذنوب بالقلب ، فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المذهلة عن ذكر الله ، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله ، وكل ذلك نقص وله أسباب ، وترك أسبابه بالتشاغل بضعها رجوع عن طريق إلى ضده ، والمراد بالتوبة الرجوع ، ولا يتصور الخلو في حق آدمي عن هذا النقص وإنما يتفاوتون بالمقادير فأما الأصل فلا بد منه ولهذا قال عليه السلام « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم واللييلة سبعين مرة » الحديث . ولذلك أكرمته الله تعالى بأن قال : ( ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ) وإذا كان هذا حاله فسكيف حال غيره .

وإنما أطلقنا الوجوب في كل حال . والتوبة عن بعض ما ذكر من الفضائل لا الفرائض ، لأننا نعني بالواجب ما لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين ، والمقام المحمود بين الصديقين ، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه ، كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع أي من يريد بها فإنه لا يتوصل إليها إلا بها .

واعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلاً ، وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك ماضى ، وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرأة الصقيلة فإن تراكت ظلمة الشهوات صارت ريناً كما يصير بخار النفس في وجه المرأة عند تراكمه خبثاً كما قال تعالى : ( كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ) فإذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه الخبث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات كما في المستقبل بل لا بد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب — كما يكفي في ظهور الصور في المرأة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في

( ٩ — موعظة المؤمنين ٢ )

المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان ، وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات ، فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتنتمى ظلمة المعصية بنور الطاعة ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » فإذا لا يستغى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها تلك السيئات .

ولقد صدق أبو سايان الداراني حيث قال : لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله ، وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة ، بكى عليها لا محالة ، وإن ضاعت منه وحصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاءه عليها أشد ، وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها ، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنتذك من شقاوة الأبد ، وأى جوهرة أنفس من هذا ، فإذا ضيعت في الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيناً ، فإن كنت لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة ، ونوم الغفلة يحول بينه وبين معرفة و « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته ، وقد رفع الناس عن التدارك كما قال تعالى : ( وأنفقوا مما رزقنا من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين وإن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ) وقد قيل في معنى الآية إنه يقال حالئذ يملك الموت أخرنى يوماً أتوب فيه إلى ربي وأتزود صالحاً لنفسى ، فيقول ففئت الأيام فلا يوم ، فيقول فأخرنى ساعة ، فيقول : ففئت الساعة فلا ساعة فيغلق عليه باب النوبة فيتفرغ بروحه وتزهق نفسه ولمثل هذا يقال : ( وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن وقوله تعالى : ( إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قر

عناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتقدم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسوية كان بين خطيرين عظيمين : ( أحدهما ) أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو ( الثاني ) أن يعاجله المرض أو الموت ، فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ، فيأتي الله بقلب غير سليم ، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم .

### بيان أن التوبة الصحيحة مقبولة

اعلم أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة فإن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، كما لا طاقة لظلام الليل مع بياض النهار . كما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة ، فاستعماله القلب في الشهوات يوسخ القلب ، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه ، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول ، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول ، فإنما عليك التزكية والتطهير ، وأما القبول فمبدول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له ، وهو المسمى فلاحاً في قوله تعالى : ( قد أفلح من زكاها ) .

فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل ، كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يفوص الوسخ لطول تراكمه في تجاوزيف الثوب ، فلا يقوى الصابون على قلعه . فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعاً وريناً على القلب ، فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب . نعم ، قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول النصار بلسانه قد غسلت الثوب ، وذلك لا ينظف الثوب أصلاً ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به — فهذا حال امتناع أصل التوبة ،

وهو غير بعيد ، بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا ، المعرضين عن الله بالكلية .

هذا البيان كاف عند ذوى البصائر فى قبول التوبة ، ولكننا نعض جناحه ببعض آيات وأخبار « فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يؤثرت به » قال تعالى : ( غافر الذنب وقابل التوب ) وقال سبحانه : ( وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ) وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله - وجل يسطر يده بالتوبة لىء الليل إلى النهار ولمسىء النهار إلى الليل حتى تطمئ الشمس من مغربها » وبسط اليد . كناية عن طلب التوبة ، وقال صلى الله عليه وسلم : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

بيان ما تكون عنه التوبة وهى الذنوب

اعلم أن التوبة ترك الذنب ، ولا يمكن ترك الشىء إلا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً ، فمعرفة الذنوب إذاً واجبة ، والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى فى ترك أو فعل ثم إن مشاركات الذنوب تنحصر فى أربع صفات : صفات ربوبية ، وصفات شيطانية وصفات بهيمية ، وصفات سبعية .

فأما ما يقتضى النزوع إلى صفات الربوبية فمثل الكبر والفخر وحب المدح والثناء ، وحب دوام البقاء ، وطلب الاستعلاء على الكافة ، حتى كأنه يريد يقول : أنا ربكم الأعلى وهذا يتشعب منه جملة من كبار الذنوب غفل عنها الخلق ولم يندوها ذنوباً ، وهى المهلكات العظيمة التى هى كالأمرات لأكثر المعاصى ( الثانية ) هى الصفة الشيطانية : التى منها يتشعب الحسد والبغى والامتنان والخداع والأمر بالفساد والمنكر ، وفيه يدخل الغش والنفاق ، والدعوة بالبدع والضلال .

( الثالثة ) الصفة البهيمية : ومنها يتشعب الشره والحرص على قضاء شهوة

البطن والفرج ، ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقه وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات .

( الرابعة ) الصفة السبعية ؛ ومنها يتشعب الغضب والحقد ، والتهجم على الناس لضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ، ويتفرع منها جمل من الذنوب .  
فهذه أمهات الذنوب ومنابعها تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح بعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضرار السوء للناس ، وبعضها على عين والسمع وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج ، وبعضها على اليدين الرجلين ، وبعضها على جميع البدن ، ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح .  
انقسام الذنوب إلى صغار وكبار

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغار وكبار ، وقد كثر الاختلاف فيها ، قال قائلون لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة ، وهذا ضعيف قال تعالى : ( إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم بخلا كريماً ) وقال تعالى : ( الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ) قال بعض السلف : كل ما أوعده الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقد روى عن الصحابة والتابعين في عدد الكبائر أقوال . وذهب أبو طالب المكي إلى أنها سبع عشرة جمعها من الأخبار والآثار :

( أربعة في القلب ) وهي الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط برحمته ، والأمن من مكروه ( وأربع في اللسان ) وهي شهادة الزور ، إف المحسن ، والسحر ، واليمين الغموس ، وهي التي يحق بها باطلا أو يبطل حقاً . وقيل هي التي يقطع بها مال امرئ مسلم باطلا ولو سواك من أراك غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار ( وثلاث في البطن ) وهي شرب الخمر والسكر كل شراب ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، وأكل الربا وهو يعلم ( واثنان في ) وهما الزنا واللواط ( واثنان في اليدين ) وهما القتل والسرقه ( وواحدة في

الرجلين) وهو الفرار من الزحف، أن يفر الواحد من اثنين والعشرة من العشر (وواحدة في جميع الجسد) وهو عقوق الوالدين، وجملة عقوقهما أن يقسمها على حق فلا يبر قسمهما، وإن سألاه حاجة فلا يعطيها، وأن يسباه فيضرب ويخوعان فلا يطعمهما؛ هذا كلام أبي طالب، وهو قريب إلا أنه لم يرد تفصيلاً بعد، ولا حد جامع بل رد بالقاظ مختلفات. والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر وإلى ما يشك فيه فلا يدري حكمه، وربما قصد الشارع الإيهام ليكون العباد على وجل وحذر فلا يجردون على الصغائر. ثم إن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتمع مع القدرة والإرادة كما يتمكن من امرأة ومن موافقتها، فيكف نفسه عن الواجب مجاهداً نفسه، فإن امتنع لعجز أو خوف فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً.

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الإصرار والمواظبة؛ ولذلك لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار، فكبيرة واحدة تنصرم يتبعها مثابها يكون العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب عليها العبد، ومثال قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر لو عليه دفعة واحدة لم يؤثر، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأعمال أدومها وإن قل» ومنها أن يستصغر الذنب فإن الذنب كلما استصغره العبد من نفسه صغر عند الله تعالى، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به، واستصغاره يصدر عن الإلف وذلك يوجب شدة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات، والتسويده بالسيئات وقد روى أن المؤمن يرى ذنبه كجبل فوقه يخاف أن يقع والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره، وكذلك يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل، ويتجاوز عن العاصي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف



الذنب والمخالفة يكبران بقدر معرفة المخالف . ومنها السرور بالصغيرة والفرح بها ؛ فكما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبر وعظم أثرها في تسويد قلبه ، كمن يقول أما رأيتني كيف مزقت عرضه ، وكيف فضحته حتى أخجلته ، وكيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته ، فهذا وأمثاله مما تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات . ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه وإمهاله إياه ، ولا يدري أنه إنما يميل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله به ، وذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكان الغرور بالله — ومنها أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره ، فإن ذلك جنابة منه على ستر الله الذي سدله عاينه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو شهده فعله ، فهما جنايتان انضمتا إلى جنابة فتغلظت به ، فإن انضاف إلى ذلك ترغيب الغير فيه صارت جنابة رابعة وتفاحش الأمر . ومنها أن يكون المذنب عالماً بقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه . وفي الخبر : « من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً » وكما يتضاعف وزر العالم على الذنب فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات إذا اتبعوا فعله . فحركات المقتدى بفعله في طوري الزيادة والنقصان ، تتضاعف آثارها إما بالربح وإما بالخسران .

### تمام التوبة وشروطها ودوامها

ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصدًا . فالندم هو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب ، وعلامته طول الحسرة والحزن وإسكاب الدمع والفكر ، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده طالت عاينه مصيبتته وبكاؤه وأى عزيز عليه من نفسه ، وأى عقوبة أشد من النار ، وأى سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي ، وأى مخبر أصدق من الله ورسوله ، ولو حدثه إنسان واحد يتطبيب أن مرض ولده لا يبرأ وأنه سيموت منه ، لطال في الحال حزنه . فليس ولده بأعز من نفسه ، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله

ولا الموت بأشد من النار ، ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها إلى النار ، فألم الندم كلما كان أشد ، كان تكفير الذنوب به أرحم . فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع . ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا من حلاوتها ، فيستبدل بالليل كراهية ، وبالرغبة بفرقة كمن ينثر عن عسل فيه سم ولو كان في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون ، وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم . ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان ، ولما عن مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون ، فلا ترى إلا معرضاً عن الله تعالى ، متهاوناً بالذنوب مُصِرّاً عليها ، فهذا شرط تمام الندم ، وينبغي أن يدوم إلى الموت ، وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب .

وأما القصد الذي ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له ، وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضي ، وهو تدارك ما فرط ، وبالمستقبل وهو دوام ترك المعصية إلى الموت . ومن أهم ما يجب تداركه الحقوق المالية ، فمن تناول مالا بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبس كترويح زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجره أجير أو أكل أجرته ، فكل ذلك يجب أن يفتش عنهم ليستحلهم أو ليؤدى حقوقهم لهم أو لورثتهم ، وليحاسب نفسه على الحبات والدوائق قبل أن يحاسب في القيامة ، وليناقش قبل أن يناقش ، فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه ، فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات بقدر كثرة مظالمه . فهذا طريق كل تائب في رد المظالم الثابتة في ذمته أما أمواله الحاضرة فليرد إلى المالك ما يعرف له مالاً معيناً ، وما لا يعرف له مالاً فعليه أن يتصدق به ، فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالأجتهاد ، ويتصدق بذلك المقدار .

وأما الجناية على القلوب بمشاهدة الناس بما سيئهم ، أو يعيبهم في الغيبة ، فليطلب كل من تعرض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله ، فمن وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته ، ومن مات أو غاب أو تعذر استحلاله فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات .

ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل ، وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة .

### أقسام العباد في دوام التوبة

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات :

( الطبقة الأولى ) أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات ، فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبه هو ( السابق بالخيرات ) المستبدل بالسيئات حسنات ، واسم هذه التوبة ( التوبة النصوح ) واسم هذه النفس الساكنة ( النفس النطمئنة ) التي ترجع إلى ربها راضية مرضية .

( الطبقة الثانية ) تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعترية لا عن عمد ، ولكن يبتلى بها في مجارى أحواله من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها ، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها ، وهذه النفس جديرة بأن تكون هي ( النفس اللوامة ) إذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم وعزم وقصد . وهذه أيضاً رتبة عالية ، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهي أغلب أحوال التائبين ، لأن الشر معجون بطينة الأدمى قلما ينفك عنه ، وإنما غاية سعيه أن قلب خيره شره حتى يثقل ميزانه ، فترجح كفة الحسنات ، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات ، فذلك في غاية البعد ، وهو لا لهم حسن الوعد من الله تعالى ،

إذ قال تعالى : ( الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع  
المغفرة ) فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون  
من اللمم المغفور عنه . قال تعالى : ( والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظاهوا أنفسهم  
ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ) فأتى عاينهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم  
أنفسهم عليه . وفي الخبر : « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة »  
أى الحين بعد الحين . وفي الخبر : « كل بنى آدم خطاءون ، وخير الخطائين  
التوابون » فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ،  
ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين .

( الطبقة الثالثة ) أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض  
الذنوب ، فيقدم عليها عن قصد لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب  
على الطاعات ، وتارك جملة من الذنوب وهو يود لو كفى شرها في حال قضاء  
الشهوة وعند الفراغ يتندم ويقول : ليتنى لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسى  
في قهرها لكنه يسول نفسه ويسوف توبته يوماً بعد يوم — فهذه النفس هي  
التي تسمى ( النفس السوء ) وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم : ( وآخرون  
اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ) فأمره من حيث مواظبته  
على الطاعات ، وكرهته لما تعاضه مرجو . فعسى الله أن يتوب عليه ، وعاقبت  
مخاطرة من حيث تسويفه وتأخيرها ، فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيمة  
إن تداركه الله بفضل أحقه بالسابقين ، وإلا فيخشى عليه .

( الطبقة الرابعة ) أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى مقارن  
الذنب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله  
بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهوته ، فهذا من جملة المصرين ، وهم  
النفس ( النفس الأمارة بالسوء ) الفرارة من الخير ، ويخاف على هذا سم  
الخطامة وانتظاره مع هذه الحالة المغفرة من الله تعالى غرور ، فإن المقصر عن الطاعات

المصر على الذنوب الغير السالك سبيل المغفرة المنتظر للغفران ، يعد عند أرباب القلوب من المعتوهين ، كما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعاً يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض في بيته الخرب يعد عند ذوى البصائر من الحمقى المغرورين ، فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار ، وطلب المال بالتجارة . والعجب من عقل هذا المعتوه وترووجه حماقته إذ يقول : إن الله كريم ، وجنته ليست تضيق على مثلى ، ومعصيتي ليست تضره ، ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار . وإذا قيل له : إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك ، وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحسب ، فيستحرق قائل هذا الكلام ، ويستهمزى به ويقول : ما هذا المهوس ، السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وإنما ينال ذلك بالكسب ، هكذا قدره مسبب الأسباب ، وأجرى به سنته ، ولا تبديل لسنة الله . ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد ، وأن سنته لا تبديل لها فيهما جميعاً . وأنه قد أخبر إذ قال : ( وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ) فنعوذ بالله من الضلال .

ما يفعله التائب بعد الذنب

اعلم أن الواجب على التائب إن كان جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبية أو عن الإمام بحكم الاتفاق هو أن يبادر إلى التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضادها ، فإن لم تساعد النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة ، فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة فيمحيها فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها . فأما بالقلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو .

وبتدلل تدلل العبد الآبق ، ويخف من كبره فيما بين العباد ، وكذلك يضم بقباه  
 الخيرات للمساكين والعزم على الطاعات . وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار  
 فيقول : « رب ظلمت نفسي وعمت سوءاً فاغفر لي ذنوبي » وكذلك يكثر من  
 ضروب الاستغفار الماثورة . وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات  
 وبالجملة فينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويحتمد في دفعها بالحسنات .  
 واعلم أنه ليس كل استغفار نافعا ، ففي الخبر : « المستغفر من الذنب وهو  
 مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله » وقال بعض السلف : الاستغفار باللسان توبة  
 الكذابين ، وقالت رابعة : « استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير » وذلك لأن  
 الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن  
 يكون للقلب فيه شركة ، كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة « أستغفر  
 الله » و كما يقول إذا سمع صفة النار « نعوذ بالله منها » من غير أن يتأثر به قلبه  
 وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له . فأما إذا انضاف إليه تضرع  
 القاب إلى الله تعالى وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلص نية ورغبة ،  
 فهذه حسنة في نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة ، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة  
 في فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم : « ما أصر من استغفر ولو عاد في  
 اليوم سبعين مرة » . ثم إن للتوبة ثمرتين :

( إحداهما ) تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له .

( والثانية ) نيل الدرجات . وللتكفير أيضاً درجات فبعضه محو لأصل

الذنب بالكيفية ، وبعضه تخفيف له ، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة  
 فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وإن خلا عن حل عقدة الإصرار  
 فليس يخلو عن الفائدة أصلاً . فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها فإنه لا يخلو  
 ذرة من خير عن أثر كما لا يخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ، فإياك أن  
 تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وذرات المعاصي فلا تنفيها ، فإذا التضرع

والاستغفار بالقلب حسنة لاتضيع عند الله أصلاً ، بل أقول الاستغفار باللسان أيضاً حسنة ، إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعات بغيبة مسلم أو فضول كلام ( فرابعة ) بقولها : « استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير » لاتظن أنها تدم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تدم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه ، لا من حركة لسانه .

دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ، وكل داء حصل من سبب فدواؤه إبطاله ، ولا يبطل الشيء إلا بضده ، ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يصاد الغفلة إلا العلم ، ولا يصاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة .  
وأما الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار ، وحمل الناس ترك الذنوب فهي أربعة أنواع :

( الأول ) أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين العاصين ، وكذا ما ورد من الأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين .

( الثاني ) حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم ، فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه ، وما لقيه من الإخراج من الجنة ونحوها ، فإنه لم يرد بها القرآن والأخبار ، وورود الأسمار ، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ، لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار ، فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار ؟ فهذا أيضاً مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصريين ، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة .

( الثالث ) أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقف على الذنوب ، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جنائياته فينبغي أن

يخوف به ، وفي خبر : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » ، وقال بعض السلف : ليست اللعنة سواداً في الوجه ونقصاناً في المال ، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه ، وهو كما قال لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد ، فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعده ، والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان ، وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ، ومن مجالسة الصالحين بل يمتقته الله تعالى ليمتقته الصالحون . وبالجملة فالأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا ، فمن ابتلى بشيء منها كان عقوبة له وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه . وأما المضيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ووفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته .

( الرابع ) ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة وغير ذلك . والمدار في هذا الباب على الفكر النافع ، وهو الفكر في عقاب الآخرة ، وأهوالها وشدائدها ، وحسرات العاصين في الحرمان من النعيم المقيم ، ويعتبر بأنه لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت ، وكان الماء البارد ألد الأشياء عنده تركه ، مع أن الموت ألم لحظة ومفارقة الدنيا لا بد منها ، فيقول كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عنده دون قول نصراني طبيب يدعى الطب بلا معجزة على طبه ، وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض ، وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا ، ومتى استشعر قلبه ذلك انبعث خوفه ، وإذا قويت الخوف تيسر بمعونته الصبر ، وتوفيق الله وتيسره من وراء ذلك ، فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره



الله للعسرى ، فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى ، وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وإيماناً بالله الآخرة والأولى .

## كتاب الصبر والشكر

### فضيلة الصبر

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف كثيرة ، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل : ( وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ) وقال تعالى : ( وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ) وقال تعالى : ( أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ) وقال تعالى : ( إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ) فما من قرينة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ، ووعد الصابرين بأنه معهم . فقال تعالى : ( إن الله مع الصابرين ) وجمع لهم بين أمور لم يجمعها لغيرهم . فقال تعالى : ( أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ) ومن الأخبار قوله صلى الله عليه وسلم : « الصبر نصف الإيمان » وسئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : « الصبر والسماحة » .

### حقيقة الصبر وأقسامه

اعلم أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى ، وبعث الدين هو ما هدى إليه الإنسان من معرفة الله ورسوله ، ومعرفة المصالح المتعاقبة بالعواقب وهي الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات . وبعث الهوى هو مطالبة الشهوات بمقتضاها . فمن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة التحق بالصابرين ، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق باتباع الشياطين .

ثم إن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال :

(أحدها) أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ، ويتوصل إليه بدوام الصبر ، وعند هذا يقال « من صبر ظفر » والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون فلا جرم هم الصديقون المقربون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا .

(الحالة الثانية) أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ، فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ولا يجاهد ، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون وهم الذين استرققتهم شهواتهم ، وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله في قلوبهم ، أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فحسرت صفقتهم .

(الحالة الثالثة) أن تكون الحرب سجالاتاً بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه — وهذا يعد من المجاهدين لا من الظافرين ، وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم .

والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلاً إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والتدبرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات ، وهذا قد خلق له ذلك وعطله فهو الناقص حقاً ، وإذا دامت القوى وقوى التصديق في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر .

بيان مظان الحاجة إلى الصبر

وأن العبد لا يستغنى عنه في حال من الأحوال

اعلم أن جميع ما يلقي العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين : ما يوافق هو وما لا يوافق بل يكرهه ، وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما ، وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن هذين النوعين فإذا لا يستغنى قط عن الصبر .

(النوع الأول) ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكنة

العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا ، وما أحوج

العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركن

إليها والانهمالك في ملاذها المباحة ، أخرجته ذلك إلى البطر والطغيان ، ولذلك

حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد ، فقال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ) وقال عز وجل : ( إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ) ، فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ، وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإففاق ، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفي لسانه ببذل الصدق ، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه ، وهذا الصبر متصل بالشكر ، وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ، والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة اللذيذة وقدر عليها ، فلهذا عظمت فتنة السراء .

( النوع الثاني ) مالا يوافق الهوى والطبع ، وذلك إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي ، أو لا يرتبط باختياره كالمصائب ، أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه ، فهذه ثلاثة أقسام :

( القسم الأول ) ما يرتبط باختياره ، وهما ضربان :

( الضرب الأول ) الطاعة . والعبد يحتاج إلى الصبر عليها لأن منها ما تنفر عنه النفس بسبب الكسل كالصلاة ، أو بسبب البخل كالزكاة ، أو بسببهما جميعاً كالحج والجهاد ، وكل ذلك يحتاج إلى صبر .

( الضرب الثاني ) المعاصي . وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى : ( وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ) فما أحوج العبد إلى الصبر عنها سيما مالا يثقل منها على النفس كالغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً وأنواع المزاح المؤذي للقلوب ، وضروب الكلمات التي يقصد بها الأزدراء والاستحقار والقدح في الموتى ، ولمصير ذلك معتاداً في المحاورات بطل استباحها من القلوب لعموم الأنس بها ، وهي من أكبر الموبقات .

( القسم الثاني ) ما لا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه ، كما لو أودى بفعل أو قول وجنى عليه في نفسه أو ماله ، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجباً وتارة يكون فضيلة . قال تعالى : ( واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً ) وقال تعالى : ( واتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ) أي تصبروا على المكافأة . ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في التفاصيل وغيره ، فقال تعالى : ( وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خیر للصابرين ) وقال صلى الله عليه وسلم : « صِلْ من قطعك ، وأعط من حرمك ، واعف عن ظلمك » .

( القسم الثالث ) ما لا يدخل تحت حصر الاختيار كالمصائب ، مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء وسائر أنواع البلاء . فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر ، وإنما تنال درجة الصبر في المصائب بترك الجزع وشق الجيوب وضرب الحدود ، والبيانغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادات في اللبس والفرش والطعم لأن هذه الأمور داخل تحت اختياره . فينبغي أن يجتنب جميعها ، ويظهر الرضاء بقضاء الله تعالى ، ويبقى مستمراً على عادته ، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت . كما روى عن أم سلمة رضيها الله قالت : توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فسمعت في نائم البيت ، ثم حضر أبوه فبيات له إفطاره فجعل يأكل ، فقال : كيف الصبي ؟ فقلت بحمد الله لم يكن منذ اشتمكي بأسكن منه الليلة ، ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته . ثم قلت : ألا تعجب من جيراننا قال : ما لهم ؟ قلت : أعيروا عارية فاما طلبت منهم واسترجعوا جزعوا . فقال بس ما صنعوا . فقلت : هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قبضه إلي فحمد الله واسترجع ، ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقد

« اللهم بارك لها في ليلتهما » قال الراوى : فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرءوا القرآن .

ولا يخرجهم عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع لأن ذلك مقتضى البشرية . ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه ، فقيل له في ذلك ، فقال : « هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » بل ذلك لا يخرج أيضاً عن مقام الرضاء .

وقد ظهر لك بهذه التسميات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال حتى من اعتزل وحده لا يستغنى عن الصبر على وساوس الشيطان باطنياً ، فإن اختلاج الخواطر لا يسكن ولا يزال في شغل دائم بسببها يضيع به الزمان ، وقد يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات ، ولا تظن أن الشيطان يخلو عنه قلب فارغ ، بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وسيالانه مثل الهواء في القدح ، فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله باناء أو بغيره فقد طمعت في غير مطمع ، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة — فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان ، وإلا فمن غفل ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان . ولذلك قال تعالى : ( ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ) وفي خبر : « إن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ » وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغاً ولم يبق قلبه فارغاً ، بل يعيش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ثم تزوج أفرأخه أيضاً وهكذا . ولذا قال الحلاج لما سئل عن التصوف : « هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك » فإذا حقيقة الصبر وكاله الصبر عن كل حركة مذمومة ، وحركة الباطن أولى الصبر عن ذلك ، وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت . نسأل الله حسن التوفيق ونوكرمه .

دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وواعد الشفاء ، فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل ، وقد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى ، وكل مصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر ، فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الهوى والشهوة ، فأما تقوية باعث الدين فإنما تكون بطريقتين :

( أحدهما ) إطاعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا ، وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر ، وفي حسن عواقبه في دنيا والآخرة .

( الثاني ) أن يصارع باعث الهوى بالتدريج إلى أن يقمع تلك الصفات التي رسخت فيه . وأما تضعيف باعث الشهوة فبقطع الأسباب المهيجة له كفض البصر الذي يحرك القلب أو الفرار من الصورة المشتهاة بالكافية ، أو تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي يشتهي كالنكاح ، فإن كل ما يشتهي الطبع ، ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظورات منه ، ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبه مهما أراد ، فهنا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر .

بيان فضيلة الشكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه ، فقال تعالى ( فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ) وقال تعالى ( ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ) وقال تعالى ( سنجزى الشاكرين ) وقطع تعالى بالمزيد مع الشكر فقال سبحانه ( لئن شكرتم لأزيدنكم ) ومن الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » .

### حقيقة الشكر

اعلم أن الشكر ينتظم من علم وحال وعمل ، فالعلم معرفة النعمة من المنعم ، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه ، والعمل هو القيام بما هو مقصود بالمنعم ومحجوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح واللسان . أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق . وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه ، وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته ، والتوقى من الاستعانة بها على معصيته .

### بيان الشكر في حق الله تعالى

اعلم أن العبد لا يكون شاكراً لمولاه إلا إذا استعمل نعمته في محبته ، أى فيما لا أحبه لعبده لا لنفسه . وأما إذا استعمل نعمته فيما كرهه فقد كفر نعمته كما إذا أهملها وعطلها ، وإن كان هذا دون الأول إلا أنه كفران للنعمة بالتضييع ، وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادته .

ثم إن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه ولتمييز ذلك مدر كان : ( أحدهما ) السمع ومستنده الآيات والأخبار .

( الثانى ) بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار لإدراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه ، إذ ما خلق شيئاً فى العالم إلا وفيه حكمة ، وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب ، وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخبية . أما الجلية فكالعلم بن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار ، فيكون النهار معاشاً والليل لباساً ، فتتيسر الحركة عند الإبصار ، والسكون عند الاستتار . فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها ، بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة ، وكذلك معرفة الحكمة فى الغيم ونزول الأمطار ، وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعماً للخلق ومرعى للأنعام . وقد انطوى

القرآن على جملة من الحكم الجليلة التي تحملها أفهام الخلق ، دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى : « إنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبثنا فيها حباً وعنباً » الآية — وأما الحكمة في سائر الكواكب نفخية لا يطلع عليها كافة الخلق ، والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها . وأشار إليه قوله تعالى « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه ونخاره وجباله ومعانه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف — وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمته كالعلم بأن العين للإبصار واليد للبش والرجل للمشي — وهكذا فإذا كل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خالق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعم الله تعالى . فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد . إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره ، ومن نظر إلى وجه غير الحجر فقد كفر نعمة العين إذ خلقت ليبصر بها ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويتقى بها ما يضره فيهما — وكذا من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير وبهما قور الدنيا . وهما حيران لا منفعة في أعيانهم ، ولكن يضطر الخلق إليهما من حين أن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته ، ولا يعجز عما يحتاج إليه ويمتلك ما يستغنى عنه ، فخلقاً لتقدر بهما الأموال فتتداول الأيدي ، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل والحكمة أخرى وهي التور بهما إلى سائر الأشياء ، والحكم أخرى . فكل من عمل فيهما عملاً يخالف الغرض المقصود منهما فقد كفر نعمة الله فيهما — فإذا من كنزهما فقد ظلمهما وأبى الحكمة فيهما — وكذا من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة ناجزة ومن غير غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد فأنها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة — وأما اليد



فإنما خلقه الله تعالى وجعل له العروق وساق إليه الماء ، وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء لبلغ منتهى نشوئه فينتفع به عباده فكسره قبل منتهى نشوئه لاعلى وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل . فان كان له غرض صحيح فله ذلك ، إذ الشجر والحيوان جعلوا فداء لأغراض الإنسان فإنهما جميعاً فانيان هالكان ، فافتاء الأخرس في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعاً . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ( وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ) . وبالجملة فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر ، واستقصاء ذلك يطول .

### السبب الصارف للمخلق عن الشكر

اعلم أنه لم يقصر بانخلق عن شكر النعمة إلا الجبل والغفلة فانهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم . ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها : ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عايبا أن يقول بأسانه « الحمد لله والشكر لله » ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في تمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل ، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان .

### ما يشترك فيه الصبر والشكر

اعلم إنه ما من نعمة من النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تكون بلاء بالإضافة ونعمة كذلك . فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى ، قال الله تعالى : ( ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ) وقال تعالى : ( كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ) وكذلك الزوجة والولد والقريب وأمثالها فإن الله تعالى لم يخاق شيئاً وإلا فيه حكمة ونعمة أيضاً ، فإذا في خلق الله

تعالى البلاء نعمة أيضاً إما على المبتلى أو على غير المبتلى ، فإذا كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعاً . فإن قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان إذ لا صبر إلا على رغبم ولا شكر إلا على فرح . فاعلم أن الشيء الواحد قد يقتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر فيكون الصبر من حيث الاعتماد والشكر من حيث الفرج . وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها :

( أحدها ) أن كل مصيبة ومرض ، فيتصور أن يكون أكبر منها ، إذ مقدورات الله تعالى لا تنهاه . فهو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يردده ويحجزه فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا . ( الثاني ) أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه . وفي الخبر « اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا » .

( الثالث ) أنه ما من عقوبة إلا ويتصور أن تؤخر إلى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخرتهمون المصيبة فيخفف وقعها ، ومصيبة الآخرة تدوم ، فاعله لم تؤخر عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبته في الدنيا ، فلم لا يشكر الله على ذلك . ( الرابع ) أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب

وكان لابد من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها فهذه نعمة ( الخامس ) أن ثوابها أكثر منها فان مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة وكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في الغالب ، فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلاء ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ، ومن لم يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة ، والأخبار الواردة في ثواب الصبر على المصائب كثيرة ، ويكفي في ذلك قوله تعالى ( إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ) .

ثم مع فضل النعمة في البلاء كان صلى الله عليه وسلم يستعيد في دعائه من بلاء الدنيا

وعذاب الآخرة ، وكان يستعيز من شماتة الأعداء وغيرها . وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « سلوا الله العافية فما أعطى أحداً أفضل من العافية إلا اليقين » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك ، فعافية القلب أعلى من عافية البدن ، وفي دعائه صلى الله عليه وسلم : « وعافيتك أحب إلي » .  
فَسأَل اللهُ تعالى المانَّ بفضله على جميع خلقه العفو والعافية ، في الدين والدنيا والآخرة ، لنا ولجميع المسلمين .

## كتاب الخوف والرجاء

الرجاء والخوف جناحان بهما يطير انقربون إلى كل مقام محمود . ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كئود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن إلا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم إلا سياط التخويف . فلا بد إذاً من بيان حقائقهما .

### بيان حقيقة الرجاء

قد علم أرباب القنوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر فيه . والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ، ومجرى حفر الأنهار وسياسة الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، وقلما ينفع إيمان مع خبت القلب وسوء أخلاقه ، كما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً غير عفن ولا مسوس ثم أمدّه بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش ، وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمى

انتظاره رجاء وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعبيد البذر أصلاً ، ثم انتظر الحصاد منه ، سمي انتظاره حقاً وغروراً لا رجاء ، وإن بث البذر في أرض طيبة لكن لا ماء لها ، وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضاً سمي انتظاره تمنياً لا رجاء . فإذا سمى الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . فالعبد إذا بث بذر الإيمان وسقاه بماء الطاعات وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المنفضية إلى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه ، باعثاً له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت ، وإن قطع عن بذر لإيمان تعبيده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور . قال صلى الله عليه وسلم : «الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة» وقال تعالى : ( نخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيماً ) وقال تعالى : ( نخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ) ودم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال : ( ما أظن أن تبدي هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منتقياً ) فإذا العبد المجتهد في الطاعات المحتجب بالمعاصي ، حقيق أن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة — وأما المعاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق أن يرجو قبول التوبة ، وإنما الرجاء بعد تاركه الأسباب ولذلك قال تعالى ( إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ) معناه أولئك يستحقون أن يرجو رحمة الله . وقال تعالى ( إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية

يرجون تجارة لن تبور ) فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه حمق كرجاء من بث البذر في أرض سيخة وعزم على أن لا يتعهده بسقى ولا تنقية . قال يحيى بن معاذ : من أعظم الاغترار عندى التمدى فى الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء بغير عمل والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس فإذا حال الرجال يورث طول المجاهدة بالأعمال ، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال . ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى ، والتنعم بمناجاته والتلطف فى التملق له ، فإن هذه الأحوال لا بد وأن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك أو شخصاً من الأشخاص ، فكيف لا يظهر ذلك فى حق الله تعالى ، فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول فى حضيض الغرور والتمنى .

### بيان حقيقة الخوف

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه ، بسبب توقع مكروه فى الاستقبال والعلم بأسباب المكروه ، وهو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه ، وذلك الإحراق هو الخوف . فالخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع ، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصى ، وتارة يكون بهما جميعاً وبحسب معرفته بعيوب نفسه ، ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائاه ، وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون تكون قوة خوفه ، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أنا أخوفكم لله » وكذلك قال الله تعالى ( إنما يخشى الله

من عباده العلماء) ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب ، ثم يفيض أثر الحرقه من القلب على البدن وعلى الجوارح . أما في البدن فبالنحول والبكاء . وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل . وأما في الصناعات فبأن يتمع الشهوات ويكدر اللذات ، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيهِ إذا عرف أن فيه سمّاً ، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والاستكانة ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضئنة بالأنفاس واللحظات ، وهؤ أخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات .

وما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر ، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى الخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان ، وهي مجامع مقامات أهل الجنان ، قال الله تعالى : ( يهدي ورحمة الذين هم لرهبهم يرهبون ) وقال تعالى : ( رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ) وكل ما دل على فضيلة الله دل على فضيلة الخوف ، لأن الخوف ثمرة للعلم .

### الدواء الذي يستجلب الخوف

اعلم أن من قعد به القصور عن الارتقاء إلى مقام الاستبصار ، فسبيله أن يعالج بسمع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين ، فلا يتأري في أن الاقتداء بهم أولى لأهم الأنبياء والأولياء والعلماء . وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأولين والآخرين ، وكان أشد الناس خوفاً حتى روى أنه سمع قائلاً يقول لطفل مات : « هنيئاً لك عصفور من عصفير الجنة » فغضب وقال : « ما يدريك أنه لها أهلاً لا يزداد فيها ولا ينقص منهم »

وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضاً على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأولين لما قالت أم سامة هنيئاً لك الجنة . فكانت تقول أم سامة بعد ذلك والله لا أزكى أحداً بعد عثمان . وروى في حديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد ، فقالت أمه : هنيئاً لك هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره » . وفي حديث آخر أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل ، فسمع امرأة تقول هنيئاً لك الجنة . فقال صلى الله عليه وسلم : « من هذه المتألهة على الله تعالى وما يدريك لعل فلاناً كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يعنيه » وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول « شيبتي هود<sup>(١)</sup> وأخواتها سورة الواقعة ، وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون » فقال العلماء : لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى ( ألا بعداً لعاد قوم هود ، ألا بعداً لثمود ، ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ) مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها ، وفي سورة الواقعة ( ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة ) أى جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة إما خافضة قوماً كانوا مرفوعين في الدنيا ، وإما رافعة قوماً كانوا مخفوضين في الدنيا ، وفي سورة التكويد أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة ، وهو قوله تعالى : ( وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلقت علمت نفس ما أحضرت ) ، وفي سورة عم يتساءلون ( يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ) الآية ، وقوله تعالى ( لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ) .

(١) انظر رسالة « فيض الجود على حديث شيبتي هود » للشيخ عبد العزيز الزمزمى المكي ، مع تعليقاتنا عليها

والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى ( وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ) لكان كافياً إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن أحادها ، وأشد منه قوله تعالى ( فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفالجين ) وقوله تعالى ( ليسأل الصادقين عن صدقهم ) وقوله تعالى ( سنفرغ لكم أيها الثقلان ) وقوله تعالى ( أفأمنوا مكر الله ) الآية ، وقوله تعالى ( وكذلك أوحى ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ) وقوله تعالى ( فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ) الآيتين ، وكذلك قوله تعالى ( والعصر إن الإنسان لفي خسر ) إلى آخر السورة .

فهذه أربعة شروط لتخلص من الخسران ، وإنما كان خوف الأنبياء مع ما أفاض عليهم من النعم لأنهم لم يؤمنوا مكر الله تعالى ( ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ) وخوف الكاملين لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ، ومعاني صفاته .

فأجهل الناس من آمنه وهو ينادى بالتحذير من الأمن ، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وإن القلب أشد ثقلًا من القدر في غليابها ، وقد قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : إن المؤمن لا يسكن روعاً حتى يترك جسر جهنم وراءه .

وروى عن مخاوف الأنبياء والصحابة والتابعين ومن بعدهم مالا يحصى ونحن أجدر بالخوف منهم ، وإن كنا صدقنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا فلا قرب نرحيل يذهبنا ، ولا كثرة الذنوب تحركنا ، ولا خطر الخاتمة يزعجنا ومن العجائب إننا إذا أردنا المال في الدنيا زرنا وغرسنا وأجرنا وركبنا البحر والبراري ، وخاطرنا واجتهدنا في طلب أرزاقنا ، ثم إذا طمحت أعيننا نحو الملا الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بالسنتنا : اللهم اغفر لنا وارحمنا ، والذي إليه رجاء



جل جلاله يقول : ( وأن ليس للإنسان إلا ما سعى — ولا يغرنكم بالله الغرور —  
يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ) ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن  
أودية غرورنا وأمانينا ، فما هذه إلا مجنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح  
يتداركنا بها ، فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا بمنه وفضله .

## كتاب الفقر والزهد

فضيلة النقر والفقراء الراضين والصادقين

عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال » وعنه  
صلى الله عليه وسلم : « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها خمسمائة عام » وعنه  
صلى الله عليه وسلم : « من أصبح منكم معافى في جسمه آمناً في سربه عنده قوت  
يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » ولما طلبت سادات العرب وأغنياؤهم  
من النبي صلى الله عليه وسلم أن ينحى عن مجالسه فقراء الصحابة ترفعاً عن مجالستهم  
إذا جلسوا إليه ، نزل قوله تعالى ( واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة  
والعشي يريدون وجهه ولا تعد عينك عنهم ) يعنى الفقراء ( تريد زينة الحياة  
الدنيا ) يعنى الأغنياء ( ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ) يعنى الأغنياء .  
واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشرف  
قريش ، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى ( عبس وتولى  
أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ) يعنى ابن أم مكتوم  
( أما من استغنى فأنت له تصدى ) يعنى هذا الشريف . وقال يحيى بن معاذ : حاك  
للفقراء من أخلاق المرسلين ، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين ، وفرارك من  
صحبهم من علامة المنافقين ، وعن علي رضي الله عنه مرفوعاً : « أحب العباد إلى  
الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضى عن الله تعالى » .

آداب الفقير في فقره

اعلم أن للفقير آداباً في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها .

( فأما أدب باطنه ) فإن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر

أعنى أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى من حيث أنه فعله وإن كان كارهاً للفقر .

( وأما أدب ظاهره ) فإن يظهر التعفف والتجمل ، ولا يظهر الشكوى

والفقر ، بل يستر فقره . ففي الحديث : « إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف

أبا العيال » وقال تعالى : ( يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ) وأما في أعماله

فأدبه أن لا يتواضع لغنى لأجل غناه . قال على كرم الله وجهه : « ما أحسن

تواضع الغنى للفقير رغبة في ثواب الله تعالى ، وأحسن منه تيه الفقير على الغنى

ثقة بالله عز وجل » فهذه رتبة ، وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب

في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع .

وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً في العطاء ، وأما

أدبه في أفعاله فإن لا يقتر بسبب الفقر عن عباده ، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه

فإن ذلك جهد المقل ، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى .

آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال ، وغرض المعطى ،

وغرضه في الأخذ ( أما نفس المال ) فينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشبهات ،

فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه .

( وأما غرض المعطى ) فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطيب قلبه وطلب محبته

وهو الهدية — أو الثواب وهو الصدقة والزكاة — أو الذكر والرياء والسمعة .

( أما الأول وهو الهدية ) فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة فالأولى تركها ، فإن علم أن بعضها

مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض .

( الثاني ) أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة . فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة . فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة . وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فليُنظر إلى باطنه فإن كان مقارفاً لمعصية في السر لو علمها المعطى لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه — فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوى ولم يكن فإن أخذه حرام محض لاشبهة فيه .

( الثالث ) أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة ، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله ، إذ يكون معيناً على غرضه الفاسد .

( وأما غرضه في الأخذ ) فينبغي أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لا بد له منه أو مستغن عنه . فإن كان محتاجاً إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطى فالأفضل له الأخذ . قال صلى الله عليه وسلم : « من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه فلا يردده » . فأما إذا كان ما أتاه زائداً على حاجته فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء . فإن كان مشغولاً بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه . وإن كان متكفلاً بحقوق الفقراء فليأخذ ما زاد على حاجته فإنه غير زائد على حاجة الفقراء وليبادر به إلى الصرف إليهم — وبالجملة فالزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه . وقدرة الحاجة يأتيك وفقاً بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء ، قال الله تعالى : ( إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ) .

تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب المضطر إليه

اعلم أنه قد وردت مناهج كثيرة في السؤال وتشديدات قال صلى الله عليه وسلم : من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم ، ومن سأل له ما يغنيه جاء يوم ( ١١ — موعظة المؤمنين ٢ )

القيامة ووجهه عظيم يتقعقع وليس عليه لحم . وفي لفظ آخر : « كانت مسألته خدوشاً وكدوحاً في وجهه » وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد . وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيراً بالتعفف عن السؤال ، وسمع عمر رضی الله عنه سائلاً يسأل بعد المغرب ، فقال لواحد من قومه عش الرجل فعشاء ، ثم سمعه ثانياً يسأل ، فقال : ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال قد عشيتك . فنظر عمر فإذا تحت يده مخللة مملوءة خبزاً فقال لست سائلاً ولكنك تاجر . ثم أخذ المخللة ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدرة وقال لاتعد ، ولولا أن سؤاله كان حراماً لما ضربه ولا أخذ المخللاته ، وإنما استجاز ذلك رضی الله عنه لكونه لاح له فيه أنه رآه مستغنياً عن السؤال ، وعلم أن من أعطاه شيئاً فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج وقد كان كاذباً فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التاميس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم فبقي مالا لامالك له فوجب صرفه إلى المصالح وإبل الصدق وعلقها من المصالح . نعم يباح السؤال بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة فالضرورة كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً . وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه وهو مباح مادام السائل عاجزاً عن الكسب فإن القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال إلا إذا استغرق طاب العلم أوقاته وأما المستغنى فهو الذي يطلب شيئاً وعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعاً - وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذي يحتاج إلى دواء ، وكم له جبة ولا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد وكم يسأل الكراء لفرس ، ولا ينبغي أن يأخذ ما يعلم أن باعثه الحياء فإنه حرام محض ، وما يشك فيه فليستفت قلبه فيه ، وليتربس حزاز القلب فإنه الإثم ، وليدع ما يريبه وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل من قويت فطنته ، وضعف حرصه وشهوته ، فإن قوى الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة - وبهذه الدقة يطالع على سر قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه »

وقد ورد في وعيد من يسأل وهو غني قوله صلى الله عليه وسلم : « من سأل عن ظهر غني فإنما يسأل جماً فليستقل منه أو ليستكثر » وقد ورد في حد الغني المحرم لسؤال آثار مختلفة متنوعة يمكن تنزيهاها على اختلاف أحوال المحتاجين ، إذ الحاجة لا تقبل الضبط فأمرها منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى ، يستغنى فيه قلبه ويعمل به إن كان سالكا طريق الآخرة . نسأله تعالى حسن التوفيق بلطفه .

### فضيلة الزهد وحقيقته

قال تعالى : ( ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا انفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ) وقال تعالى : ( من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب ) وفي حديث عمر رضی الله عنه أنه لما نزل قوله تعالى : ( والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ) قال صلى الله عليه وسلم : « تباً للدنيا تباً للدنيا تباً للدينار والدرهم » فقلنا يا رسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأى شيء ندخر ؟ فقال : « ليتخذ أحدكم لساناً ذا كراً وقلباً شاكراً وزوجة صالحة تعينه على أمر آخرته » وعنه صلى الله عليه وسلم : « السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار » والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا ، والسخاء ثمرة الزهد والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة . وعنه صلى الله عليه وسلم : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس » .

ثم إن أصناف ما فيه الزهد تكاد تخرج عن الحصر وقد ذكر الله تعالى في واحدة سبعة منها ، فقال تعالى : ( زين للناس حب الشهوات من النساء البين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ) متاع الحياة الدنيا ) ثم رده في آية أخرى إلى خمسة ، فقال عز وجل :

(اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد) ثم رده في موضع آخر إلى اثنين ، قال تعالى : ( إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ) ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر ، قال : ( ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ) فالهوى : لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا ، فينبغي أن يكون الزهد فيه .

والحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها إلى ما هو خير منها علماً بأن المتروك حقير بالإضافة إلى المأخوذ .

واعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد ، وليس كذلك فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد بل لا بد من الزهد في حظوظ النفس وينبغي أن يعول الزاهد في باطنه على ثلاث علامات :

( الأولى ) أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود — كما قال الله تعالى ( لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ) .

( الثانية ) أن يستوى عنده ذامه ومادحه .

( الثالثة ) أن يكون أنسه بالله تعالى ، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة .

## كتاب النية والإخلاص والصدق

### فضيلة النية

قال الله تعالى : ( واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ) وقال تعالى : ( إن يريدوا إصلاً يوفق الله بينهما ) والمراد بتلك الإرادة هي النية ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . وفي حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك . قال :

« إن بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً ولا وطئنا موطناً يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة » قالوا وكيف ذلك يا رسول الله ليسوا معنا؟ قال « حبسهم العذر » فشركوا بحسن النية ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يبعث كل عبد على ما مات عليه » وفي حديث أبي هريرة : « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان ، ومن ادان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق » .

### تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أن الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام : طاعات ومعاصي ومباحات .  
فأما المعاصي ( فلا تتغير عن موضعها بالنية أعني أن المعصية لا تنقلب طاعة بالنية كالذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره ، أو يطعم فقيراً من مال غيره ، أو يبني مدرسة أو مسجداً بمال حرام وقصده الخير ، فهذا كله جهل والنية لا تؤثر في إخراجها عن كونه ظالماً وعدواناً ومعصية بل قصده الخير بالشر ، على خلاف مقتضى الشرع شر آخر . فإن عرفه فهو معاند للشرع ، وإن جهله فهو عاص بجهله — إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم . والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً هيئات — ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى : ما عصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل . قيل يا أبا محمد هل تعرف شيئاً أشد من الجهل ؟ قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد كلية باب التعلم ، فمن يظن بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم — وكذلك أفضل طبع الله تعالى به العلم ، ورأس العلم العلم بالعلم ، كما أن رأس الجهل بالجهل ، قال تعالى : ( فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ) .  
نعم للنية دخل في المعاصي وهو أنه إذا انضاف إليها قصد خبيثة ، تضاعف بها وعظم وبالها .

( القسم الثانی الطاعات ) وہی مرتبطة بالنیات فی أصل صحتها و فی تضاعف فضلها ، أما الأصل فهو أن ینوی بہا عبادة الله لا غیر ، فإن نوى الرياء صارت معصية ، وأما تضاعف الفضل فبکثرة النیات الحسنة فإن الطاعة الواحدة یمکن أن ینوی بہا خیرات کثیرة ، فیکون له بكل نية ثواب إذ کل واحدة حسنة تضاعف کل حسنة بعشر أمثالها كما ورد ، ومثاله القعود فی المسجد فإنه طاعة و یمکن أن ینوی فیہ نیات کثیرة حتی یصیر من فضائل أعمال المتقین .

( أولها ) أن یعتقد أنه بیت الله وأن داخله زائر لله .

( ثانیها ) أن ینتظر الصلاة بعد الصلاة فیکون فی صلاة .

( ثالثها ) الترهیب بکف السمع والبصر والأعضاء ، عن الحركات والترددات .

( رابعها ) عکوف الهم علی الله ، ولزوم السر للفسکر فی الآخرة ، و دفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد .

( خامسها ) التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره والتذكر به .

( سادساً ) أن یقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهی عن منکر ، إذ المسجد لا یخلو عن یسئ فی صلاته أو یتعاطى ما لا یحل فیأمره بالمعروف ویرشده إلى الدین فیکون شریکاً معه فی خیره الذی یعلم منه فتضاعف خیراته .

( سابعاً ) أن یرتفع أخاً فی الله فإن ذلك غنیمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد معیش أهل الدین المحبین لله و فی الله .

( ثامنها ) أن یتروک الذنوب حیاء من الله تعالی و حیاء من أن یتعاطى فی بیته الله ما یقتضى هتک الحرمه ، فهذا طریق تکثیر النیات ، وقس به سائر الطاعات إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نیات کثیرة وإنما تحضر فی قلب العبد المؤمن بقدر جده فی طلب الخیر وتشمیره له ، فهذا تزکو الأعمال وتتضاعف الحسنات .



( القسم الثالث المباحات ) وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نية ت يصير بها من محاسن القربات كالتطيب مثلاً فإنه بقصد التلذذ والتنعم مباح ، وأما إذا نوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وترويح جيرانه ليستر يحوا بروائحهم ودفعت الرائحة الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه وزيادة فطنته وذكائه ليسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر ، فهذا وأمثاله من النيات الحسنة التي لا يعجز عنها من غلب طلب الخير على قلبه مما ينال بها معالي الدرجات ، وأما من قصد بالطيب إظهار التفاخر بكثرة المال أو رياء الخلق ليذكر بذلك أو ليتودد إلى قلوب النساء الأجنيات أو لغير ذلك ، فهذا يجعل الطيب معصية ويكون في القيامة أنتن من الجيفة ، والمباحات كثيرة لا يمكن إحصاء النيات فيها ، فقس بهذا الواحد ما عداه ، ولهذا قال بعض السلف « إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلى وشربى ونومى ودخولى للخلاء » وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين ، فمن قصد من الأكل التقوى على العبادة ، ومن الوقاع تحصين دينه وتطيب قلب أهله والتوصل به إلى ولد صالح يعبد الله تعالى بعده كان مطيعاً بأكله ونكاحه . وبالجملة ، فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئاً من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشروورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فإن الله مطلع عليك وشهيد و ( ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ) وقد قال الحسن إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة ، فيقول بينى وبينك الله فيقول والله ما أعرفك ، فيقول بلى أنت أخذت لبنة من حائطى ، وأخذت خيطاً من ثوبى ، فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين ، فإن كنت من أولى العزم والنهى ولم تكن من المغترين ، فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك .

فضيلة الإخلاص وحقيقته

قال الله تعالى : ( وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ) وقال : ( ألا الله الدين الخالص ) وقال تعالى ( إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ) وقال تعالى : ( فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ) وعن علي كرم الله وجهه « لا تهتموا لقلة العمل واهتموا لقبول فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعاذ بن جبل : « أخلص العمل مجزيك منه القليل » وقال يعقوب المكفوف : الخالص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته .

واعلم أن كل شيء يقر أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصاً ، ويسمى الفعل المصفي الخالص إخلاصاً ، والإخلاص يضاده الإشراف ، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك إلا أن الشرك درجات ، وقد جرى العرف على تخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب فإذا امتزج قصد التقرب بباعث آخر من رياء أو غيره من حظوظ النفس فقد خرج عن الإخلاص ، ومثاله أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب ، أو يحج ليصبح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من عدوله ، أو يصلي بالليل لغرض دنيوي ، أو يتعلم للعلم ، أو يخدم العلماء والصوفية لذلك أو يعود مريضاً ليعاد إذا مرض أو يشيع جنازة لتشيع جنازة أهله ، أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به ، وينظر إليه بعين الصلاح والوقار ، فهما كان باعته التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطوة من هذه الخطوات حتى صار العمل أخف عاينه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص ، وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك ، وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه ، فإن الخالص من العمل هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله

لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار ، ولذا كان علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإذا ذلك يتيسر الإخلاص ، وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغروراً ، لأنه لا يرى وجه الآفة فيها ، فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق ، وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر .

### فضيلة الصدق ودرجاته

قال الله تعالى : ( رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » .

والصدق درجات ( الأولى صدق اللسان ) وحق على كل عبد أن يحفظ لفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق ، وكما صدق القول الاحتراز عن المعارض ، فقد ميل في المعارض مندوحة عن الكذب ، وذلك لأنها تقوم مقام الكذب إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة ، وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال ، وفي تأديب الصبيان والنسوان ، ومن يجري مجراهم ، وفي الحذر عن الظلمة ، وفي قتال الأعداء ، والاحتراز عن اطلاعهم على الأسرار ، فمن اضطر إلى شيء من ذلك صدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين ، فإذا نطق به هو صادق وإن كان كلامه مفهماً غير ما هو عليه ، لأن الصدق ما أريد لذاته للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه ، نعم في مثل هذا الموضوع ينبغي أن يعدل إلى المعارض ما وجد إليه سبيلاً ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر وري بغيره ، وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى دعاء فيقصد ، وليس هذا من الكذب في شيء ، قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نهي خيراً »  
ورخص في النطق على وفق المصاحبة في ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن  
كان له زوجتان ، ومن كان في مصالح الحرب ؛ والصدق ههنا يتحول إلى النية  
فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير ، فهما صح قصده وصدق نيته  
وتجردت للخير إرادته صار صادقاً وصديقاً كيفما كان لفظه ، ثم التعريض فيه  
أولى وطريقه ما حكى عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره ،  
فقال لزوجته خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي ليس هو ههنا ،  
واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه ، فكان قوله صادقاً ، وأفهم  
الظالم أنه ليس في الدار ، وهذا الذي ذكرناه من الاحتراز عن صريح اللفظ وعن  
المعاريض إلا الضرورة هو السكك الأول في صدق القول وهناك كمال ثان وهو  
أن تراعى معنى الصدق في الفاظه التي يناجي بها ربه كقوله (وجهي وجهي للذي  
فطر السموات والأرض) فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بأمانى  
الدنيا وشهواته فهو كذب ، وكقوله (إياك نعبد) وكقوله (أنا عبد الله) فإنه  
إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صادقاً  
ولو طوَّاب يوم القيامة بالصدق في قوله أنا عبد الله لعجز عن تحقيقه ، فإنه إن كان  
عبداً لنفسه أو عبداً لدنياه أو عبداً لشهواته لم يكن صادقاً في قوله ، وكل ما تقيد  
العبد به فهو عبد له ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد الدينار وتعس عبد  
الدرهم وعبد الحميصة » سمي كل من تقيد قلبه بشيء عبداً له ، وإنما العبد الحق لله  
عز وجل من أعتق من غير الله تعالى ، واشتغل بالله وبمحبتته وتقيد ظاهره وباطنه  
بطاعته ، فلا يكون له مراد إلا الله تعالى .

( الدرجة الثانية ) الصدق في النية والإرادة . ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو  
أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى فإن مازجه شوب من  
حظوظ النفس بطل صدق النية .

( الثالثة ) صدق العزم : وهو الحزم فيه بقوة . والصادق فيه هو الذى تصادق عزمته فى الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد ، بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات ، كمن يقول إن رزقى الله مالا تصدقت بشطره ، وإن أعطانى الله ولاية عدت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق . فصدق هذه العزيمة هو سخاء نفسه بما نوى .

( الرابعة ) فى الوفاء بالعزم فإن النفس قد تسخو بالعزم فى الحال إذ لا مشقة فى الوعد والعزم والمثونة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعالى : ( رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ) فقد روى عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرأ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، أما والله لئن أرانى الله مشيداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين ما أصنع قال فشهد أحداً فى العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال إلى أين فقال واهماً لريح الجنة إني أجد ريحها دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة ، فقالت أخته ما عرفت أخى إلا بثيابه ، فنزلت هذه الآية : ( رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ) .

وقال مجاهد : رجالان خرجا على مالا من الناس قعود ، فقالا إن رزقنا الله تعالى مالا لنصدقن فبخلوا به فنزلت : ( ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخافوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ) فجعل العزم عهداً وجعل الخلف فيه كذباً والوفاء به صدقاً .

( الخامسة ) الصدق في الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به ، فمن وقف على هيئة الخشوع في صلاته لأن يرأى غيره ولكنه في الباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهو كاذب بلسان الحال في عمله غير صادق فيه ، فالصدق فيه هو استواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره .

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى فقد عز في الدارين واستوجب الثنا فإن خالف الإعلان سرّاً فماله على سعيه فضل سوى الكد والعناء ثم درجات الصدق لا نهاية لها ، وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض فإن كان صادقاً في الجميع فهو الصديق حقاً .

## كتاب المحاسبة والمرقبة

بيان لزوم المحاسبة

قال الله تعالى : ( ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ) وقال تعالى : ( ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ) وقال تعالى : ( يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ) وقال تعالى : ( يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يراه ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ) وقال تعالى : ( ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ) وقال تعالى : ( يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه ) وقال تعالى : ( واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ) .

استدل بذلك أرباب البصائر أن الله تعالى لهم بالمرصاد ، وأنهم سيناقشون في الحساب ، ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات ، فتحققوا أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة ، وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات ، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه ، وحضر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه ومآبه ، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته ، وطالت في عرصات القيامة وقفاته ، إلى الخزي والمقت سيئاته ، فحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها ، وخطراتها وخطواتها ، فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنز من كنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد ، فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل .

### بيان مشارطة النفس

إذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه لمشارطة النفس فيقول لها : مالي بضاعة إلا العمر ، ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الريح وهذا اليوم الجديد قد أمهني الله فيه وأنسأني أجلي وأنعم علي به ، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً فأحسبي أنك قد توفيت ثم رددت فأياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا عوض لها ، فلا تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك عن درجات عليين ما يدركه غيرك ، وتبقى عندك لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم الغبن وحسرتة لا يطاق ، وقد قال بعضهم : هب أن المسىء قد عفى عنه أليس قد فاتته ثواب المحسنين ، أشار به إلى الغبن والحسرة ، وقال الله تعالى : ( يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ) فهذه وصيته لنفسه في أوقاته ،

ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل فيوصيها بحفظها عن معاصيها .

( أما العين ) فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم أو إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار . ثم إذا صرفها عن هذا لم يقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله يعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة .

وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن .

( أما اللسان ) فلا أنه منطلق بالطبع ولا مئونة عليه في الحركة . وجنابته عظيمة بالغيبة ، والكذب ، والنميمة ، وتركيبية النفس ، ومذمة الخلق والأطعمة والطعن ، والدعاء على الأعداء ، والممارة في الكلام ، وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان ، فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير ، وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله ، وإصلاح ذات البين وسائر خيراته .

( أما البطن ) فيكلفه ترك الشره ، وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات ، ويمتنعه من الشهوات - وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء ، واستقصاء ذلك يطول . ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها ، ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تكرر عليه في اليوم والليلة وكيفية الاستعداد لها بأسبابها وكذا فيمن يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس وقلمًا يخلو يوم عن مهم جديد وواقعة جديدة تحتاج إلى أن يقتضى حق الله فيها ، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها . ويحذر هامغبة الإهمال ، ويعظها كما يعظ العبد الأبق المتمرد فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ( وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ) .



فضيلة المراقبة

روى أن جبريل عليه السلام سأل النبي صلوات الله عليه عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وقد قال تعالى : ( أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ) وقال تعالى : ( ألم يعلم بأن الله يرى ) وقال تعالى : ( إن الله كان عليكم رقيباً ) وقال تعالى : ( والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون ) وسأل بعضهم عن قوله تعالى : ( رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ) فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده ، وقال رجل للجنيد بم استعين على غض البصر ، فقال بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه .

حقيقة المراقبة

المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه . ويعنى بها حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة ، وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب — أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب وملاحظته إياه — وأما المعرفة فهو العلم بأن الله مطمع على الضمائر عالم بالسرائر ، رقيب على أعمال العباد ، قائم على كل نفس بما كسبت ، وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرية للخلق مكشوف . ثم للمراقب في أعماله نظران نظر قبل العمل ، ونظر في العمل — أما قبل العمل فلينظر إلى همه وحركته أهى لله خاصة أو لهوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فإن كان لله تعالى أمضاه ، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام بنفسه على رغبته فيه وهمه به ، وميله إليه ، وعرفها سوء فعلها وأنها عدوة نفسها — وأما النظر الثانى المراقبة عند الشروع في العمل فذلك بتقدم كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ، ويحسن النية في آتمامه ، ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه .

وهذا ملازم له في جميع أحواله ، لأنه لا يخلو إما أن يكون في طاعة

أو في معصية ، أو في مباح ، فمراقبته في الطاعات بالإخلاص والإكمال ومراعاتها  
الأدب وحراستها عن الآفات ، وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم  
والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير ، وإن كان في مباح فمراقبته بمراعات  
الأدب ، ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها ، ولا يخلو العبد في جملة أحواله  
عن بلية لا بد له من الصبر عايتها ، ونعمة لا بد له من الشكر عليها . وكل ذلك  
من المراقبة ، بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله تعالى عليه ، إما فعلاً  
تلزمه مباشرة ، أو محذور يلزمه تركه ، أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفر  
الله تعالى ويسابق به عباد الله ، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على  
طاعته ، وكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة ( ومن  
يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ) ومن كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل  
فينبغي أن ياتمس أفضل الأعمال ليشغل بها ، فإن من فاتته مزيد ربح وهو قائم  
على دركه فهو مغبون والأرباح تنال بمزايا الفضائل .

### بيان محاسبة النفس بعد العمل

قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ) وهو  
إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال ، وقال تعالى : ( وتوبوا إلى الله جماعاً  
أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ) والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه  
وقال تعالى : ( إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون )  
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في كل  
مائة مرة » وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزاد  
قبل أن توزنوا . وقال مالك بن دينار : رحم الله عبداً قال لنفسه أأستصابت  
كذا ، أأستصاحبت كذا ، ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها قائداً كتاب الله تعالى  
فكان قائداً له ، إذا علمت هذا فينبغي أن يكون للمرء في آخر النهار

طالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة ، أو شهر ، أو يوم ، حرصاً منهم على الدنيا ، وكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة السعادة أبد الآباد — ماهذه المساهلة إلا عن الغفلة وقلة التوفيق — ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين الزيادة من النقصان إن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره ، وإن كان من خسران طالبه بضمانه كلفه تداركه في المستقبل ، فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربحه لنوافل وخسرانه المعاصي ، وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمانة السوء فيحاسبها على الفرائض أولاً ، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عاينها ورغبها في مثلها ، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها ومعانبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه ، وليتكفل بنفسه من الحساب ما يتولاه غيره في صعيد القيامة .

### توبيخ النفس ومعانبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وقد خلقت أمانة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى زيادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها وغطامها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت سردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعدل والملامة جوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية ضية فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعانبتها ، قال الله تعالى : ( وذكروا فإن كرى تنفع المؤمنين ) وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها تتعزز بظننها وهدايتها ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحق فتقول لها

( ١٤ — موعظة المؤمنين ٢ )

يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غفلة  
 وحقاً؟ أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار، وأنت صائرة إلى إحداهما  
 القرب، فمالك تشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم؟ أما تعلمين  
 أن كل ما هو آت قريب، وأن البعيد ما ليس بآت، أما تتدبرين قوله تعالى:  
 ( اقتراب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم  
 إلا استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم).

ويحك يا نفس، إن كانت جراتك على معصية الله لاعتقاد أن الله لا يرى  
 فما أعظم كفرك، وإن كان مع علمك باطلاعه عليك، فما أشد وقار الله  
 وأقل حياءك.

ويحك يا نفس، لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكلم  
 كيف كان غضبك عليه ومقتك له، فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله  
 وشديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه: هيئات هيئات جربى نفسك إن  
 البطر عن أليم عذابه فاحتبسى ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربى أم  
 من النار ليقبين لك قدر طاقتك، أم تغترين بكرم الله وفضله، فمالك لا تتر  
 على كرم الله تعالى في مهمات دنياك فإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات  
 الدنيا مما لا ينتضى إلا بالدينار والدرهم فمالك تنزعين الروح في طلبها وتطم  
 من وجوه الحيل، فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على  
 أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا  
 أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا. وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل  
 وأن رب الآخرة والدنيا واحد، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى.

يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت واللباس  
 والخطب وجميع الأسباب، ولا تتكلمين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى  
 عنك البرد من غير جبة ولبد وخطب وغير ذلك، فإنه قادر على ذلك،

أن العبد ينجو بغير سعي؟ هيهات! كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجمبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخذق الطاعات، وإنما كرم الله تعالى في أن عرّفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا في أن يدفع عنك العذاب دون حصنه.

انظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله، وبأي لسان تجيبين، وأعدى للسؤال جواباً وللجواب صواباً، واعلمي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال، وفي دار زوال لدار مقامة، وفي دار حزن، ونصب لدار نعيم وخلود، واعلمي أنه ليس للدين عوض، ولا للإيمان بدل، ولا للجسد خلف، ومن كانت مطيته الليل والنهار، فإنه يسار به وإن يسره.

فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة، واقبلي هذه النصيحة، فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار — فهذه طريق القوم في معاتبة نفوسهم، ومقصودهم منها التنبيه والاسترعاء، ومن أهمل المعاتبة لم يكن لنفسه مراعيًا، ويوشك أن لا يكون الله عنه راضيًا.

## كتاب التفكير

### فضيلة التفكير

اعلم أنه قد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المفكرين، فقال الله تعالى: (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً) وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما: إن قومًا تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله» وروى في السنة: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة» وقال حاتم: من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكير يزيد الخوف.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى : « استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر » ثم إن ثمرة الفكر هي العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة ، وإذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب ، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح . فالفكر إذاً هو المبدأ أو المفتاح للخيرات كلها ، لأنه الذي ينقل من المكاره إلى المحاب ، ويهدي إلى استثمار العلوم ونتاج المعارف والفوائد .

### بيان مجارى الفكر

اعلم أن أنواع مجارى الفكر أربعة: الطاعات، والمعاصي، والصفات المهلكات، والصفات المنجيات .

( فأما المعاصي ) فينبغى أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة، ثم بدنه ، هل هو في الحال ملابس لعصية يهيم بها فيتركها — أو لا يسهها بالأمس فيتداركها بالترك والندم — أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها — فينظر في اللسان ويقول إنه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والممارة والممازحة والخوض فيما لا يعنى إلى غير ذلك من المكاره فيقرر أولاً في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى . ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها فيحترز منها . ويتفكر في سمعه أنه يصغى به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو ، وأنه ينبغى أن يحترز عنه ، ويتفكر في بطنه أنه إنما يعصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب — إما بكثرة الأكل من الحلال وذلك مكروه عند الله — وإما بأكل الحرام والشبهه فيتفكر في الاحتراز عن مداخله ويتفكر في طريق الحلال وموارده . ويتقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام ، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها — فهكذا في أعضائه حتى يحفظها .

( وأما الطاعات ) فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها

وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير — أو كيف يجبر نقصانها بالنوافل .

ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول إن : العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة ، ولتستعمل في طاعة الله تعالى ، وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة ، فلم لا أفعله . وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم ، فأدخل السرور على قلبه فلم لا أفعله — وكذلك يقول في سمعه إني قادر على استماع كلام ملهوف ، أو استماع حكمة وعلم ، فمالي أعطله ، وقد أنعم الله على به وأودعني لأشكره فمالي أ كفر نعمة الله فيه بتضييعه وتعطيله — وكذلك يتفكر في اللسان ويقول : إني قادر على أن أتقرب إلى تعالى بالتعليم والوعظ ، والتودد إلى قلوب أهل الصلاح والسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة . وكل كلمة طيبة فإنها صدقة — وكذلك يتفكر في ماله فيقول أنا قادر أن أتصدق بالمال الفلاني فإني مستغن عنه ، ومهما احتجت إليه رزقني الله تعالى مثله ، وإن كنت محتاجاً الآن فأنا إلى ثواب الإيثار أحوج مني إلى ذلك المال — وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن دوابه وأولاده فإن كل ذلك أدواته وأسبابه ، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها ليستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ، ويتفكر فيما يرغبه في البدار إلى تلك الطاعات . ويتفكر في إخلاص النية فيها ، وقس على هذا سائر الطاعات .

( وأما الصفات المهلكة التي محلها القاب ) فيعرفها مما تقدم وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة الغرور وغير ذلك ، ويتفقد من قلبه هذه الصفات ، ويتفكر في طريق العلاج مما سلف ذكره .

( وأما المنجيات ) فهي التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر

على النعماء ، والخوف والرجاء ، والزهد في الدنيا والإخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله وتعظيمه ، والرضا بأفعاله ، والشوق إليه ، والخشوع والتواضع له مما تقدم ذكره ، فيتفكر كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى ، فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا عوم ، وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار ، فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم ، فليفتش عن ذنوبه أولاً وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ، ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها ، وليحقق عند نفسه أنه متعرض بمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم ، وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه ، وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتكفر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه ؛ وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه ، وإذا أراد حال الخوف فلينظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة ، ثم لينظر في الموت وسكراته ، ثم فيما بعده من سؤال القبر وحياته وعقابه وديدانه ، ثم في هول النداء عند نفخة الصور ، ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ، ثم في المناقشة في الحساب والمضيقة في النقيير والقطمير ، ثم ليحضر في قلبه صورة جهنم وأهوالها وسلاسلها وأنغلاها وزقومها وصديدها وأنواع العذاب فيها ، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ، وهلم جرا إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها ، وإذا أراد أن يستجيب حال الرجاء فلينظر إلى الجنة ونعيمها ، وأشجارها وحورها ، ولذتها ونعيمها المقيم ، وملكها الدائم ، فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة ، أو انتزعه عن صفات مذمومة .

وأما ذكر مجامع تلك الأحوال فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكير فإن القرآن جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين ، فيه ما يورث الخوف



الرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال ، وفيه ما يزرع عن  
بئر الصفات المذمومة ، فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى  
تفكير فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة ، فقراءة آية بتفكير وفهم خير من  
شتمة بغير تدبر وفهم ، فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة فإن تحت كل  
كلمة منها أسرار لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب  
بعد صدق المعاملة .

وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه قد أوتى جوامع  
كلام ، وكل كلمة من كلماته بحور الحكمة ، ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع  
بها نظره طول عمره .

### بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى

اعلم أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخالقه ؛ وكل  
شئ من الذرات فيها عجائب وغرائب ، تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله  
وعظمته ، وإحصاء ذلك غير ممكن ، فلنذكر من الموجودات ما يدرك بحس  
لبصر فإنه الأقرب إلى الأفهام ، وذلك من الآيات التي حث على التفكير فيها  
القرآن الكريم .

### آية الإنسان

من آياته تعالى الإنسان المخلوق من النطفة ، وأقرب شيء إليك نفسك من  
العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشره  
وأنت غافل عنه ، فيأمن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة  
غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال : ( وفي أنفسكم  
أفلا تبصرون ) وذكر أنك مخلوق من نطفة قدرة ، فقال : ( قتل الإنسان  
مما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته  
فأقبره ثم إذا شاء أنشره ) وقال تعالى : ( ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا

أنتم بشر تنتشرون ) وقال تعالى : ( ألم يك نطفة من منى يعني ثم كان علقة مخلوق فسوى ) وقال تعالى : ( ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم ثم ذكر تعالى كيف جعل النطفة علقة والعلقة والمضغة عظاماً فقال تعالى : ( ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة ) الآية . فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليعلم لفظه ويترك التفكير في معناه . فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قدرة لو تركت ساءت ليضر بها الهواء فسدت وأنتنت كيف أخرجها رب الأرباب من بين الصلب والترائب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم . وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع . وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم . ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه وغذاه حتى نما وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة عاقمة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ، ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة . فدور الرأس ، وشقوق السمع والبصر والأنف وسائر المنافذ ، ثم مد اليد والرجل وقسم رءوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص ، وفي آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات ما لو ذهبنا إلى وصفها لا نقضت في وصفها الأعمار .

فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيصة رقيقة ، ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ، ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنها صغير وكبير وطويل ومستدير ، ومجوف ومسطوع وعريض ودقيق . ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه وبيعض أعضائه مفتقراً للتردد في حاجاته

يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظماً كثيرة بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة ،  
 وقد رشح كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها . ثم وصل مفاصلها ،  
 وربط بعضها ببعض بأوتار أُنبت لها من أحد طرفي العظم ، وألصقه بالعظم الآخر  
 كالرباط له ، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه ، وفي الآخر حفراً  
 غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار الإنسان إن  
 أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عاينه — ولولا المفاصل لتعذر عاينه ذلك . ثم  
 انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها ، فألف بعضها إلى بعض بحيث  
 استوى به كرة الرأس كما تراه ، فمنها ما يخص القحف واللحم الأسفل ، والبقية  
 هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن ، وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب  
 والأضراس والثنايا ، ثم جعل الرقبة مركباً للرأس ثم ركب على الظهر ، وركب  
 الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خريزة ثم وصل  
 عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظم اليدين وعظم العانة وعظم العجز  
 ثم عظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين وتعداد ذلك يطول ، فانظر كيف خلق  
 جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة ، والقصد أن ينظر في مدبرها وخالقها أنه كيف  
 قدرها وألف بين أشكالها وخصصها بعددها المخصوص لأنه لو زاد عليها واحداً  
 لكان وبالاً على الإنسان يحتاج إلى قلعه ولو نقص منها واحداً لكان نقصاناً  
 يحتاج إلى جبره ، ثم أمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها  
 ومنابتها وانشعابها أعجب من هذا كله ، وشرحه يطول ، وكل ذلك صنع الله في  
 قطرة ماء قدرة ، فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات  
 وكواكبها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغربها . فلا تظن أن ذرة من  
 ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم ، بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً ،  
 وأجمع للعجائب من بدن الإنسان ، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب  
 السموات — ولذلك قال تعالى : ( أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها  
 سواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ) فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً

وما صارت إليه ثانياً ، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصرأ أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً ، أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلدأ أو شعراً هل يقدرّون على ذلك؟! بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خاق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه . فالعجب منك لو نظرت إلى صورة تأنق النقاش في تصويرها لكثير تعجبك منه . وأن ترى النطفة القدرة كانت معدمة فخاقها خالقها في الأصلاب والترائب . ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها ، وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها . وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة . فأحكم العظام في أرجائها . وحسن أشكال أعضائها . وزين ظاهرها وباطنها . ورتب عروقها وأعصابها . وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها سماعة بصيرة عالمة ناطقة ، وخاق لها الظهر أساساً لبدنها ، والبطن حاوياً لآلات غذائها ، والرأس جامعاً لحواسها ، ففتح العينين ورتب طبقاتها ، وأحسن شكلها ولونها وهيئتها . ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصلتها ، وتدفع الأقداء عنها . ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها ، وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها ، ثم شق أذنيه وأودعها ماء مرأً ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها ، وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ، ولتحس بديب الهوام إليها ، وجعل فيها تجويفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه ، فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدتها دابة في حال النوم . ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه ، وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه ، وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً وترجماناً ومعرباً عما في القلب ، وزين الفم بالأسنان ولتكون آلة الطحن والكسر والقطع ، فأحكم أصولها وحدد رءوسها وبيض لونها ، ورتب صفوفها ، متساوية الرأس متناسقة

ترتيب كأنها الدر المنظوم ، وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم  
سد منفذه ولتتم بها حروف الكلام ، ثم خلق الخنجرة وهيأها لخروج الصوت ،  
خلق للساز. قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف  
بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها . ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في  
ضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى  
ختلفت بسببها الأصوات ، فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقان  
حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ثم زين  
رأس بالشعر والأصداغ ، وزين الوجه باللحية والحاجبين ، وزين الحاجب  
رقة الشعر واستقواس الشكل ، وزين العينين بالأهداب ثم خلق الأعضاء  
باطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص ، فسخر المعدة لنضج الغذاء ، والكبد  
لحالة الغذاء إلى الدم ، والمثانة لقبول الماء حتى تخرجه في طريق الإحليل ،  
العروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن ، ثم خلق اليدين  
طولها لتمتد إلى المقاصد . وعرض الكف وقسم الأصابع الخمس ، وقسم  
كل أصبع بثلاث أنامل ، ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور  
الإبهام على الجميع . وبهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء . ثم خلق الأظفار  
على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورأها حتى لاتنقطع وليلتقط بها الأشياء  
الدقيقة التي لاتتناولها الأنامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة . ثم هدى اليد إلى  
موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان  
بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل . ثم خلق هذا كله من النظفة  
التي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه .  
انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف  
السبيل حتى تنكس وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل  
وما يحتاج إليه ، ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التمام الثدى

ثم كان بدنه سخيلاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرت والدم سائفاً خالصاً ، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلماتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ، ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجاً ، فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ، ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ، ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخرج خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغنى عن السن وإذا كبر لم يوافق اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها ، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة ، ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه ، فو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه . ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجاً حتى بلغ وتكامل فصار مرافقاً ثم شاباً كهلاً ثم شيخاً إما كفوراً أو شكوراً ، مطيعاً أو عاصياً ، مؤمناً أو كافراً تصديقاً لقوله تعالى : ( هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ) فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية . والعجب كل العجب ممن يرى خطأ حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همته إلى التفكير في النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول : ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته . ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يفغل عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظيمته ولا يحيره جلاله وحكمته — فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها فهو أقرب مجال لفكرك ، وأجلى

شاهد على عظمة خالقك ، وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك ، لاتعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام ، وتشتهى فتجتمع وتغضب فتقاتل ، والبهائم تشاركك في معرفة ذلك وإنما خاصية الإنسان التي حجت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض ومعجائب الآفاق والأنفس إذ بها يدخل العبد في زمرة النبيين والصديقين مقرباً من حضرة رب العالمين ، وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم بكثير إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك — وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلمها ، وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً — وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرك ، ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات .

### آية الأرض

من آياته تعالى أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً ، وسلك فيها سبلاً فجاءاً ، وجعلها ذلولاً لتمشوا في مناكبها ، وجعلها قارة لا تتحرك ، وأرسي فيها الجبال أو تاداً لها تمنعها من أن تميد ، ثم وسع أكنافها حتى عجز الأدميون عن بلوغ جميع جوانبها ، وقد أكثر تعالى في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقر الأحياء ؛ وبطنها مرقد الأموات . قال الله تعالى : ( ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً ) فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات ، وخرجت منها أصناف الحيوانات . ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ صم الصلاب ، وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجري على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً صافياً زلالاً ، جعل به كل شيء حي ، فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لا تحصى ، مختلفة الأشكال

والألوان والطعوم والصفات والروائح يفضل بعضها على بعض في الأكل تسوية  
بماء واحد وتخرج من أرض واحدة . فإن قلت إن اختلافها باختلاف بذورها  
وأصولها فمتى كان في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ومتى كان في حبة واحد  
سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة ؟ ! ثم انظر إلى أرض البوادي وفتش ظاهرها  
وباطنها فتراها تراباً متشابهاً فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج  
بهيج ألواناً مختلفة ونباتاً متشابهاً وغير متشابه لكل واحد طعم وريح ولون وشكل  
يخالف الآخر . فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ، ثم اختلاف  
طبائع النبات وكثرة منافعه ، وكيف أودع الله تعالى فيها العقاقير والمنافع الغريبة  
فهذا النبات يغذي وهذا يقوى ، وهذا يحيى وهذا يقتل ، وهذا يبرد وهذا يسخن  
وهذا يفرح وهذا ينوم ، فلم تنبت من الأرض ورقة ولا نبتة إلا وفيها منافع لا يقدر  
البشر على الوقوف على كنهها ، وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته  
إلى عمل مخصوص ، ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعها  
ومنافعه وأحواله ومعجائبه ، لانقضت الأيام في وصف ذلك . فيكفيك من كل  
يسيرة تدل على طريق الفكر ، فهذه عجائب النبات .

### آية أصناف الحيوانات

اعلم أن من آياته تعالى أصناف الحيوانات وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما  
وانقسام ما يمشى إلى ما يمشى على رجلين وعلى أربع وعلى عشر وعلى مائة  
يشاهد في بعض الحشرات ، ثم انقسامها في المنافع والصور والأشكال والألوان  
والطبائع ، فانظر إلى طيور الجو وإلى وحوش البر وإلى البهائم الأهلية ترى  
من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصوره  
وكيف يمكن أن يستقصى ذلك ، بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقرة أو النحلة  
النحلة أو العنكبوت وهي من صفات الحيوانات في بنائها بيتها وفي جمعها غدها  
وفي إلفها لزوجها ، وفي ادخارها لنفسها ، وفي حذقها في هندسة بيتها ، وفي



إلى حاجاتها لم تقدر على ذلك ، وكل يشهد بشكله وصورته وحركته وهدايته  
وعجائب صنعه لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم ، فالبصير يرى في هذا الحيوان  
الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ، ما تتحير فيه الألباب  
والعقول فضلا عن سائر الحيوانات .

وهذا الباب أيضاً لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وطباعها غير محصورة  
وإنما فقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة — نعم إذا رأى حيواناً  
ولو دوداً — تجدد تعجبه ، وقال : سبحان الله ما أعجبه . والإنسان أعجب  
الحيوانات وليس يتعجب من نفسه !! بل لو نظر إلى الأنعام التي ألفها ونظر  
إلى أشكالها وصورها ، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها  
وأشعارها التي جعلها الله لباساً لخلقها وأكناً لهم في ظعنهم وإقامتهم وآنية  
لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصوراناً لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم .  
ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادي والمفازات  
البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فإنه ما خالقها إلا بعلم  
محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها . فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه  
من غير تفكير ومن غير تأمل وتدبر ، ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو  
العليم الخبير الحكيم القدير ، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة  
من قلوب العارفين بتوحيده ، فما للخلق إلا الإذعان لقمه وقدرته ، والاعتراف  
بربوبيته ، والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته ؛ فمن ذا الذي يحصى ثناء  
عنه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته .  
فلسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته .

آية البحار

من آياته تعالى البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض ، وفيها من عجائب  
الحيوان والجواهر أضعاف ما تشاهده على وجه الأرض ، كما أن سعته أضعاف

سعة الأرض . انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره في صدفه تحت الماء ، وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور ، ثم تأمل ما عدها من العنبر وأصناف النفائس التي يمدفها تعالى على البحر وتستخرج منه ، ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله على وجه الماء ، وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم ، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم .

وأعجب من ذلك كله الماء ما هو أظهر من كل ظاهر ، وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الأجزاء كأنه شيء واحد ، لطيف التركيب سريع القبول للتقطع به حياة كل ما على الأرض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك ، ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها .

فالعجب من آدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويفعل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها . فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ، ففيها متسع للفكر ومجال ، وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته .

### آية الهواء وعجائب الجو

ومن آياته تعالى الهواء اللطيف ، فإن شاء جعله بشراً بين يدي رحمته ، كما قال سبحانه : ( وأرسلنا الرياح لواقح ) فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنبات فتستعد للنماء ، وإن شاء جعله عذاباً على العصاة من خليقته ، كما قال تعالى : ( إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ) .

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق . فهي عجائب ما بين السماء والأرض . وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك في قوله تعالى : ( وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ) وهذا هو الذي بينهما . وأشار إلى تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى : ( والسحاب المسخر بين السماء والأرض ) وحيث تعرض للرعد والبرق والسحاب والمطر ، فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه ، وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له في جو السماء إلى أن يأذن الله في إرسال الماء وتقطيع القطرات حتى يصيب الأرض قطرة قطرة . فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة لعجزوا . وكل ذلك من فضل الجبار القادر لا إله إلا هو .

### آية السموات

ومن آياته تعالى ملكوت السموات وما فيها من الكواكب ، وقد عظم الله تعالى أمر السموات والنجوم في كتابه فما من سورة إلا وتشمل على تفخيمها في مواضع ، وكم من قسم في القرآن بها ، كقوله تعالى : ( والسماء والطارق ) وقوله تعالى : ( فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ) وقد علمت أن عجائب النطفة القدرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون ، وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به ، وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه ، فقال تعالى : ( وفي السماء رزقكم وما توعدون ) وأثنى على المتفكرين فيه ، فقال تعالى : ( ويتفكرون في خلق السموات والأرض ) فارفع رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها ، واختلاف مشارقها

( ۱۳ — موعظة المؤمنين ۲ )

ومغاربها ودهوبها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ، ومن غير تغير في سيرها ، بل تجري جميعاً في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طي السجل للكتب ، وتدبر كثرة كواكبها واختلاف ألوانها وكيفية أشكالها .

ثم انظر إلى مسير الشمس في فلکها في مدة سنة ، ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب ، ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ، ولم تعرف المواقيت ، ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام ، فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة ، وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار ، والنهار في الليل ، وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص ، وانظر كيف أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها ، وعجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشر جزء من أجزائها ، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر .

وعلى الجملة فما من كوكب من الكواكب إلا والله تعالى فيه حكم كثيرة وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه ، فالعجب منك أنك تدخل بيت غني فتراه مزوقاً بالصبيغ مموهاً بالذهب فلا ينتقع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصفه حسنه طول عمرك ، وأنت أبداً تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه ، وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته ، ثم لا تتحدث في ولا تلتفت بقابك إليه ، ليس لك هم إلا شهوتك ، اشتغلت بأنواع الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض ، فاستكثر من معر عجيب صنع الله تعالى لتكون معرفتك بجلاله وعظمته أتم ، والله الملهم .

## کتاب ذکر الموت وما بعده

## فضل ذکر الموت

روی عن النبی صلی اللہ علیہ وسلم أنه قال : « أکثروا من ذکر ہازم اللذات » وعنه صلوات اللہ علیہ : « أکثروا من ذکر الموت فإنه یمحص الذنوب ویزهد فی الدنیا » وعنه علیہ الصلاة والسلام « کفی بالموت واعظاً » وعنه « أکیس الناس أکثرهم ذکراً للموت وأشدھم استعداداً له أولئک هم الأكياس ذهبوا شرف الدنیا وکرامة الآخرة » .

وعن عبد اللہ بن مطرف قال : إن هذا الموت قد نعص علی أهل النعم بنعمهم فاطلبوا نعماً لاموت فیہ .

واعلم أن المنہمک فی الدنیا المكب علی غرورها المحب لشمواتها یغفل قلبہ بحالہ عن ذکر الموت فلا یدکرہ وإذا ذُکر بہ کرهہ ونفر منه أولئک هم الذین ال اللہ فیہم : ( قل إن الموت الذی تفرون منه فإنه ملائیکم ثم تردون إلى عالم غیب والشهادة فینبئکم بما کنتم تعملون ) ثم الناس إما منہمک وإما نائب بتدیء وإما عارف منته — أما المنہمک فلا یدکر الموت وإن ذکرہ فیدکرہ بأسف علی دنیاء ویشتغل بمذمتہ وهذا یزیدہ ذکر الموت من اللہ بعداً — أما التائب فإنه یکثر من ذکر الموت لینبعث بہ من قلبہ الخوف والخشیة فیفی التوبة — وأما العارف فإنه یدکر الموت دائماً لأنه موعد للقاءہ الحیثیہ ، المحب لا ینسی قط موعداً لقاء الحیب . ثم إن أنجع طریق فی ذکر الموت أن ذکر أشكالہ وأقرانہ الذین مضوا قبلہ فیتذکر موتہم ومصارعہم تحت رب ویذکر صورہم فی مناصبہم وأحوالہم ویأمل کیف محال التراب الآن صورہم وکیف تبددت أجزاءہم فی قبورہم وخلت منهم مساجدہم ومجالسہم

وانقطعت آثارهم وأنه مثلهم وستكون عاقبته كعاقبتهم ، فملازمة هذه الأفكار مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب فيستعد له ويتجافى عن دار الغرور ، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقتة . نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسناتها ثم بكى فقال : والله لولا الموت لسكنت بك مسروراً ، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ، ثم بكى رحمه الله تعالى .

### فضيلة قصر الأمل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر : « إذا أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وخذ من حيانك لموتك ومن صحتك لسقمك » . وعن علي رضي الله عنه رفعه : إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل — فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق — وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا . وسبب طول الأمل حب الدنيا والأنس بها والجهل باستبعاد الموت فجأة ولا يدري أن ذلك غير بعيد ، فإن الموت لا وقت له من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع ، ومن ليل ونهار فلا يقدر نزول الموت به مع رؤياه من مات بين يديه ، ولا يقدر أن يشيع جنازته وهو لا يزال يشيع الجنائز ، فما أغفله وما أجهله . فسبيله أن يقيس نفسه بغيره ، ويعلم أنه لا بد وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره ، ولا علاج لذلك إلا الإيمان باليوم الآخر ، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب . فمهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فإن حب الخطير هو الذي يحو عن القلب حب الحقير .

### المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اغتتم خمساً قبل خمس : شبابك قبل

هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك « وقال صلى الله عليه وسلم : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » أى أنه لا يفتنهما ، ثم لا يعرف قدرهما عند زوالهما . وكان الحسن يقول فى موعظته : المبادرة فإنما هى الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقربون بها إلى عز وجل . رحم الله امراً نظراً إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه . ثم قرأ هذه الآية : ( إنما نعد لهم عدداً ) يعنى الأنفاس . آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخولك فى قبرك .

وسبب التأخير هو الأنىس بالدنيا وشهواتها والتسويق ، فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض فى شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال آخر . وهكذا على التدرج يؤخر يوماً بعد يوم ويفضى به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تخطفه المنية فى وقت لا يحتسبه ، فتطول عند حسرتة ، وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف ، يقولون واحزنناه من سوف ، والمسوف المسكين لا يدري أن الذى يدعوهُ إلى التسويق اليوم هو معه غداً ، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخاً ، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض فى الدنيا فراغ قط ، وهيهات فما يفرغ منها إلا من اطرحها :

فما قضى أحد منها لبانته وما انتهى أرب إلا إلى أرب

نسأله تعالى أن لا يجعل لنا بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء .

بيان سكرة الموت والاعتبار بالجنائز وزيارة القبور

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجرد لها لكان جديراً بأن يتنقص عليه عيشه ، ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعدادده لاسياً وهو فى كل نفس بصدده — كما قال بعض الحكماء « كرب بيد سواك

لا تدرى متى يفشاك . واعلم أن الجنائز عبرة للبصيرة ، وفيها تنبيه وتذكير  
 لأهل الغفلة فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قسوة ، لأنهم يظنون أنهم أبدأً إلى  
 جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون أو يحسبون  
 ذلك ، ولكنهم على القرب لا يقدرون ، ولا يتفكرون أن المحمول على الجنائز  
 هكذا يحسبون . فبطل حسابهم وانقرض على القرب زمانهم ، فلا ينظر عبد إلى  
 جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها ، فإنه محمول عليها على القرب وكأن قد . ولعله  
 في غد أو بعد غد . قال ثابت البناني : كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعاً  
 باكياً — فهكذا كان خوفهم من الموت ، والآن لا تنظر إلى جماعة يحضرون  
 جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه  
 لورثته ، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي يتناول بها بعض ما خلفه  
 ولا يتفكر واحد منهم إلا ما شاء الله في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل عليها  
 ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسينا الله تعالى  
 واليوم الآخر والأهوال التي بين يدينا فصرنا نغفل ونلهو بما لا يعنيننا فنسأل الله  
 تعالى اليقظة من هذه الغفلة .

( فمن آداب حضور الجنازة ) التفكير والتنبه والاستعداد والمشى أمامها على

هيئة تواضع ، ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقاً ، وإساءة الظن بالنفس  
 وإن كان ظاهرها الصلاح ، فإن الخاتمة مخطرة لا يدرى حقيقتها .

( وأما زيارة القبور ) فهي مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار ، وقد كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ، ثم أذن في ذلك بعد —  
 وأما النساء فلا يفي خير زيارتهن بشرها ، يكثرون الهجر على رعوس المقابر  
 ولا يخلون في الطريق عن كشف وتبرج وهذه عظامم ؛ والزيارة سنة فكيف  
 يحتمل ذلك من أجلها ، نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذله ترد أعين



الرجال عنها — وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر .

والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلاً لوجه الميت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يقبله ، فإن ذلك من عادة النصارى . قال نافع : كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول : السلام على النبي ، السلام على أبي بكر ، السلام على أبي ، وينصرف . وكان بعض السلف إذا وقف على باب المقابر يقول : آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم ، وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم . فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها والمزور الانتفاع بدعائه ، فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به ، وإنما يحصل له الاعتبار بأن يتصور في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه ، وكيف يبعث من قبره وأنه على القرب سيلحق به ، ويستحب الثناء على الميت وأن لا يذكر إلا بالجميل . قال صلى الله عليه وسلم : « لاتسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا » .

### بيان المأثور عند موت الولد

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله في تقدمه عليه في الموت منزلة ما لو كان في سفر فسبقه إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب وليس بينهما إلا تقدم وتأخر ، وهكذا الموت فإن معناه السابق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخر ، وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه — لا سيما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب ، فعن أبي هريرة رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم : « اسقط أقدامه بين يدي أحب إلى من فارس أخلفه خلفي » وإنما ذكر السقط تنبيهاً بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جنة من النار » فقالت امرأة أو اثنان يا رسول الله ، قال « أو اثنان » وليخلص الولد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرجى دعاء وأقربه إلى الإجابة . وقف أبو سنان على قبر ابنه فقال : اللهم قد غفرت ما وجب لي عليه فاغفر له ما وجب لك عليه فإنك أجود وأكرم . ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال : اللهم إني قد وهبت له ما قصر فيه من برى فهب له ما قصر فيه من طاعتك ، وينبغي أن يتذكر عند موت الولد الفجائع الكبرى ليتسلى بها عن شدة الجزع ، فما من مصيبة إلا ويتصور ما هو أعظم منها ، وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر .

ذكر ما بعد الموت من البرزخ وأهوال القيامة

كما أن الموت شدة في أحواله وسكراته وخطراً في خوف العاقبة ، كذلك الخطر في مقاساة ظلمة القبر وديدانه ، ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ، ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوباً عليه ، وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من نفتح الصور والبعث يوم النشور ، والعرض على الجبار ، والسؤال عن القليل والكثير ، ونصب الميزان لمعرفة المقادير ، ثم جواز الصراط ، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء — إما بالإسعاد وإما بالإشقاء — فهذه أحوال وأهوال لا بد لك من معرفتها ، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ، ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها ، وأثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ، ولم يتمكن من سويدهاء أفئدتهم ، ويدل على ذلك شدة تشميرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها مع ما تكثفه من المصاعب والأهوال بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ، ثم غفلت عنه قلوبهم ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم قال لصاحبه الذي أخبره صدقت ، ثم مد يده لتناوله كان مصدقاً بلسانه ومكذباً بعمله .

وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان ، فمثل نفسك وقد بعثت من قبرك مبهوتاً من شدة الصاعقة شاخص العين نحو النداء ، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم ، وقد أزعجهم الرعب مضافاً إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال الله تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » والتفكر في الخلائق وذلمهم وانكسارهم واستكاثرتهم انتظاراً لما يقضى عابهم من سعادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم ، فكيف حالك وحال قلبك هنالك ، وقد بدلت الأرض غير الأرض والسموات وطمس الشمس والقمر وأظلمت الأرض واشتبك الناس وهم حفاة عراة مشاة وازدحموا في الموقف شاخصة أبصارهم ، منقطرة قلوبهم ، فتأمل يا مسكين في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه والحجاة والحياء من الافتضاح عند العرض على الجبار تعالى ، وأنت عار مكشوف ذليل متحير مبهوت منتظر لما يجري عليك القضاء بالسعادة والشقاوة وأعظم بهذه الحال فإنها عظيمة ، واستعد لهذا اليوم العظيم شأنه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه « يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هولاء قد انتشرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت . والجحيم قد سعرت ، والجنة قد أزلقت .

وقد وصف الله بعض دواهي يوم القيامة . وأكثر من أساميه ، لتقف بكثرة أساميه على كثرة معانيه ، فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب ، بل الغرض تنبيه أولى الألباب ، فتحت كل اسم من أسماء

القيامة سر ، وفي كل نعت من نعوتها معنى . فاحرص على معرفة معانيها .  
فمن أساميتها :

( يوم القيامة ) و ( يوم الحسرة ) و ( يوم المحاسبة ) و ( يوم الزلزلة )  
و ( يوم الصاعقة ) و ( ويوم الواقعة ) و ( يوم القارعة ) و ( يوم الغاشية )  
و ( يوم الراجفة ) و ( يوم الحاقة ) و ( يوم الطامة ) و ( يوم الصاخة )  
و ( يوم التلاقي ) و ( يوم التناد ) و ( يوم الجزاء ) و ( يوم الوعيد )  
و ( يوم العرض ) و ( يوم الوزن ) و ( يوم الفصل ) و ( يوم الجمع )  
و ( يوم البعث ) و ( يوم الخزي ) و ( يوم عسير ) و ( يوم الدين )  
و ( يوم النشور ) و ( يوم الخلود ) و ( يوم لا ريب فيه ) و ( يوم  
لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ) و ( يوم تشخص فيه الأبصار ) و ( يوم  
يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ) و ( يوم لا ينفع مال ولا بنون  
إلا من أتى الله بقلب سليم ) .

فالويل كل الويل للغافلين ، يرسل الله لنا سيد المرسلين ، وينزل عليه  
الكتاب المبين ، ويخبرنا بالصفات من نعوت يوم الدين ، ثم يعرفنا غفلتنا  
ويقول : ( اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من  
ربهم محذث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ) ثم يعرفنا قرب القيامة  
فيقول : ( اقتربت الساعة وانشق القمر — إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً —  
وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ) ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ  
دراسة هذا القرآن عملاً ، فلا نتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم  
وأساميه ، ولا نستعد للتخلص من دواهيته . فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن  
يتداركنا الله بوسع رحمته .

صفة السؤال

ثم تفكر يامسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاهاً من غير ترجمان فتسأل عن القليل والكثير والنقير والقطمير ، فبينما أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظامها ، إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء إلى موقف العرض على الجبار فيقومون صفّاً صفّاً محدقين بالخلائق من الجوانب وينادون واحداً بعد واحد فعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ، ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ، ولا يكشف سترهم على ملائ الخلائق ، وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش « وأشرق الأرض بنور ربها » وأيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه ، وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه ، فيبدأ سبحانه بالأنبياء ( يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ) فيالشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء من شدة الهيبة . ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاهاً عن قليل عمله وكثيره . عن سره وعلايته ، وعن جميع جوارحه وأعضائه . فكيف ترى حياك وخجلتك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك ، وأياديه ومساويك ، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك وأنت بقلب خافق وطرف خاشع وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فكم من فاحشة نسيتهما فتذكرها ، وكم من طاعة غفلت عن آفاتهما فأنكشف لك عن مساويها ، فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه . وبأى لسان تجيب ، وبأى قلب تعقل ماتقول ، وفي الخبر : « لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وماذا عمل فيما علم » . فأعظم يامسكين حياتك عند ذلك وبخطرك . ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان وتطير الكتب

إلى السمائل والأيمان ( فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية ) .

### صفة الخصماء ورد المظالم

اعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه ، ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله ، وخطراته ولحظاته ، وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل أو يموت توبة نصوحاً ، ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى ؛ ويرد المظالم حبة بعد حبة ، حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة — فهذا يدخل الجنة بغير حساب ، وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذه بيده — وهذا يقبض على نصيته — وهذا يقول ظلمتني — وهذا يقول شتمتني — وهذا يقول استهزأت بي — وهذا يقول جاورتني فأسأت جوارى — وهذا يقول عاملتني فغششتني — وهذا يقول أخفيت عيب سلعتك عني — وهذا يقول كذبت في سعر متاعك ، وهذا يقول رأيتني محتاجاً وأنت غني فما أكرمتني ، وهذا يقول وجدتني مظلوماً وكنت قادراً على دفع الظلم عني فما راعيتني . فبينما أنت كذلك وقد أنشبت الخصماء فيك مخالبيهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم ، إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله ( اليوم تجزي كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ) فعند ذلك ينخاع قلبك وتذكر ما أنذرك الله على لسان رسوله حيث قال ( ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهبطين متنعين رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ) فما أشد تحرك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم ، وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف بك على بساط العدل وكشف عن فضائحك ومساويك ، فاحذر من التعرض لسخط الله وعقابه الأليم . واستقم على صراطه المستقيم . فمن

استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا ، وأثقل ظهره بالأوزار وعصى ، تعثر في أول قدم من الصراط وتردى .

القول في أهوال جهنم وقانا الله عذابها

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال ، دع التفكير فيما أنت مرتحل عنه . واصرف الفكر إلى موردك فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قال سبحانه : ( وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ) فأنت من الورود على يقين ، ومن النجاة في شك ، فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه ، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من داهي القيامة ما قاسوا ، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفاً ينتظرون حقيقة أنبأها وتشفيح شفعاها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب وأظلت عليهم نار ذات لهب وسمعوا لها زفيراً يفصح عن شدة الغيظ والغضب فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب ، وجثت الأمم على الركب . حتى أشفق البراء من سوء المنقلب — فهناك تسوق الزبانية المجرم إلى العذاب الشديد وينكسونه في قعر الجحيم ، ويقولون له ذق إنك أنت العزيز الكريم ، فأسكنوا داراً يخلد فيها الأسير ، ويوقد فيها السعير : وشرابهم فيها الحميم ، ومستقرهم الجحيم . شدت أقدامهم إلى النواصي ، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها . يامالك قد نضجت منا الجلود . يامالك أخرجنا منها فإننا لا نعود . فتقول الزبانية هيهات لات حين أمان ، ولا خروج لكم من دار الهوان ، فاحسثوا فيها ولا تكلمون ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون . فعند ذلك يقنطون ، وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون . ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف ، يدعون

بالویل والثبور ، وتغلی بهم النار کغلی القدور ، وتهشم بمقامع الحديد جباههم ،  
 فينفجر الصديد من أفواههم ، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف  
 لو نظرت إليهم وقد اسودت وجوههم أشد سواداً من الحميم ، وأعميت أبصارهم  
 وأبكت أسننتهم وكسرت عظامهم ، ومزقت جلودهم ، ولهب النار سار في  
 بواطن أجزائهم ، وحيات الهاوية وعقاربها ، تشبثة بظواهر أعضائهم . هذا  
 بعض جملة أحوالهم وانظر إلى تفاوت الدرجات فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر  
 تفضيلاً ، فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمنهم منهمك مستكثر كالغريق  
 فيها ومن خائض فيها إلى حد محدود ، فكذلك تناول النار لهم متفاوت فإن الله  
 لا يظلم مثقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان بل  
 لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبيه ، إلا أن أقلهم عذاباً لو عرضت  
 عليه الدنيا لافتدى بها من شدة ما هو فيه . فيالحسرة هؤلاء وقد بلوا بما بلوا به  
 ولم يبق معهم شيء من الدنيا ولذاتها .

فانظر يا مسكين في هذه الأهوال . والعجب منك حيث تضحك وتلهو  
 وتشتغل بمحقرات الدنيا واست تدرى بماذا سبق القضاء في حقك ( فإن قلت )  
 فليت شعري ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجعى وما الذى سبق به القضاء  
 في حقى فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهو أن تنظر إلى أحوالك  
 وأعمالك فإن كلا ميسر لما خلق له ، فإن كان قد يسر لك سبيل الخيرات فأبشر  
 فإنك مبعث عن النار ، وإن كنت لا تقصد خيراً إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه  
 ولا تقصد شراً إلا ويتيسر لك أسبابه ، فاعلم أنك مقضى عليك ، فإن دلالة هذا  
 على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار ، فقد قال الله تعالى :  
 ( إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ) فاعرض نفسك على الآيتين وقد  
 عرفت مستقرك من الدارين .



صفة الجنة وأصناف نعيمها

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها يقابلها دار أخرى فتأمل في نعيمها وسرورها ، فإن من بعد من إحداها استقر لا محالة في الأخرى فسق نفسك بسوط التقوى لتنال الملك العظيم ، وتسلم من العذاب الأليم ، فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم جالسين على منابر الياقوت ، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل ، مخفوفة بالغلمان والولدان مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان ، لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان ، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم ، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يخافون فيها ولا يحزنون ، ومن ريب المنون آمنون . فيعجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ، كيف يأنس ويتهنأ بعيش دونها ، والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان ، مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثنان ، لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها ، وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته ، كيف وأهلها ملوك آمنون ، وفي أنواع السرور ممتعون ، لهم فيها كل ما يشتهون ، وإلى وجه الله الكريم ينظرون ، وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ، ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقراً القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان ، واقراً قوله تعالى : ( ولن خاف مقام ربه جنتان ) إلى آخر سورة الرحمن ، واقراً سورة الواقعة وسورة الإنسان وغيرها من السور ، ففيها ما يدل على أن ثمة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما ورد في الأثر ، ويكفي من الاطلاع على جملتها ما بينا ، وقد ورد في تفصيل صفتها كثير من الأخبار المدونة في الأسفار الكبار .

واعلم أن درجة الآخرة متفاوتة فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ،  
وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة ، والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً ،  
فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر ، فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد  
أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها ، وقال  
تعالى : ( وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت  
للمتقين ) ، وقال تعالى : ( إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف  
في وجوههم نضرة النعيم يستقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس  
المتنافسون ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون ) .

اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، ونعوذ بك من النار  
وما قرب إليها من قول أو عمل ، ونستغفرك من كل ما زلت به القدم أو طغى به  
القلم ، يا واسع المغفرة يا أرحم الراحمين ؟

## خاتمة الكتاب لناشره

نحمد ربنا العلي الكبير ، ونشكره على ما وهبنا من العقل والتفكير ، للإرشاد والتبشير ، حتى لا تسرى الغفلة من الصغير إلى الكبير ، ونصلي ونسلم على نبيه البشير النذير ، وعلى آله وأصحابه أولى الفضل الخطير .

( أما بعد ) فإن أفضل ما وعظ به المتقون ووصل به العارفون كتاب الله وسنة نبيه وهدى الراشدين من بعده ، فطوبى لمن اتعظ ، وبشرى لمن استيقظ واستعد لمآبه وإيابه إلى ربه بالأعمال الصالحة ، والنظر في آياته الواضحة ، حتى استنار وأنار الطرق للطالبيين ، ويا سعادة من نصب نفسه للإفادة وقومها بالاستفادة ، فذلك مقام الأنبياء والمرسلين . وقد حذا حذوهم العارفون ، واستند بنور معارفهم العالمون ، فأوضحوا ما ستروه ، وفصلوا ما أجهلوه ، حتى أرضوا ربهم وضميرهم ، وقابلوه بوجوه بيضاء ، وقلوب سليمة نورا ، قد أعد لهم أحسن الجزاء . وكان في مقدمتهم بل واسطة عقد سعادتهم ( حجة الإسلام الغزالي ) حيث لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أنارها وأوضحها ، ووقف حياته خدمة للدين وموعظة للمؤمنين وتمحيصاً للحقائق من شبهات المرتابين فألف ووضح وبين وأفصح حتى تلاشت الشبهات ، وأتى بالآيات البيّنات ، فاستحق أن يسمى ( بحجة الإسلام ) وإمام المساميين ، وكان من أجمع كتبه للحقائق وأنفعها في كشف الغوامض والدقائق كتابه الموسوم ( بإحياء العلوم ) غير أنه لا يخلو من أبحاث علمية ومواضيع فلسفية تعزب عن معرفتها عامة المؤمنين وتبعد عن تناولها أفهام القاصرين ، فكان محتاجاً لتمحيصه من المباحث وتخليصه من مواضع الخوض في بحار الجدل ، وتشریح المسائل في الرد على المبطلين ، ودحضه حجج المرتابين ليكون معيناً عذباً للواردين وعسلاً مصفى للشاربين ، وقد تمنى مثل هذا العمل

المبرور والسعي المشكور الأستاذ الإمام المرحوم ( الشيخ محمد عبده ) مفتي الديار المصرية ، وصرح بحاجة الأمة الإسلامية إلى اختصار كتاب الإحياء والاكتفاء بمواضعه وأبحاثه بالتقدير الذي يسهل فهمه على عموم الطبقات ، ولا يصعب دركه على غير المشتغلين باللغويات والاصطلاحات ، وكان ذلك بحضرة الأستاذ الكبير والعالم العارف الشهير صاحب هذا المختصر النفيس فقيه العلم والأدب المغفور له ( الشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي ) رضى الله عنه أيام أن كان نزيلاً عنده بمصر عام ١٣٢١ هـ كما أشار إلى ذلك في خطبته ، فتوافقا على حسن هذا العمل ولزومه للأمة في هذا الزمن ، فأخذ على عاتقه هذا العمل المبرور المرحوم الأستاذ القاسمي المذكور ، فصنف مختصره الموسوم ( موعظة المؤمنين — من إحياء علوم الدين ) . فجاء بحمد الله سفينة الواعظ ، وبقية المتعظ ، وجعبة النصح ، وتذكرة الدعوة ، وموعظة المؤمنين ، وروح الأحياء . وصنفه بعد الروية واستقراء حال الأمة ، وبعد أن عبر بواطن قلوبهم مستظلاً ، وخاض في بحر أحوالهم مستخبراً ، أى الدواء أنجع ، وأى العلاج أنفع ، فلذلك قام بهذه الخدمة الدينية ، ولا إخال إلا أن الغزالي نفت في روعه ليكتب ، أو أملى عليه ما يناسب العصر ليستخلصه حتى تم كما أراداً معاً واتفقاً عليه وضعاً . وأتاح الله الأسباب لنشره وسهل طريق طبعه لنفع الأمة أن قد تشرفت بمقابلة مؤلفه المرحوم القاسمي برواق الأكراد بالجامع الأزهر الشريف ، وتذاكرنا معه فيما ينفع الأمة ، ويهم العام من الوعظ والإرشاد .

ولما رأى شغفى لنشر أمثال تلكم المواضيع النافعة ، سمحت نفسه الكبير وارتاح ضميره إلى إهدائي هذا الكتاب المستطاب لأنه من أنفع ما يهدى لأولي الألباب ، في هذا الزمن ، خصوصاً وهو يرد شذوئية الدين بعد شيخوخته ، وينهض بالعالم الإسلامي من وهدهته وسقطته — فتقبلته منه شاكراً لأنعمه ومكثت أترقب

المكثرة لنشره وأتتهز الفرصة لطبعه . فوق الله حظ الوعظ أن هياً لطبعه الأسباب  
وفتح أمامي لتكميله كل باب .

هذا، ولما شاع في الوعظ صيته وعم البلاد والآفاق ذكره، توارد عليه الإقبال  
من كل فج ، وتوالت الطلبات من كل صوب ، فنقدت الطبعات « الأولى والثانية  
والثالثة » جميعها فأردنا إعادة طبعه ترمياً للثرائب ، وإجابة لسؤال كل طالب ،  
راجين أن يوفق الله الواعظين لاقتنائه ، والمتعظين للانتفاع به ، مع حسن النية  
وخلوص الطوية .

وقد اعتنينا بطبعه في هذه المرة على ورق جيد وحروف جميلة مع ضبط  
الشكل للآيات والآحاديث وتصحيح متن ، ووضعنا عنواناته أحسن وضع ،  
حتى جاءت زينة المطبوعات ، ومشتقى الرغبات ، وبهجة للناظرين ، وسروراً  
للقارئين . راجين من الله سبحانه وتعالى أن يثيبنا بقدر ما بدلنا من العناية  
وخلوص النية ، وأن يعمم النفع به لعموم المشتغلين بالوعظ والإرشاد ، إنه ولينا  
في المبدأ والمعاد .



فهرس الجزءين الأول والثانى من كتاب

موعظة المؤمنین

من إحياء علوم الدين





# فهرس الجزء من الأول والثاني من كتاب

## موعظة المؤمنین

من إحياء علوم الدين

### فهرس الجزء الأول

صفحة	صفحة
١٥	٢
القسم الثاني طهارة الأحداث	خطبة الكتاب
١٥	أهمية موعظة العامة والتصدي
آداب قضاء الحاجة وكيفية الاستنجاء	لإرشادهم
١٦	٣
كيفية الوضوء وما يكره في الوضوء	بيان في من يصلح للوعظة والذكرى
١٧	من هو المذكر والواعظ والمرشد
الاعتبار بالطهارة - كيفية الغسل	٣
١٨	اضطرار المذكر إلى مادة تعينه على
كيفية التيمم	ذكره . عدم وجود ما ألف لموعظة
١٨	العامة واهتداء المؤلف للمواضع
القسم الثالث من النظافة - التنظيف	القريبة لهذا الموضوع - ومنها
عن الفضلات الطاهرة وهي نوعان	الإحياء على شرط اختصاره -
أوساخ وأجزاء .	ولذلك انتدب المؤلف لتلخيصه .
١٩	( كتاب العلم )
آداب الحمام وما قيل فيه	٥
٢١	فضيلة العلم
باب أسرار الصلاة ومهماتها	٦
٢٢	فضيلة التعلم - فضيلة التعليم
فضيلة الأذان - فضيلة المكتوبة	٧
٢٢	بيان العلم الذي هو فرض عين
فضيلة إتمام الأركان	( كتاب عقيدة أهل السنة )
- فضيلة الجماعة	( والجماعة في كلتي الشهادة )
٢٢	١١
فضيلة السجود - وجوب الخشوع	( كتاب أسرار الطهارة )
٢٤	١٣
فضيلة المسجد وموضع الصلاة	القسم الأول في طهارة الخبث
٢٤	
أعمال الصلاة الظاهرة	
٢٧	
المنهيات - تمييز الفرائض والسنن	
٢٨	
بيان الشروط الباطنة من أعمال	
القلب وبيان اشتراط الخشوع	

صفحة	صفحة
٦٥ شروط وجوب الحج وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته	٢٩ بيان المعاني الباطنة التي بها تتميز حياة الصلاة
٦٧ ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع وهي عشر جمل	٣١ بيان الدواء النافع في حضور القلب
الجملة الأولى في السير من أول الخروج إلى الإحرام وفيها مسائل	٣٢ بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط
٦٨ الجملة الثانية في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة	٣٩ وظائف الإمام
٦٩ الجملة الثالثة في آداب دخول مكة إلى الطواف	٤١ فضل الجمعة - وآدابها
— الجملة الرابعة في الطواف .	٤٣ مسائل متفرقة يحتاج إلى معرفتها
٧٠ الجملة الخامسة في السعي	٤٥ بيان نوافل العبادات
— الجملة السادسة في الوقوف وما قبله	٤٧ الأوقات التي تكبره فيها الصلاة
٧١ الجملة السابعة في بقية أعمال الحج	٤٨ ( كتاب أسرار الزكاة )
٧٣ الجملة الثامنة في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع	— أداء الزكاة وشروطها
— الجملة التاسعة في طواف الوداع	٤٩ سر كون الزكاة من مباني الإسلام
٧٤ الجملة العاشرة في زيارة المدينة	٥٠ وظائف المذكي
٧٥ سنن الرجوع من السفر	٥٤ مصارف الزكاة - وأصناف قابضها
— الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة	٥٥ وظائف القابض وهي أربعة
٧٧ طريق الاعتبار بأعمال الحج الباطنة	٥٧ فضيلة الصدقة - وجوب فضل إخفاء الصدقة
٧٩ ( كتاب آداب تلاوة القرآن )	٥٨ ( كتاب أسرار الصوم )
— فضل القرآن وأهله وذم المقصير في تلاوته	٥٩ الواجبات والسنن الظاهرة واللوازم
٨٠ ظاهرة آداب التلاوة	٦٠ لوازم الإفطار
٨١ أعمال الباطن في التلاوة - سبع	٦١ سنن الصيام وأنواعه ودرجاته
٨٥ ( كتاب الأذكار والدعوات )	— أسرار الصوم وشروطه الباطنة
	٦٣ ( كتاب أسرار الحج )
	٦٤ فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة وشد الرحال إلى المساجد

صفحة	صفحة
١٠٧ ( كتاب آداب النكاح ، والترغيب فيه )	٨٦ فضيلة مجالس الذكر - فضيلة التهليل - فضيلة التسييح والتحميد وبقية الأذكار
١٠٣ فوائد النكاح	٨٧ سر فضيلة الذكر - فضيلة الدعاء
١٠٩ وما يراعى من أحوال المرأة	٨٨ آداب الدعاء وهى عشرة
١١١ آداب المعاشرة بعد العقد إلى الفراق والنظر فيما على الزوج والزوجة أما الزوج فعليه مراعاة اثني عشر أدبا	٨٩ فضيلة الصلاة على النبي عليه السلام
١١٧ حقوق الزوج على الزوجة	٩٠ فضيلة الاستغفار
١١٩ ( كتاب آداب الكسب والمعاش )	٩١ آداب النوم
١٢٠ بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة وهو ينقسم إلى أقسام :	٩٢ بيان أن الأوراد للمتجرد للعبادة
القسم الأول فيما يعم ضرره وهو أنواع	٩٣ فضيلة قيام الليل
١٢٢ القسم الثانى ما يخص ضرره المعامل	— الأسباب المسهلة لقيام الليل - بيان لذة المناجاة عقلا ونقلا
١٢٥ الإحسان فى المعاملة	٩٥ طرق القسمة لأجزاء الليل
١٢٧ شفقة التاجر على دينه	٩٦ ( كتاب آداب الأكل والضيافة )
١٢٩ ( كتاب الحلال والحرام )	— بيان ما لا بد للأكل من مراعاته وهو ثلاثة أقسام :
١٣٠ أصناف الحلال ومدخله	القسم الأول فى الآداب المتقدمة على الأكل
١٣١ درجات الحلال والحرام	٩٧ القسم الثانى فى آدابه حالة الأكل
١٣٣ مراتب الشبهات	٩٨ القسم الثالث ما يستحب بعد الطعام
١٣٥ تنبيه : لا ينبغي الاشتغال بدقائق الورع إلا بحضرة عالم متقن	— آداب الاجتماع على الأكل
١٣٦ البحث والسؤال فى الحرام والحلال	١٠٠ فضل تقديم الطعام إلى الزائرين
— كيفية خروج التائب من المظالم	١٠١ بيان ما يخص الدعوة والضيافة
١٣٨ ( كتاب آداب الألفة والأخوة والصحة والمعاشرة )	١٠٢ آداب الحضور للدعوة وآداب إحضار الطعام
١٣٩ تحقيق المحبة فى الله	١٠٣ آداب الإنصراف
١٤٠ بيان البغض فى الله	آداب متفرقة - وتليها تنمة

صفحة	صفحة
ونفسه وماله عن ظلم غيره الخ	١٤١ الصفات المشروطة فيمن تختار
١٦١ ومنها إذا بلى بذى بشر فينبغي	صحته
أن يحامله ويتقيه	١٤٢ حقوق الأخوة والصحبة
١٦٢ ومنها أن يختلط بالمساكين	١٥٥ خاتمة في جملة من آداب المعيشة
ويحسن إلى الأيتام	والمجالسة مع أصناف الخلق
١٦٣ ومنها أن يعود مرضاهم ويشيع	١٥٦ بيان حق المسلم والرحم والجوار
جنائزهم	١٥٧ حقوق المسلم - منها أن تحب له
١٦٤ آداب المعزى وتشيع الخنازة	ما تحب لنفسك ومنها أن لا يؤذى
١٦٥ حقوق الجوار	أحداً - ومنها أن يتواضع -
١٦٦ حقوق الأقارب والرحم	ومنها أن لا يسمع بلاغات الناس
والوالدين والولد	بعضهم على بعض ومنها أن لا يزيد
١٦٧ ( كتاب العزلة والمخالطة )	في الهجر على ثلاثة أيام
١٦٨ فوائد المخالطة هي العلم والتعلم	١٥٨ ومنها أن يحسن إلى كل من قدر
والانتفاع بالناس والنفع	عليه ومنها أن لا يدخل على أحد
والتأديب والاستئناس والإيناس	إلا بإذنه ومنها أن يخالق الجميع
ونيل الثواب والتواضع والتجارب	بخلق حسن ومنها أن يكون مع
( كتاب آداب السفر )	كافة الخلق مستبشراً ومنها أن
١٧١	لا يعد مسلماً بوعده إلا ويفي به
أقسام الأسفار	ومنها أن ينصف الناس من نفسه
القسم الأول السفر في طلب العلم	ومنها أن يزيد في توقيير من تدل
١٧٢ القسم الثاني السفر لأجل العبادة	هيئته على توقييره
القسم الثالث أن يكون السفر	١٥٩ ومنها أن يصلح ذات البين
للهرب من سبب مشوش للدين	ومنها أن يستر عورات المسلمين
القسم الرابع السفر هرباً مما	ومنها أن يتقى مواضع التهم
يقدر في البدن كالطاعون الخ	١٦٠ ومنها أن يشفع لكل من له
١٧٣ آداب المسافر من أول نهوضه	حاجة ومنها أن يبدأ من يلقي
إلى آخر رجوعه	بالسلام قبل الكلام
١٧٥ ما لا بد للمسافر من تعلمه من	١٦١ ومنها أن يصون عرض أخيه
رخص السفر الخ	

صفحة	صفحة
١٩١	١٧٧ ( كتاب الأمر بالمعروف والنهي
—	عن المنكر )
والشراب	١٧٩ الشروط التي بها يتحقق التصدي
١٩٢ أخلاقه عليه السلام في اللباس	للانكار
—	١٨١ آداب القائم بالأمر والنهي
١٩٣ إغضاؤه عما كان يكرهه	— المنكرات المألوفة في العادات
—	١٨٢ منكرات الأسواق والشوارع
١٩٤ شجاعته عليه الصلاة والسلام	١٨٤ منكرات الحمامات والضيافة الخ
—	١٨٦ ( كتاب الآداب النبوية والأخلاق
—	المحمدية )
—	١٨٨ بيان جمل من محاسن أخلاقه
—	عليه الصلاة والسلام

﴿ فهرس الجزء الثاني ﴾

صفحة	صفحة
الإنسان عيوب نفسه	٢٠٣ ( كتاب رياضة النفس وتهذيب
٢١٢ بيان تمييز علامات حسن الخلق	الأخلاق ومعالجة أمراض القلب )
٢١٥ بيان الطريق في رياضة الصبيان	— بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة
في أول نشوئهم ووجه تأديبهم	سوء الخلق
ونحسين أخلاقهم	٢٠٤ بيان ما قاله السلف في حسن الخلق
٢١٨ ( كتاب آفات اللسان وخطر اللسان )	٢٠٥ بيان قبول الأخلاق للتغيير
—	بطريق الرياضة
—	٢٠٧ بيان السبب الذي به ينال حسن
—	الخلق على الجملة
٢٢٩ الثالثة الخوض في الباطل	٢٠٩ بيان تفصيل الطريق إلى التهذيب
٢٢٠ الرابعة المراء والجدال	الأخلاق
٢٢١ الخامسة الخصومة	٢١١ بيان الطريق الذي يعرف به
٢٢٢ السادسة التعرف في الكلام	

صفحة	صفحة
٢٤٥	٢٢٢
بيان الأسباب المهيجة للغضب	السابعة الفحش والسب وبذاءة
٢٤٦	٢٢٤
بيان علاج الغضب بعد هيجانه	اللسان
٢٤٧	٢٢٣
فضيلة كظم الغيظ وفضيلة الحلم	الثامنة اللعن
٢٤٩	—
بيان القدر الذي يجوز به الانتصار من الكلام	التاسعة الغناء والشعر
—	العاشرة المزاح
معنى الحقد وتأنيجه الوخيمة	٢٢٦
وفحيلة الرفق	الحادية عشرة السخرية والاستهزاء
٢٥٠	٢٢٧
فضيلة العفو والإحسان	الثانية عشرة إفشاء السر
٢٥١	—
فضيلة الرفق ودم الحسد وحققة الحسد وحكمه وأقسامه	الثالثة عشرة الوعد الكاذب
٢٥٣	٢٢٨
أسباب الحسد	الرابعة عشرة الكذب في القول
٢٥٤	واليمين
بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد	٢٢٩
٢٥٦	—
( كتاب ذم الدنيا )	بيان ما رخص فيه من الكذب
—	بيان الحذر من الكذب بالمعاريض
بيان الدنيا المدمومة	٢٣٠
٢٥٧	—
بيان حقيقة الدنيا في نفسها	الخامسة عشرة الغيبة
٢٥٩	٢٣١
( كتاب ذم البخل ودم المال )	بيان معنى الغيبة وحدودها
٢٦٠	٢٣٢
بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم	بيان العلاج الذي به يمنع اللسان
٢٦١	عن الغيبة
بيان تفضيل آفات المال وفوائده	٢٣٤
٢٦٢	—
بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة والاقتصاد	بيان تحريم الغيبة بالقلب الخ
٢٦٣	٢٣٥
بيان فضيلة السخاء	بيان الأعذار المرخصة في الغيبة
٢٦٥	٢٣٦
بيان ذم البخل	بيان كفارة الغيبة
—	٢٣٧
بيان الإيثار وفضله	السادسة عشرة النجاسة
٢٦٧	٢٣٨
بيان حد السخاء والبخل وحققتهما	السابعة عشرة كلام ذي الوجهين
٢٦٨	٢٣٩
بيان علاج البخل	الثامنة عشرة المدح
٢٦٩	٢٤٠
( كتاب ذم الجاه والرياء )	التاسعة عشرة الخطأ في دقائق لفظية
٢٧٠	٢٤١
بيان الحد الذي يباح فيه الجاه	العشرون سؤال العوام عن
٢٧١	العوامض
سبب حب المدح ونبض الذم	٢٤١
	( كتاب ذم الغضب والحقد
	والحسد )
	٢٤٢
	درجات الناس مع الغضب
	٢٤٤
	زوال الغضب بالرياضة وغيرها

صفحة	صفحة
٢٩٦	٢٧٢
الرابع التفاخر بالجمال	بيان علاج حب الجاه
—	بيان وجه العلاج لحب المدح
الخامس الكبر بالمال	وكراهة الدم
—	٢٧٣
السادس الكبر بالقوة وشدة البطش	بيان علاج كراهة الدم
—	٢٧٤
السابع التكبر بالأتباع والأنصار	بيان ذم الرياء
—	—
والعشيرة والأرقاب	بيان حقيقة الرياء وجوامع
—	ما يرأى به
بيان أخلاق المتواضعين ومجامع	٢٧٧
ما يظهر فيه	حكم الرياء
٢٩٨	٢٨٧
بيان الطريق ق معالجة الكبر	درجات الرياء
واكتساب التواضع وفيه مقامان	٢٨١
٣٠٥	بيان المرأى لأجله
بيان غاية الرياضة في خلق التواضع	٢٨٣
٣٠٦	بيان الرياء الخفى الذى هو أخفى
بيان ذم العجب وآفاته	من ديب النمل
٣٠٧	٢٨٥
بيان علاج العجب على الجملة	بيان ما يحبط العمل من الرياء
٣٠٨	وما لا يحبط
بيان أقسام مابه لعجب وتفصيل	—
علاجه	بيان دواء الرياء وطريق معالجة
٣١١	القلب فيه — وفي علاجه مقامان
( كتاب ذم الغرور )	٢٨٦
٣١٦	المقام الأول في قلع عروقه وأصوله
بيان بعض أصناف المغترين	٢٨٧
٣١٨	المقام الثانى في دفع العارض منه
غرور أرباب العبادة وهم فرق عديدة	أثناء العبادة
٣٢١	—
غرور المتصوفة وهم فرق كثيرة	بيان الرخصة في قصد إظهار
٣٢٣	الطاعات
غرور أرباب الأموال	٢٨٨
( كتاب التوبة )	بيان الخطأ في ترك الطاعات
٣٢٧	خوفاً من الرياء
٣٢٨	٢٩١
وجوب التوبة على القور وعلى الدوام	( كتاب ذم الكبر والعجب )
٣٣١	—
بيان أن التوبة الصحيحة مقبولة	بيان حقيقة الكبر ، وآفته
٣٣٣	٢٩٣
انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر	بيان مابه التكبر الأول العلم
٣٣٤	٢٩٤
بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب	الثانى العمل والعبادة
٣٣٥	٢٩٥
تمام التوبة وشروطها ودوامها	الثالث التكبر بالحسب والنسب
٣٣٧	
أقسام العباد في دوام التوبة	
٣٣٩	
ما يفعله التائب بعد الذنب	

صفحة	صفحة
٣٧٢ ( كتاب المحاسبة والمراقبة )	٣٤١ دواء التوبة وطريقة العلاج لحل
٣٧٣ بيان مشارطة النفس	عقدة الإصرار
٣٧٥ فضيلة المراقبة وحقيقة المراقبة	٣٤٣ ( كتاب الصبر والشكر )
٣٧٦ بيان محاسبة النفس بعد العمل	— حقيقة الصبر وأقسامه
٣٧٧ توبيخ النفس ومعاتبتها	٣٤٤ بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن
٣٧٩ ( كتاب التفكير )	العبد لا يستغنى عنه
٣٨٠ بيان مجارى الفكر	٣٤٨ دواء الصبر وما يستعان به عليه
٣٨٣ بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى	— بيان فضيلة الشكر وحقيقة الشكر
— آية الإنسان	٣٤٩ بيان الشكر في حق الله تعالى
٣٨٩ آية الأرض	٣٥١ السبب الصارف للخلق عن الشكر
٣٩٠ آية أصناف الحيوانات	٣٥٣ ( كتاب الخوف والرجاء )
٣٩١ آية البحار	— بيان حقيقة الرجاء
٣٩٢ آية الهواء وعجائب الجو والسماوات	٣٥٥ بيان حقيقة الخوف
٣٩٥ ( كتاب ذكر الموت وما بعده )	٣٥٩ ( كتاب الفقر وازهد )
٣٩٦ فضيلة قصر الأمل	٣٦٠ آداب الفقير في فقره
— المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير	— آداب الفقير في قبول العطاء
٣٩٧ بيان سكرة الموت والاعتبار بالجنائز	إذا جاءه بغير سؤال
٣٩٩ بيان المأثور عند موت الولد	٣٦١ تحريم السؤال من غير ضرورة
٤٠٠ ذكر ما بعد الموت من البرزخ	وآداب المضطر إليه
وأهوال القيامة	٣٦٣ فضيلة الزهد وحقيقته
٤٠٤ صفة الخصماء ورد المظالم	٣٦٤ ( كتاب النية والإخلاص والصدق )
٤٠٥ القول في أهوال جهنم	٣٦٥ تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية
٤٠٧ صفة الجنة وأصناف نعيمها	٣٦٨ فضيلة الإخلاص وحقيقته
٤٠٩ مخاطبة الكتاب لناشره	٣٦٩ فضيلة الصدق ودرجاته

تم الفهرس والحمد لله أولاً وأخيراً





مطبعة السعادة بمصر







مَوْعِظَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

مِنْ

أَحْيَاءِ عُلَمَاءِ الدِّينِ

تَأَلِيفُ

الْعَلَّامَةِ الْمَرْحُومِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ جَمَالِ الدِّينِ الْفَاسِمِيِّ الدِّمَشْقِيِّ

يَطْلُبُ مِنْ

المكتبة التجارية الكبرى

بمصر ص.ب. ٥٧٨